

قَدِّمَ مُحَمَّدٌ بِأَسْمَائِيلَ

مَوْسُوعَةَ

الْغَزَوَاتُ الْكُبْرَى

غَزْوَةُ حُنَيْنٍ

الْمَكْتَبَةُ السَّلَفِيَّةُ

محمد أحمد باشميل

من معارك الإسلام الفاصلة

— ٩ —

غزوة حُجَّيْن

للكاتب السلفي

[حقوق الطبع محفوظة]

[الطبعة الثالثة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م]

عنيت بطبعه

دار المطابع السلفية

٢١ شارع الفتح بالروضة - القاهرة • تليفون ٨٤٠٣٦٤

غُرُوةُ الْحَكِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بقلم معالي الشيخ إبراهيم العنقري
وزير الإعلام بالمملكة العربية السعودية

هذا هو الكتاب التاسع من سلسلة (معارك الإسلام الفاصلة) التي
دأب — مشكوراً — الأستاذ محمد أحمد باشميل على إصدارها منذ عدة
سنوات .

وقد احتوى هذا الكتاب (وبأسلوب المؤلف المعروف) على دراسات
رائعة ، وتحليلات ثمينة دقيقة ، يجدر بكل حريص على اكتشاف كنوز تاريخه
الإسلامي أن يقرأها ، ويقرأ دراسات وتحليلات المؤلف في بقية هذه السلسلة
التاريخية القيمة . . وفي غزوة حنين دروس وعبر وعظات أجاد المؤلف أيما
إجادة في عرضها وإبرازها أثناء دراسته وتحليله في كتابه هذا .

إن معركة حنين هي — من وجهة النظر العسكرية — أهم وأكبر معركة
يخوضها المسلمون بقيادة نبيهم ﷺ ، فقد اشترك فيها من جانب العدو
الوثني عشرون ألف مقاتل ، ومن جانب المسلمين اثنا عشر ألف مقاتل ، وهو
عدد لم يسبق أو أن قذف الفريقان بمثله في معركة دامية طويلة العهد النبوي
كله ، كما أن معركة حنين هي آخر وخاتمة المعارك التي يخوضها المسلمون
بقيادة نبيهم ﷺ . كذلك كان انتصار المسلمين الحاسم في هذه المعركة آخر
مسمار يندق في نعش الوثنية بجزيرة العرب حيث (بعد انهيار قوة هوازن وهي
أقوى قوة ضارية في جزيرة العرب) لم تعد هناك أية قوة قادرة على مواجهة
المسلمين .

ولهذا لم يعد المسلمون — بعد حنين — بحاجة إلى تجريد قوات كثيفة لتوطيد دعائم الإسلام في الجزيرة — فما بقى للوثنية بعد حنين إنما هو جيوب صغيرة جرد الرسول ﷺ على كل منها مفرزة صغيرة من أصحابه أنهت مقاومتها .. وغزوة تبوك الشهيرة التي قاد الرسول فيها بنفسه ثلاثين ألف مقاتل ، إنما كانت لإرهاب الرومان الذين بلغه أنهم يحتشدون للإغارة على جزيرة العرب .

إن الجهد الذى يبذله الأخ الأستاذ محمد أحمد باشميل لإصدار هذه السلسلة التاريخية الثمينة (معارك الإسلام الفاصلة) جهد مشكور ينبغى أن يلقى حقه من التقدير والتشجيع .

إن الذى يتصفح هذا الكتاب وبقية الكتب من هذه السلسلة يدرك مدى الجهد المضنى الذى يبذله المؤلف لخدمة التاريخ الإسلامى ، برفع الأتربة عن كنوز هذا التاريخ الذى يجب أن يهتم به ويقرأه — بتدبر وإمعان — شبابنا ليكون دليلهم الهادى فى طرق العزة والمجد والشرف والاستقامة .

فالتاريخ الإسلامى (وخاصة العهد النبوى) زاهر بروائع البطولات وأمثلة الفداء والنبيل والشهامة ، هذه الأمثلة التى عن طريقها دخل المسلمون التاريخ من أوسع أبوابه ، وما أحوجنا نحن المسلمين والعرب خاصة (وخاصة فى هذه الفترة الحرجة من تاريخنا) إلى الإلمام بهذه الأمثلة والروائع من تاريخ أسلافنا الأماجد كى تكون لنا القدوة النافعة الصالحة ، وتبتعد بنا عن مزالق شعارات المبادئ الهدامة المستوردة التى أضرت بنا فى مسيرتنا أكثر مما أضرت بنا سلاح العدو العسكرى .

لقد سلك الأخ الأستاذ باشميل فى تحليلاته ودراساته التاريخية فى هذا الكتاب — وفى بقية الكتب من سلسلته — مسلكاً قل الذين يسلكونه اليوم .

فمما يغبط عليه هو تركيزه فى هذه السلسلة على الدقة فى الدراسة والتحليل وإحالة القارئ بعناية ، إلى المصادر التاريخية الرئيسية الكبرى ،

التي لا يفتأ المؤلف يذكرها ويرشد القارئ إليها في كل مناسبة . . الأمر الذي يوحى للقارئ بالثقة بأنه حينما يقرأ للأستاذ باشميل كتاباً من هذه الكتب التسعة ، إنما يقرأ مراجع تاريخية إسلامية هامة ، لا قصصاً سطحية ينتهى أثرها بالانتهاء من قراءتها .

إذن (وهذه كلمة حق) فسلسلة (معارك الإسلام الفاصلة) التي أجهده المؤلف نفسه في إصدارها ، هي من أهم المراجع التاريخية الثمينة في العهد النبوي ، لاسيما إذا أخذنا بعين الاعتبار الجهد الذي يبذله المؤلف لتنسيق الأحداث التاريخية وربط بعضها ببعض ربطاً دقيقاً محكماً ، بأسلوب سهل ممتنع ، بحيث يسهل على أى راغب في معرفة أية سرية أو حملة عسكرية أو حادثة سياسية أو تشريعية هامة في العهد النبوي ، أن يجدها في هذه السلسلة ، وهذا أمر فيه خدمة كبيرة لطلاب الدراسات العليا في الجامعات والمدارس .

ثم إن ما يمتاز به هذا الكتاب التاسع وكل كتب المؤلف من هذه السلسلة هو أن المؤلف لا يقتصر في دراساته وتحليلاته على حيز المعركة أو الغزوة التي يجعلها العنوان الرئيسى للكتاب (كغزوة حنين هذه) وإنما يقدم أثناء ذلك للقارئ — وبمنتهى الدقة والصبر — عرضاً شيقاً للأحداث العسكرية والسياسية والتشريعية المهمة التي سبقت المعركة الرئيسية أو واكبتها .

ففى كتبه التسعة من هذه السلسلة أتى بالتفصيل على ذكر جميع السرايا والحملات الحربية الثانوية والأحداث السياسية وغيرها من الأحداث الهامة ، التي تحدث بين المعركة الرئيسية التي تكون عنواناً لكتابة ، وبين المعركة التي تكون عنواناً للكتاب الذى يليه ، كالأحداث والسرايا والبعوث التي حدثت (مثلاً) ما بين غزوة بدر وغزوة أحد ، وهذا هو دائماً نهج المؤلف فى جميع مؤلفاته التسعة من هذه السلسلة .

إذن يمكن أن يطلق (عن جدارة) على هذه السلسلة القيمة اسم

الموسوعة الكبرى في تاريخ العهد النبوى ، وخاصة إذا اكتملت بالكتاب
العاشر (غزوة تبوك) الذى شرع المؤلف فى تأليفه .

وبعد فإنى إذ أزجى شكرى الخالص العميق للأخ الأستاذ محمد أحمد
باشميل على هذا الجهد الكبير الذى يبذله لخدمة التاريخ الإسلامى بمثابرته
(وبصير كبير) على إصدار هذه السلسلة ، أدعو شبابنا المسلم — وخاصة
الطلاب منهم — إلى الاهتمام بكنوز تاريخنا الإسلامى المشرق ، التى سيجدون
منها ما يشفى غليلهم وينير لهم الطريق — فى هذه السلسلة ، أو الموسوعة
السهلة المبسطة ، التى قطع المؤلف شوطاً كبيراً فى إكمالها ، كما أئنى أدعو من
صميم قلبى للأخ المؤلف ببالغ التوفيق ، وأن يجعل الله تعالى ثوابه جزيلاً على
هذا الجهد الكبير .

وزير الإعلام

إبراهيم العنقرى

الرياض . . المملكة العربية السعودية

١٣٩٣/٤/٢٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلف

— ١ —

نحمدك اللهم ونستعينك ونستهديك ونعوذ بك من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، وصل اللهم على نبيك ورسولك محمد وآله وصحبه وسلم .

وبعد فهذا أيها القارئ الكريم كتابنا التاسع (غزوة حنين) من سلسلة معارك الإسلام الفاصلة التي استخرنا الله تعالى في إصدارها .

فنسأل الله عز وجل أن يمدنا بعونه وتوفيقه ، وأن يجعلنا ممن يخلصون له في القول والعمل ، وأن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وأن يجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم لقائه إنه سميع مجيب .

ونأمل من كل قارئ لهذا الكتاب ، أو لأي كتاب آخر من هذه السلسلة أن يرشدنا إلى أي خطأ أيا كان في أي من هذه السلسلة لنسارع إلى إصلاحه ، فكل بني آدم خطّاءون ، وهدفنا إنما هو خدمة التاريخ الإسلامي .

— ٢ —

إن في معركة حنين دروساً وعبراً ومواعظ ، أهمها أن القوة العسكرية وحدها لا تكفي لتحقيق الانتصار ، وأن المبالغة في الاعتماد على القوى المادية العسكرية إلى حد الغرور هي — دائماً وأبداً — مصدر النكبات .

— ٩ —

فالغرور بالقوة العسكرية يؤدي إلى الاستهانة بالعدو ، والاستهانة بالعدو تشيع اللامبالاة والاسترخاء بين عناصر الجيش المغرور ، الأمر الذي يتيح لعدوه أكثر من فرصة قد تؤدي إلى تدميره رغم كثرته وحسن تسليحه .

— ٣ —

ولقد أدب الله المسلمين في معركة حنين . . بسبب إعجابهم بقوتهم ، فنزلت بهم الهزيمة المروعة في المرحلة الأولى من المعركة ، وذلك لكي يشعروا أن السلاح الذي يكفل لهم النصر ، إنما هو — في الدرجة الأولى — قوة الإيمان بالله تعالى لا القوة العسكرية المجردة ، وإلى هذه الحقيقة أشار القرآن الكريم بقوله ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ (١) الآية .

وتاريخ المسلمين — في عهودهم المشرقة — زاخر بالشواهد والأدلة على أن ما حققوه من أمجاد رائعة رغم قتلهم وكثرة أعدائهم — إنما سببه في الدرجة الأولى — إيمانهم بالله تعالى واتباعهم الإسلام اعتقاداً وقولاً وسلوكاً .

فعلى أجيالنا التي تتوق إلى العزة والسؤدد أن تحذو حذو أولئك الأبرار من أسلافنا في التمسك بالإسلام قولاً وعملاً ، وإلا فإن من طلب العزة من المسلمين بغير الإسلام أذله الله . . نسأل الله تعالى أن يعيد أتباع محمد ﷺ إلى جادة الصواب ليستعيدوا عزهم الضائع ومجدهم المفقود .

المؤلف

جدة — المملكة العربية السعودية

١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م

(١) التوبة ٢٥ — ٢٦ .

الفصل الأول

مجلل الأحداث بين فتح مكة وغزوة حنين

بعد أن تمت السيطرة للمسلمين على مكة (وهى أهم وأعظم معقل للوثنية) بدا واضحاً وكأن نجم الوثنية (لا فى الحجاز وحده ، بل فى الجزيرة العربية كلها) يسرع نحو الأفول . وأن أمر انهيار الوثنية فى الجزيرة كلها إنما هو مسألة وقت فقط .

لأن مكة (سواء من الناحية العسكرية أو السياسية أو المعنوية أو الروحية) محط أنظار الوثنيين على اختلاف ميولهم ومشاربهم .

وبعد انهيار الوثنية شرق المدينة وبعد انتهاء الوجود اليهودى فى خير الذى كان أعظم خطر (من الناحية البشرية والسياسية والمالية) يهدد الوجود الإسلامى . . بعد حدوث ذلك لصالح الإسلام والمسلمين . لم يبق من يخشاه المسلمون ويحسبون له الحساب الدقيق ، وله وزنه الثقيل فى نظرهم سوى قوتين عظيمتين اثنتين (قريش فى مكة وهوازن فى بواديها الشاسعة الواسعة الممتدة من حدود الحرم فى الحجاز حتى أطراف نجد فى الشرق والشمال) .

أما قريش العدو الرئيسى الأكثر تنظيماً والأخطر عداوة للإسلام والمسلمين فقد تحطم وجوده وزال خطره بوقوع عاصمته مكة فى أيدي قوات التوحيد فى شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة^(١) ، ولم يبق من يخشاه المسلمون خشية حقيقية سوى قبائل هوازن ذات القوة الحربية الشديدة والعدد الهائل حيث كان باستطاعتها أن تحشد أكثر من عشرين ألف مقاتل ، هو ما فعلته حين زحفت بهذه القوة صوب مكة فالتقى بها المسلمون فى أوطاس (وادى حنين)

(١) انظر تفاصيل فتح مكة وإنهاء وجود قريش الوثنى فى كتابنا الثامن (فتح مكة) .

فدارت بين الفريقين تلك المعركة التاريخية الحاسمة التى هى موضوع دراستنا الرئيسية فى هذا الكتاب .

جيوب المقاومة حول مكة قبل هوازن

غير أنه رغم زوال سلطان قريش (الأم الكبرى للوثنية) فقد بقيت حوالى مكة (غير هوازن) جيوب مقاومة للوثنية من العرب . . رأى النبي ﷺ أن ينهى مقاومتها ويخضعها لسلطان التوحيد قبل أن يدخل فى المعركة الفاصلة مع قبائل هوازن .

فبعد أن استتب الأمر للمسلمين وتمت لهم السيطرة الكاملة على مكة المكرمة . بعث الرسول ﷺ بعدة وحدات من جيشه من مكة ، للعمل على إزالة أى أثر من آثار الوثنية فى المنطقة . فقامت هذه الوحدات بهدم كل ما تبقى من أصنام فى تلك المناطق الواقعة فى الجنوب والجنوب الشرق من مكة المكرمة . فهدمت وحدات الجيش الإسلامى صنم (مناة) وصنم (العزى) وهما من أعظم الأصنام التاريخية المعظمة عند العرب ، واللذين جاء ذكرهما فى القرآن الكريم ، كما هدمت غيرهما من الأصنام التى هى المظهر الرئيسى للوثنية .

والعمليات الحربية التى قام بها الجيش الإسلامى من مكة (قبل معركة حنين) هى خمس عمليات عسكرية . وهى :

— ١ —

سرية المشلل^(١) عام ثمان للهجرة

وهى دورية قتال قام بها من مكة سعد بن زيد الأشهلى لهدم صنم مناة بالمشلل فقام بهدم الصنم ذكر ذلك الواقدى فى مغازيه . إلا أنه لم يذكر أية تفاصيل عن كيفية هدم الصنم وكيف كان موقف عبّاده . هل حدثت منهم مقاومة أم لا ؟.

(١) المشلل (بضم أوله وفتح ثانیه مع الكسر ..) قال الكلبي فى كتابه الأصنام .. المشلل ، مكان على ساحل البحر بقديد بين مكة والمدينة .

فكل ما قاله الواقدي : وبعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة بالمشلل فهدمه . ومناة من أقدم الأصنام التي كان العرب يعبدونها ، فهي أقدم من العزى وسائر الأصنام كلها . قال الكلبي في كتابه الأصنام : ومناة أقدم أصنام العرب ، وكانت العرب تسمى عبد مناة ، وزيد مناة ، وكان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد ، بين مكة والمدينة ، وكانت العرب جميعاً تعظمه وتذبح حوله ، وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة ، وما قارب من الموضع يعظمونه ويذبحون به ويهدون له .

وكان أولاد معدّ على بقية من دين إسماعيل عليه السلام وكانت ربيعة ومضر على بقية من دينه ، ولم يكن أحد أشدّ تعظيماً له (أى مناة) من الأوس والخزرج .

وقال الكلبي : كانت الأوس والخزرج ومن يأخذ بأخذهم من عرب أهل يثرب وغيرها ، فكانوا يحجون فيقفون مع الناس المواقف كلها ، ولا يخلقون رؤوسهم فإذا نفروا ، أتوا (مناة) فحلّقوا رؤوسهم عنده وأقاموا عنده ، لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك ، فلإعظام الأوس والخزرج (لمناة) يقول عبد العزى بن وداعة المزني أو غيره من العرب .

إني حلفت يمين صدق برة بمناة عند محل آل الخزرج وكانت العرب في الجاهلية يسمون الأوس والخزرج جميعاً . . الخزرج ، فلذلك يقول . . (عند محل آل الخزرج) .

ومناة هذه ذكرها الله عز وجل فقال ﴿ ومناة الثالثة الأخرى ﴾ وكانت لهذيل وخزاعة^(١) .

ويخالف الكلبي الإمام الواقدي . فيذكر أن الذي تولى هدم (مناة) هو الإمام علي بن أبي طالب فيقول : وكانت قريش وجميع العرب تعظمه (أى مناة) ، فلم يزل على ذلك حتى خرج رسول الله ﷺ من المدينة سنة ثمان من الهجرة ، وهو عام فتح الله عليه ، فلما سار من المدينة أربع ليال أو خمس

(١) كتاب الأصنام ص ١٣ - ١٤ .

ليال بعث علياً إليها فهدمها وأخذ ما كان لها ، فأقبل به إلى النبي ﷺ ، فكان فيما أخذ سيفان كان الحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان أهداهما لها . أحدها يسمى مخدماً ، والآخر رسوباً ، وهما سيفا الحارث اللذان ذكرهما علقمة في شعره فقال :

مظاهر سربالى حديد عليهما عقبلا سيوف مخدّم ورسوب

فوهبهما النبي ﷺ لعلّى ، فيقال : إن ذا الفقار سيف على أحدهما . ويقال : إن علياً وجد هذين السيفين في الفلس وهو صنم طيء حيث بعثه النبي ﷺ فهدمه . (١)

— ٢ —

حمة هدم العزى ٢٥ رمضان سنة ثمان للهجرة .

قامت بها دورية قتال مكونة من ثلاثين فارساً قام بقيادتهم خالد بن الوليد الذى كلفه الرسول ﷺ بهدم العزى (وهى أعظم الأصنام عند قريش) . وقد ذكر أصحاب المغازى والسير أن خالد بن الوليد ذهب بفرسانه إلى العزى (وهى مقامة بأحد روافد وادى نخلة المسمى اليوم بوادى اليمانية) فهدمها .

قال الواقدي : قدم رسول الله ﷺ مكة يوم الجمعة لعشر ليال بقين من رمضان فبث السرايا فى كل وجه ، أمرهم أن يغيروا على من لم يكن على الإسلام فخرج هشام بن العاص إلى يلملم وبعث خالد بن سعيد بن العاص فى ثلاثمائة قَبْلُ عُرْنَةَ (٢) .

وبعث خالد بن الوليد إلى العزى يهدمها ، وقال ابن إسحاق : كانت بنخلة ، كانت بيتاً يعظمه هذا الحى من قريش وكنانة ومضر كلها ، وكانت سدنتها وحجباها من بنى شيبان (٣) من بنى سليم (٤) .

(١) كتاب الأصنام ص ١٥ .

(٢) عرنه (بضم العين وفتح الراء) : واد حذاء عرفات بين عرفات والمزدلفة .

(٣) شيبان (يفتح الشين) : اسم يطلق على عدة قبائل عربية ، وشيبان هنا ، هم بطن من سليم

وهم حلفاء بنى هاشم .

(٤) انظر ترجمة سليم فى كتابنا (فتح مكة) .

فلما سمع صاحبها (أى سادنها) السلمى بمسير خالد إليها ، وأسند في الجبل الذى هى فيه وهو يقول :

أيا عزّ شدى شدة لا شوى لها على خالد ألقى القناع وشمري
أيا عزّ إن لم تقتلى المرء خالداً فبوتى بإثم عاجل أو تنصرى^(١)
فلما انتهى إليها خالد هدمها ثم رجع إلى رسول الله ﷺ^(٢) .

وفي رواية بعض المؤرخين ، أن خالداً لما هدم العزى ورجع إلى النبی ﷺ قال له : هدمت ؟ قال : نعم يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : هل رأيت شيئاً ما ؟ قال : لا . قال : فارجع فإنك لم تهدمها فارجع إليها فاهدمها . فرجع خالد وهو متغيظ ، فلما انتهى إليها جرد سيفه ، فخرجت إليه امرأة سوداء عريانة ، ناشرة الرأس فجعل السادن يصيح بها . قال خالد وأخذنى اقشعرار فى ظهري فجعل يصيح :

أيا عزّ شدى شدة لا تكذبى على خالد ألقى القناع وشمري
أيا عزّ إن لم تقتلى المرء خالداً فبوتى بذنب عاجل أو انتصرى
فأقبل خالد بالسيف إليها وهو يقول :

يا عزّ كفرانك لا سبحانك إني وجدت الله قد أهانك

فضربها بالسيف فجزها^(٣) باثنين ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال : نعم تلك العزى وقد يمست أن تعبد ببلادك أبداً ثم قال خالد ، أى رسول الله ، الحمد لله الذى أكرمنا وأنقذنا من الهلكة . إني كنت أرى أبى يأتى إلى العزى بحتره^(٤) . مائة من الإبل والغنم فينحجها للعزى ويقيم عندها ثلاثاً ثم ينصرف إلينا مسروراً . فنظرت إلى ما مات عليه أبى وذلك الرأى الذى كان يعاش في فضله ، كيف خدع حتى صار يذبح الحجر لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع . فقال رسول الله ﷺ إن هذا الأمر إلى الله ، فمن يسره للهدى تيسر ، ومن يسره للضلالة كان فيها . وكان هدم العزى

(١) أو تنصرى : أن انتصرى .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٩٧ .

(٣) جزل بمعنى قطع .

(٤) قال في الصحاح : الحتر ، بكسر الحاء : العطية اليسيرة ، وبالفتح : المصدر .

لخمس ليال بقين من رمضان سنة ثمان (للهجرة) .

وكان سادنها أفلح بن نضر الشيباني من بنى سليم ، فلما حضرته الوفاة دخل عليه وهو حزين ، فقال له أبو هب : مالي أراك حزينا ؟ قال : أخاف أن تضيع العزى من بعدى . قال أبو هب : فلا تحزن ، فأنا أقوم عليها بعدك . فجعل كل من لقي قال : إن تظهر العزى كنت قد اتخذت يداً عندها بقيامى عليها ، وأن يظهر محمد على العزى — ولا أراه يظهر — فابن أخى . فأنزل الله عز وجل : ﴿ تَبْتَ يداً أبى هب ﴾ . ويقال : إنه قال هذا فى اللات^(١) .

تاريخ العزى

يدل سياق المختصين بتاريخ الأصنام ونشوء الوثنية فى جزيرة العرب أن الصنم (مناة) أقدم وجوداً من الصنم (العزى) . وأن العزى إنما اتخذتها قريش وغيرها من العرب إلهاً من دون الله ، بعد اللات ومناة ، فقد ذكر الكلبي فى كتابه (الأصنام) أن العزى أحدث من اللات ومناة ، وعلل ذلك بقوله : إننى سمعت العرب سمّت بهما قبل (العزى) ، فوجدت تميم بن مر سمى ابنه (زيد مناة) بن تميم بن مر بن أد بن طابخة ، وعبد مناة بن أد ، وباسم (اللات) سمى ثعلبة بن عكابة ابنه (تيم اللات) . . وتيم اللات بن رفيدة بن ثور . . و (زيد اللات) بن رفيدة بن ثور بن وبرة بن مر بن أد بن طابخة . . و (تيم اللات) بن النمر بن قاسط و (عبد العزى) بن كعب بن سعد بن زيد بن مناة بن تميم فهى (أى العزى) أحدث من الأوليين .

أول من تسمى باسم العزى من العرب :

وكان عبد العزى بن كعب من أقدم ما سمّت به العرب . . وكان الذى اتخذ العزى ظالم بن سعد .

كانت بواد من نخلة الشامية يقال له حراض بإزاء العمير عن يمين المصعد إلى العراق من مكة ، وذلك فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال فبنى عليها

(١) الوندى ج ٣ ص ٣٧٨ وما بعدها .

(يريد بيتاً) ، وكانوا يسمعون فيه الصوت ، وكانت العرب وقريش تسمى بها عبد العزى ، وكانت أعظم الأصنام عند قريش ، وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبح^(١) .

وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول .

واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى
فإنهن الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى
وكانوا يقولون . . بنات الله (عز وجل عن ذلك) وهن يشفعن إليه . فلما بعث الله رسوله أنزل عليه ﴿ أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذن قسمة ضيزى إن هى إلا أسماء سميتوهن أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾^(٢) .

وكانت قريش قد حمت للعزى شعباً من وادى حراض يقال له سقام .
يضاهون به حرم مكة ، فذلك قول أوى جندب الهذلى ثم القردي فى امرأة
كان يهواها فذكر حلفها له بالعزى :

لقد حلفت جهداً يميناً غليظة بفرع الذى أحمت فروع سقام
لئن أنت لم ترسل ثيابى فانطلق أباديك أخرى عيشنا بكلام
يعز عليه صرم أم حويرث فأمسى يروم الأمر كل مرام
ولها يقول درهم بن زيد الأوسى .

إلى بيت العزى السعيدة والله الذى دون بيته سرف
وكان لها منحرون فى هداياها يقال له العُعبُ .
فله يقول الهذلى وهو يهجو رجلاً تزوج امرأة جميلة يقال لها أسماء :

لقد أنكحت أسماء الحى بقبيرة

من الأدم أهداها امرؤ من بنى غنم

رأى قذعاً فى عينها إذ يسوقها

إلى غيبب العزى فوضع فى القسم

(١) كتاب الأصنام ص ١٩ نشر الدار القومية للطباعة والنشر — القاهرة

(٢) النجم ١٩ — ٢٢ .

(م - ٢ | غزوة حنين)

فكانوا يقسمون لحوم هداياهم فيمن حضرها وكان عندها . فلغيب ،
يقول نبيكة الفزاري لعامر بن الطفيل :

يا عام لو قدرت عليك رماحنا والرقصات إلى منى فالغيب
لتقيت بالجعاء طعنة فاتك مُران أو لثويت غير محسب
وله يقول قيس بن منقذ بن عبيد بن ضاطر بن حبشية بن سلول الخزاعي
(ولدته امرأة من بنى حداد من كنانة) وهو قيس بن الحدادية الخزاعي :
تلينا بيت الله أول حلقة وإلا فأنصاب يسرن بغيب
وكانت قريش تحضها بالإعظام . . فلذلك يقول زيد بن عمر بن نفيل .
وكان قد تأله في الجاهلية وترك عبادتها وعبادة غيرها من الأصنام :

تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتها ولا صنمى بنى غنم أزور . .
ولا هُبلاً أزور وكان رباً لنا في الدهر إذ حلمى صغير
وكان سدنة العزى بنو شيبان بن جابر بن مرة بن عيس بن رفاعه بن
الحارث بن عتبة بن سليم بن منصور من بنى سليم ، وكان آخر من سدنها
منهم دية بن حرمى السلمى ، وله يقول أبو خراش الهذلى — وكان قدم عليه
فحذاه نعلين جديتين فقال :

حذاني بعدما خذمت نعالى دية إنه نعم الخليل
مقابلتين من صلوى مشب من الثيران وصلهما جميل
فنعم معرّس الأضياف تذحى رحالهم شامية بليل
يقاتل جوعهم بمكلمات من الفرى يرعها الجميل
فلم تزل العزى كذلك حتى بعث الله نبيه ﷺ فعابها وغيرها من الأصنام ،
ونهاهم عن عبادتها ونزل القرآن فيها .

فاشتد ذلك على قريش ، ومرض أبو أحيحة (وهو سعيد بن العاص بن
أمية بن عبد شمس بن عبد مناف) مرضه الذى مات فيه ، فدخل عليه أبو
لهب يعوده ، فوجده يبكى . فقال : ما يبكيك يا أبا أحيحة ؟ أمن الموت
تبكى ولا بد منه ؟ قال : لا . ولكنى أخاف ألا تعبد العزى بعدى . قال أبو لهب :
والله ما عبدت فى حياتك لأجلك ، ولا تترك عبادتها بعدك لموتك . فقال أبو

أحيحة : الآن علمت أن لى خليفة ، وأعجبه شدة نصبه فى عبادتها .

قالوا : فلما كان عام الفتح دعا النبى ﷺ خالد بن الوليد فقال : انطلق إلى شجرة بيطن نخلة فاعضدها ، فانطلق فأخذ دُيَّة فقتله ، وكان سادنها ، فقال أبو خراش الهذلى فى دُيَّة يرثيه :

ما لدُيَّة منذ اليوم لم أره

وسط الشروط ولم يلهم ولم يطف (١)

لو كان حياً لغاداهم بمرعة

من الروايق من شيزى بنى الهطف (٢)

ضحخم الرماد عظيم القدر جفنته

حين الشتاء كحوض المنهل اللقف (٣)

أمسى سقام خلاء لا أنيس به

إلا السباع ومَرَّ الریح بالغرف

قالوا : وكان سعيد بن العاص أبو أحيحة يعتَمِّ بمكة ، فإذا اعتَم لم يعتم أحد بلون عمامته .

وعن ابن عباس . قال : كانت العزى شيطانة تأتى ثلاث مرات بيطن نخلة .

ولم تكن قريش بمكة ومن أقام بها من العرب يعظمون شيئاً من الأصنام إعظامهم العزى . فكانت قريش تخصها دون غيرها بالزيارة والهدية ، وكانت ثقيف تخص اللات كخاصة قريش العزى . وكانت الأوس والخزرج تخص مناة كخاصة هؤلاء الآخرين ، كلهم كان معظماً لها (أى العزى) .

ولم يكونوا يرون فى الخمسة الأصنام التى دفعها عمرو بن لحي وهى التى ذكرها الله تعالى فى القرآن المجيد حيث قال : ﴿ ولا تذرْ وداً ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسراً ﴾ كرايهم فى هذه ولا قريباً من ذلك (٤)

(١) يطف : أى يطيف من الطوفان ، من طاف يطيف .

(٢) الهطف بطن من بنى عمر بن أسد .

(٣) اللقف الخوص المتكسر .

(٤) كتاب الأصنام للكلبي ص ١٧ إلى ٢٧ .

حملة يلملم أواخر شهر رمضان سنة ثمان للهجرة :

وهى دورية قتال مكونة من مائتى مقاتل بعث بهم النبي ﷺ بقيادة هشام بن العاص لمقاتلة من تبقى على الوثنية فى منطقة يلملم الواقعة جنوب شرقى مكة المكرمة والواقعة بين مكة والطائف ، وعلى مسافة ليلتين من الطائف للماشى .

ويلملم هو ميقات أهل اليمن للحج ، وفيه مسجد معاذ بن جبل . وقال المرزوى : هو جبل من الطائف على ليلتين . وقيل ، هو واد ، قال فيه الشاعر أبو دهبيل :

فما نام من راع ولا ارتد سامر

من الحى حتى جاوزت نى يلملما^(١)

ولم أر فيما بين يدى من مصادر إلى أية قبيلة فى يلملم قصدت ذلك الحملة العسكرية التى جردها الرسول ﷺ بقيادة هشام بن العاص . كما أنه لم يبلغنا هل دار قتال فى هذه الغزوة أم لا .

وكل ما حصلنا عليه هو قول الواقدى : « فبعث رسول الله ﷺ السرايا فى كل وجه وأمرهم أن يغيروا على من لم يكن على الإسلام ، فخرج هشام ابن العاص فى مائتين قبل يلملم »^(٢) .

ولكن من المرجح أن تكون حملة هشام بن العاص هذه وجهت إلى حى من هوازن ، لأن قبائل كل تلك المنطقة الواقعة حول الطائف كلهم من هوازن أو حلفاء ثقيف ، وهم بطن من هوازن .

(١) معجم البلدان لياقوت ج ٥ ص ٤٤١ .

(٢) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٧٣ .

حملة عرنة : أواخر رمضان سنة ثمان للهجرة :

وعرنة هو الوادى المشهور اليوم بحذاء عرفات ، وليس منها ، وفى هذا الوادى ألقى الرسول ﷺ — وهو فى طريقه إلى عرفات — خطبته المشهورة بخطبة حجة الوداع .

وكان سكان عرنة عند ظهور الإسلام بطنا من هذيل ، شديدى العداوة لرسول الله ﷺ فكانوا فى السنة الرابعة من الهجرة قد حشدوا جيشاً فى عرنة يقصدون به غزو النبى ﷺ فى المدينة .

إلا أن النبى ﷺ أرسل أحد الفدائين من أصحابه وهو عبد الله بن أنيس الجهنى ، ففتك (فى عرنة) بقائد الجيش خالد بن سفيان الهذلى . ففشل غزو هذيل إذ ألغوا مخطط الغزو بعد مصرع قائدهم (١)

أما القوة التى تحركت من مكة إلى عرنة فى السنة الثامنة من الهجرة عقيب الفتح فقد كانت مكونة من ثلاثمائة مقاتل ، أعطى النبى ﷺ قيادتهم لخالد ابن سعيد بن العاص (٢) ، لإنهاء الوجود الوثنى فى عرنة ، غير أن أحداً من المؤرخين كذلك (فيما وصل إلى علمنا) لم يعط أية تفاصيل عن عمليات القوة العسكرية التى قادها خالد بن سعيد بن العاص إلى عرنة .. إلا أنه مما لا جدال فيه أنها موجهة إلى قبيلة هذيل التى بقى الكثير منهم على الوثنية عقب فتح مكة ، والتى موطنها (عرنة) التى وجهت إليها الحملة .

غزوة بنى جذيمة (٣) ، أواخر شهر رمضان سنة ثمان للهجرة :

ومن أهم الأحداث العسكرية التى حدثت بعد فتح مكة وقبل غزوة

(١) انظر كتابنا (غزوة الأحزاب) ص ٣٠

(٢) انظر ترجمة خالد بن سعيد فيما يأتى من هذا الكتاب .

(٣) جذيمة . بطن من كنانة ، وهم بنو جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة . كانوا يسكنون =

حنين . تلك الوقعة التي أوقع فيها خالد بن الوليد بنى جذيمة ، وتعرض فيها للوم من رسول الله ﷺ بسبب خطأ وقع فيه لم يكن عن سوء نية منه . حيث قتل مجموعة من بنى جذيمة وهم مسلمون ظناً منهم أنهم لا يزالون مشركين .

وتفصيل ذلك أن النبي ﷺ كلف خالداً بن الوليد قائد الفرقة الرابعة التي تولت الزحف على مكة من جنوبها كلفه بالتوجه إلى ديار بنى جذيمة داعياً إلى الإسلام ، ولم يبعثه مقاتلاً^(١) .

فقد ذكر المؤرخون أن النبي ﷺ عقد لخالد بن الوليد لواء القيادة على ثلاثمائة وخمسين رجلاً من المجاهدين والأنصار وبنى سليم . وبعثه من مكة إلى بنى جذيمة أسفل مكة .

وكان خالد (كقائد عسكري حازم) معروفاً بسرعة اتخاذ القرارات وسرعة تنفيذها . . ونتيجة ذلك تسرع في أمور (مجتهداً) فارتكب أعمالاً تبرأ منها الرسول ﷺ وغضب لها على خالد ، وذلك أنه (باجتهاد منه) أمر رجاله بأن يعدموا بعض الأسرى من بنى جذيمة الذين اتضح أنهم مسلمون وليسوا مشركين . ولكن الرسول ﷺ عقب التحقيق الذي أجراه مع خالد رضى الله عنه بعد أن استغفر له ثم دفع ديات القتلى من بنى جذيمة . لأنهم مسلمون ولأن قتلهم كان عن طريق الخطأ في الاجتهاد من القائد المسؤول خالد بن الوليد .

قال الواقدي : لما رجع خالد بن الوليد من هدم العزى إلى رسول الله ﷺ وهو مقيم بمكة ، بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى جذيمة ، وبعثه داعياً لهم إلى الإسلام ولم يبعثه مقاتلاً فخرج في المسلمين من المجاهدين والأنصار وبنى سليم ، فكانوا ثلاثمائة وخمسين رجلاً ، فانتهى إليهم بأسفل مكة ، فقبل لبنى جذيمة هذا خالد بن الوليد معه المسلمون . قالوا : ونحن قوم مسلمون ، قد صلينا وصدقنا بمحمد ، وبنينا المساجد وأذنا فيها . فانتهى إليهم خالد وقال :

= الغميصا (معجم قبائل العرب) ج ١ ص ١٧٦ .

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٨٧٥ .

الإسلام . فقالوا : نحن مسلمون . قال : فما بال السلاح عليكم ؟ قالوا : إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة فحفظنا أن تكونوا هم . فأخذنا السلاح لكي ندفع عن أنفسنا من خالف دين الإسلام . قال : فضعوا السلاح فقال لهم رجل منهم يقال له جحدم : يا بنى جذيمة ، إنه والله خالد وما يطلب محمد من أحد أكثر من أن يقر بالإسلام ، ونحن مقرون بالإسلام ، وهو خالد لا يريد بنا ما يراد بالمسلمين ، وأنه ما يقدر مع السلاح إلا الإِسار ، ثم بعد الإِسار السيف . . قالوا نذكرك الله ، تسومنا . فأبى يلقي سيفه حتى كلموه جميعاً ، فألقى سيفه وقالوا : إنا مسلمون والناس قد أسلموا ، وفتح محمد مكة ، فما نخاف من خالد ؟ فقال : أما والله ليأخذنكم بما تعلمون من الأحقاد القديمة . فوضع القوم السلاح ، ثم قال لهم خالد : استأسروا . فقال جحدم : يا قوم ما يريد من قوم مسلمين يستأسرون . إنما يريد ما يريد ، فقد خالفتُموني وعصيتُم أمرى ، وهو والله السيف ، فاستأسر القوم ، فأمر بعضهم يكتف بعضاً ، فلما كتفوا دفع إلى كل رجل من المسلمين الرجل والرجلين ، وباتوا في وثاق ، فكانوا إذا جاء وقت الصلاة يكلمون المسلمين فيصلون ثم يربطون ، فلما كان في السحر ، والمسلمون قد اختلطوا بينهم ، فقائل يقول : ما نريد بأسرهم ، نذهب بهم إلى النبي ﷺ . وقائل يقول : ننظر هل يسمعون أو يطيعون ، ونبلوهم ونخبرهم ، والناس على هذين القولين ، فلما كان في السحر نادى خالد بن الوليد : من كان معه أسير فليذاهه — والمذاقة الإجهاز عليه بالسيف — فأما بنو سليم فقتلوا كل من كان في أيديهم ، وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا (أطلقوا) أسارهم .

وقد جرت مشادة بين القائد خالد بن الوليد وأحد كبار الأنصار — أبو أسيد الساعدى — ، حين غضب خالد إذ أطلق الأنصار والمهاجرون أسراهم ولم يعدموهم . فقال أبو أسيد : اتق الله يا خالد والله ما كنا لنقتل قوماً مسلمين . قال خالد : وما يدريك ؟ قال (أبو أسيد) : نسمع إقرارهم بالإسلام ، وهذه المساجد بساحتهم .

وعند عودة خالد من ديار جذيمة — بعد الذى فعل — لأمه كبار الصحابة ، عبد الرحمن بن عوف وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، وكان

يدافع عن نفسه مبرراً ما صنع .

إلا أن عمر بن الخطاب استطاع أن يكشف له أنه قد أخطأ في تصرفه ، فاعترف خالد وطلب من عمر أن يذهب إلى رسول الله ﷺ ويطلب منه أن يستغفر له .

فقد قال عمر لخالد وهو يناقشه في الأمر —: ويحك يا خالد أخذت بنى جذيمة بالذى كان من الجاهلية ، أو ليس الإسلام قد محا ما كان قبله في الجاهلية ؟ فقال : يا أبا حفص ، ما أخذتهم إلا بالحق ، أغرت على قوم مشركين وامتنعوا فلم يكن لى بد من قتالهم إذ امتنعوا فأسرتهم ، ثم حملتهم على السيف . فقال عمر أى رجل تعلم عبد الله بن عمر ؟ قال أعلمه والله رجلاً صالحاً ، قال فهو أخبرنى غير الذى أخبرتنى وكان معك فى ذلك الجيش . قال خالد . فإنى أستغفر الله وأتوب إليه . قال : فانكسر عنه عمر ، وقال : ويحك إيت رسول الله يستغفر لك^(١) .

قالوا : فلما بلغ رسول الله ﷺ ما صنع خالد رفع يديه حتى روى بياض إبطيه ، وهو يقول : اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد ، وقدم خالد بن الوليد والنبي ﷺ عاتب .

ثم إن النبي ﷺ بعد الذى بلغه ، وبعد ما أثبتت التحقيقات خطأ خالد فيما صنع ، قرر أن يدفع ديات قتلى بنى جذيمة الذين أعدمهم خالد باعتبار أن قتلهم كان خطأ ، فاستدعى على بن أبى طالب وأعطاه مالاً . فقال : انطلق إلى بنى جذيمة واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك . فدللهم ما أصاب خالد بن الوليد .

فخرج على بذلك المال حتى جاءهم ، فشرع فى دفع ديات قتلاهم ، فلم يكف المال الذى اصطحبه معه ، فاستزاد من رسول الله ﷺ مالاً جديداً ليكمل دفع حقوق بنى جذيمة ، حيث بعث أبا رافع إلى الرسول ﷺ يطلب منه مده بالمال فأجاب طلبه ودفع المال المطلوب إلى رافع ، الذى عاد بدوره إلى على بديار بنى جذيمة ، فودى (أى دفع دية) كل ما أصاب خالد حتى أنه

(١) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٨٨٠ — ٨٨١ .

ليدى لهم ميلغة^(١) الكلب ، حتى إذا لم يبقَ لهم شيء يطلبونه ، بقى مع على بقية من المال . فقال على : هذه بقية من المال لكم من رسول الله ﷺ مما أصاب مما لا يعلمه ولا تعلمونه . فأعطاهم ذلك المال ، ثم انصرف إلى النبي ﷺ فأخبره^(٢) .

وكان النبي ﷺ قد استقرض المال الذى دفعه ديات وتعويضات لبني جذيمة . استقرضه ، لأنه لم يكن لدى المسلمين مال عند فتح مكة . . قالوا : استقرض رسول الله ﷺ هذا المال من ثلاثة من كبار تجار مكة وهم حويطب بن عبد العزى ، وصفوان بن أمية ، وعبد الله بن أبى ربيعة^(٣) .

حقيقة موقف خالد من قتل بنى جذيمة

ليس هناك شك فى أن القائد خالداً قد أخطأ فى قتله من قتل من بنى جذيمة ، ولو لم يكن قتلهم ومصادرة أموالهم خطأ ما دفع الرسول ﷺ لهم الديات والتعويضات . كما أن مما لا جدال فيه أن تصرف خالد الذى انتهى بقتل من قتل من بنى جذيمة ناتج عن خطأ فى الاجتهاد ، فلم يقتلهم عن عمد وإصرار مع علمه أنهم مسلمون . بل حدث التباس فى الأمر ، فجرى قتلهم على اعتبار أنه أمر بالإغارة عليهم وانطلاقاً من الظن أنهم غير مسلمين . وهذه حقيقة يسندها أن النبي ﷺ دفع الديات عن القتل لبني جذيمة ، ولو ثبت أن خالداً قتلهم (مع تيقنه أنهم مسلمون) لنفذ فيه الرسول حكم القصاص ، ولكن عنصر الخطأ الناتج عن الخطأ فى الاجتهاد ، لما كان موجوداً فى القضية ، اكتفى الرسول ﷺ بدفع ديات من قتل خالد من بنى جذيمة . بل إن النبي ﷺ رضى بعد ذلك عن خالد بعد أن كان قد غضب عليه وأعرض عنه فترة من الزمن .

بل لقد جاء فى بعض الروايات (صريحاً) أن خالداً إنما قتل من قتل من بنى جذيمة بعد أن امتنعوا منه واستعدوا لمقاتلته رغم إعطائهم مهلة كافية نهايتها صلاة العشاء .

(١) الميلغة : الإناء بلغ فيه الكلب .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٧٢ — ٧٣ ومغازى الواقدي ج ٣ ص ٨٨٠ — ٨٨١ — ٨٨٢ .

(٣) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٨٨٢ .

فقد قال الواقدي : وحدثني سيف بن يعقوب بن عتبة عن عثمان بن محمد الأحنسي ، عن عبد الملك بن عبد الرحمن بن الحارث ، قال : أمر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد يغير على بني كنانة إلا أن يسمع أذاناً أو يعلم إسلاماً ، فخرج حتى انتهى إلى بني جذيمة فامتنعوا أشد الامتناع ، وقتلوا وتلبسوا السلاح ، فانتظر بهم صلاة العصر والمغرب والعشاء ، لا يسمع أذاناً ، ثم حمل عليهم فقتل من قتل وأسر من أسر فادّعوا بعد الإسلام .

قلت : بل مما يؤكد الالتباس في مشكلة بني جذيمة وأن خالداً أخطأ في قتلهم عن عدم سوء نية ما جاء في صحيح البخاري ج ٥ ص ٢٠٣ من رواية الزهري عن سالم عن أبيه قال : بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة ، فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فجعلوا يقولون : صباناً ، صباناً ، صباناً . فجعل خالد يقتل منهم ويأسر ، ودفع إلى كل رجل منا أسيره حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره ، فقلت : والله لا أقتل أسيري ، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره ، حتى قدمنا على النبي ﷺ فذكرناه فرفع النبي ﷺ يده فقال : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد مرتين .

وقال بعض من يعذر خالداً : إن خالداً قال — لما وجه إليه اللوم — ما قاتلت حتى أمرني بذلك عبد الله بن حذافة السهمي^(١) وقال : إن رسول الله ﷺ قد أمرك أن تقتلهم لامتناعهم عن الإسلام^(٢) .

وجاء في كتب السيرة أن النبي ﷺ لما بلغه ما حدث لبني جذيمة على يد خالد سأل رجلاً ممن انفلت من الجيش بالخير : هل أنكر عليه (أي خالد) أحد فقال : نعم ، قد أنكر عليه رجل أبيض ربعة ، فنهّم خالد فسكت عنه . وأنكر عليه رجل آخر طويل مضطرب ، فراجعته ، فاشتدت مراجعتهما . فقال عمر بن الخطاب : أما الأول يا رسول الله فابني عبد الله ، وأما الآخر فسالم مولى أبي حذيفة^(٣) .

(١) أنظر ترجمته (في كتابنا صلح الحديبية)

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٧٣ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٧٢ .

الرسول يرضى عن خالد بعد أن غضب عليه

وقد جرت مشادة (في مجلس الرسول ﷺ) بين خالد وبعض السابقين الأولين في الإسلام مثل عبد الرحمن بن عوف وعمار بن ياسر .. حول ما صنع خالد ببني جذيمة ، وكان خالد قد غالط عبد الرحمن بن عوف في الكلام فبلغ الرسول ﷺ ذلك فقال حديثه المشهور : « يا خالد ذروا لي أصحابي متى يُنك أنف المرء يُنك ، لو كان أحد ذهباً تنفقه قيراطاً قيراطاً في سبيل الله لم تدرك غدوة أو روحة من غدوات أو روحات عبد الرحمن بن عوف .. وفي حق عمار بن ياسر . قال رسول الله ﷺ : « صه يا خالد لا تقع بأبى اليعظان ، فإنه من يعاده يعاده الله ، ومن يبغضه يبغضه الله ، ومن يسفهه يسفه الله » (١) .

وقد ذكر المؤرخون أن خالد بن الوليد اعتذر لعبد الرحمن بن عوف عما بدر منه وطلب منه الصفح فقد مشى عثمان بخالد إلى عبد الرحمن بن عوف فاعتذر إليه حتى رضى عنه فقال : استغفر لى يا أبا محمد (٢) .

غير أن الرسول ﷺ إذا كان قد نهى خالداً عن التعرض للسابقين الأولين مثل عبد الرحمن بن عوف وعمار بن ياسر ، فإن الرسول كذلك نهى الجميع عن سب خالد والتعرض له .. فقد روى الواقدي عن عبد الله بن جعفر عن عثمان بن محمد بن الأخنسى عن عبد الملك بن أبى بكر بن عبد الرحمن ، قال : قال رسول الله ﷺ : لا تسبوا خالد بن الوليد فإنما هو سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين (٣) .

وقد رضى الرسول ﷺ عن خالد بن الوليد (بعد عتبه وعضبه عليه) وكرر الشاء عليه . فقد روى عن أبى الأحوص عن النبى ﷺ أنه قال : نِعَم عبد الله خالد بن الوليد وأخو العشيرة ، وسيف من سيوف الله ، سلّه على الكفار والمنافقين . كما أن الرسول ﷺ بعد قديمه على بن أبى طالب من مهمته التى ادفع فيها ديات قتلى بنى جذيمة . رضى عن خالد وأقبل عليه (بعد أن

(١) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٨٨٠ — ٨٨١

(٢) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٨٨١

(٣) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٨٨٢

ترضاه خالد) ، وما زال خالد عند الرسول ﷺ من عليه أصحابه حتى توفي الرسول ﷺ (١) .

ولا أدل على أن مكانة القائد خالد بن الوليد ظلت على ما كانت عليه لدى الرسول ﷺ من أنه ﷺ جعل خالداً على مقدمة الجيش عندما تحرك به إلى حنين . فخاض معه (وهو على مقدمة جيشه من الفرسان) تلك المعركة الحاسمة .

وقال الواقدي : ولقد كان (أى خالد) المقدم حتى مات . ولقد خرج معه ﷺ بعد ذلك إلى حنين على مقدمته ، وإلى تبوك ، وبعثه رسول الله ﷺ إلى أكيدر ، ودومة الجندل فسبى من سبى ، ثم صالحهم . ولقد بعثه رسول الله ﷺ إلى بلحارث بن كعب إلى نجران أميراً وداعياً إلى الله . ولقد خرج في حجة الوداع مع رسول الله ﷺ ، فلما حلق رسول الله ﷺ رأسه أعطاه ناصيته ، فكانت في مقدمة قلنسوته ، فكان لا يلقى أحداً إلا هزمه الله تعالى ، ولقد قاتل يوم اليرموك فوقت فجعل يقول : القلنسوة .. القلنسوة . فقيل بعد ذلك يا أبا سليمان .. عجباً لطلبك القلنسوة وأنت في حومة القتال . فقال : إن فيها ناصية النبي ﷺ ، ولم ألق بها أحداً إلا ولي .

ولقد توفي خالد يوم توفي وهو مجاهد في سبيل الله ، وقبره بخصص . قال الواقدي : فأخبرني من غسله وحضر موته ، ونظر إلى ما تحت ثيابه ، ما فيه مصح ، ما بين ضربة سيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم . لقد كان عمر بن الخطاب ، الذى بينه وبينه ليس بذلك ، ثم يذكره فيترحم عليه ويتندم على ما كان صنع في أمره ، ويقول : سيف من سيوف الله تعالى . ولقد نزل رسول الله ﷺ حين هبط من لفت (٢) في حجته ، ومعه رجل ، فقال رسول الله ﷺ : من هذا ؟ فقال الرجل : فلان . فقال : بئس عبد الله فلان . ثم طلع آخر . فقال : من الرجل ؟ فقال : فلان . فقال : بئس فلان عبد الله . ثم طلع خالد بن الوليد فقال : من هذا ؟ قال : خالد بن الوليد . فقال : نعم عبد الله خالد بن الوليد (٣) .

(١) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٨٨٣

(٢) لفت . قال في معجم البلدان ج ٧ ص ٣٣٣ : ثنية بين مكة والمدينة

(٣) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٨٨٣ — ٨٨٤

الفصل الثانی

- من هم هوازن ؟
- هوازن تشعر بالخطر بعد استيلاء المسلمين على مكة .
- الاستنفار العام بين عشائر هوازن لحرب المسلمين .
- هوازن تفكر في إخراج المسلمين من مكة .
- هوازن تحشد عشرين ألف مقاتل لغزو المسلمين .
- هوازن تنصب مالك بن عوف النصري ملكاً عليها وقائداً عاماً لجيشها .
- الخطأ القاتل في استراتيجية قائد هوازن .
- قائد هوازن يأمر باصطحاب النساء والأطفال والأموال مع الجيش .
- دريد بن الصَّمّة المعمر ينتقد استراتيجية مالك بن عوف .
- استخبارات الرسول ﷺ في معسكرات هوازن .
- تحرك الجيش الهوازي صوب مكة .
- هوازن تعسكر في وادي حنين قبل المسلمين .

من هم هوازن ؟

قبل الدخول في تفاصيل معركة حنين يحسن بنا إعطاء القارئ الكريم لمحة عن نسب وتاريخ هوازن .

يُجمع المؤرخون وأصحاب المعاجم أن هوازن من أعظم القبائل وأكثرها خطراً في الجزيرة العربية . فهي قبيلة مضرية عدنانية ، وهي تنتسب إلى قيس عيلان . وتعتبر أهم بطونها .

فهي تنتسب إلى هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

لهوازن أجنحة كثيرة جداً ومن أهم هذه الأجنحة (ثقيف سكان الطائف وما حوالها) وكعب وكلاب وبنو هلال وبنو عامر بن صعصعة وبنو جُشم عشيرة (دريد بن الصمة) وبنو نصر (قوم مالك بن عوف) .

وتجمع هوازن أجرام رئيسية ثلاثة كلهم لبكر بن هوازن ، وهم : بنو سعيد ابن بكر ، وبنو معاوية بن بكر ، وبنو منبه بن بكر .

وهوازن من حيث القوة والعدد يضاهون قبائل غطفان النجدية الشهيرة والتي حاربت الرسول ﷺ في عدة مواطن ، وحاصرت المدينة مع قريش عام الأحزاب .

أما مواطن هوازن فهم يحتلون مسافات شاسعة في الجزيرة العربية حتى إنهم لكثرة عشائرتهم ويطونهم يشتركون في سكنى نجد والحجاز ، حيث تمتد منازلهم من وادي حنين قرب مكة حتى توغل في جنوب نجد الغربي مما يلي اليمن . فهوازن قبيلة نجدية حجازية .

كانت هوازن قبيلة شرسة محاربة في الجاهلية ، ولها حروب كثيرة مع جيرانها من القبائل المختلفة ، ومع بعضها البعض ، كما هي أساليب الحياة السائدة في الجاهلية قبل الإسلام .

فمثلاً ثقيف تُعتبر من أهم أجنحة هوازن ، لأنها من نسل أحد الأجرام الرئيسية لهوازن ، ثقيف هذه دارت بينها وبين بقية قبائل هوازن في الجاهلية معركة تاريخية ، تسمى معركة أثنان ؛ وذلك لكثرة جثث القتلى التي تركت في

الميدان حتى أنتنت ، وهذه المعركة دارت بين ثقيف وهوازن بالقرب من الطائف .

كما حاربت هوازن في الجاهلية كنانة وانتصرت عليها ، وكنانة قبيلة عظيمة تقع في الحجاز على محور يدور بين قريش وسُلَيم وخزاعة وهوازن . وكانت كنانة حليفة لقريش . وكان اليوم الذى دارت فيه المعركة بين كنانة وهوازن يسمى يوم شمطة .

كذلك في الجاهلية حاربت هوازن بنى الحارث بن كعب وهى من أعظم القبائل القحطانية الساكنة بنجران وما حوالها .

هوازن وحروب الفِجَار

ولعل أشهر حروب هوازن في الجاهلية هى حروب الفِجَار (١) وكانت الحروب كلها بين هوازن من جهة وبين كنانة وقريش من جهة ثانية . وكانت هذه الحروب أربع كلها تقع في الأشهر الحرم حيث يجتمع العرب في سوق عكاظ . وكانت أخطر هذه الحروب وأشدها ضراوة حروب الفِجَار الاربعة التى استمرت عدة سنوات وقتل فيها مجموعة هائلة من شيوخ وسادات الفريقين . ونحن نذكر باختصار هذه الفِجَارات الأربع :

الفِجَار الأول : وسببه أن رجلاً من غفار ثم من بنى كنانة يقال له بدر ابن معشر ، كان قد حضر سوق عكاظ ، وكان متكبراً ويتحرش بالناس ويتحداهم ، وكان قد اتخذ مجلساً وبسط فيه رجليه وينادى : أنا أعز العرب ، فمن زعم أنه أعز منى فليضرب هامتى بالسيف . فمر به رجل من بنى نصر من هوازن يقال له الأحمر بن مازن بن أوس ، فتحداه وضربه بالسيف فبتر رجله . وكادت الحرب الشاملة تنشب بين الفريقين إلا أن العقلاء تداركوا الأمر ، واصطلحوا فيما بينهم .

(١) سميت هذه الحروب باسم حروب الفِجَار . بمعنى المفاجرة ، مثل القتال والمقاتلة ، وذلك أن القوم تحاربوا في الأشهر الحرم ، ففجروا فيها ، ولذلك سموها الفِجَار .

الفجار الثاني : وسببه أن فتية من قريش وكنانة تحرشوا في سوق عكاظ بامرأة من هوازن من بنى عامر بن صعصعة ونالوها بإهانة . فغضبت لذلك هوازن ودارت الحرب بين الفريقين ، ولكن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف سيد قريش ، نجح في إيقاف هذه الحرب حيث اعتذر لهوازن باسم قريش عما بدر من فتianها حيال المرأة العامرية ثم دفع ديات قتلى هوازن ولم يحسب قتلى قريش وكنانة فرضيت هوازن .

الفجار الثالث : وكان سببه أن رجلاً من بنى جشم من هوازن له دين على رجل من بنى كنانة ، فمأطله طويلاً ، فلما أعياه عمد إلى التشهير به في سوق عكاظ ، حيث أخذ قرداً ثم صار يطوف على القبائل منادياً : من يبيعي مثل هذا الرباح بما لي على فلان بن فلان الكناني ، فلما طال بذلك نداؤه وتعييره به كنانة ، مر به رجل من بنى كنانة فضرب القرد بسيفه فقتله ، فتداعى الفريقان للحرب ، إلا أن العقلاء من الفريقين حجزوا بينهم ، وقالوا : أفى قرد تريقون دماءكم . ثم حسم الموقف عبد الله بن جدعان كريم قريش المشهور ، وضمن للهوازن ماله الذي له على الكناني ودفعه إليه . وانتهت المشكلة .

الفجار الرابع : وهو أخطر الفجارات الأربع حيث بسببه دارت بين هوازن من جهة وبين قريش وكنانة من جهة ثانية خمس حروب طاحنة سقط فيها عدد هائل من الضحايا من الفريقين .. ولم تتوقف هذه الحروب إلا بعد أن شعر الفريقان بالدمار ، فأجروا فيما بينهم مفاوضات انتهت بالصلح .

أما سبب هذه الحروب والمشهورة بحرب الفجار . والتي كان بين بدايتها وبين مبعث النبي ﷺ ست وعشرون سنة^(١) ، هو أن رجلاً من بنى ضمرة ابن بكر من كنانة ، كان سكيراً مدمناً وفاسقاً ، اسمه البرأض بن قيس بن رافع ، فخلعه قومه وتبرأوا منه لسوء سلوكه . فلجأ إلى قريش في مكة ، وحالف حرب بن أمية بن عبد شمس ، فأحسن إليه ، ولكن البكري (البرأض) الخليع عاد سيرته الأولى فسكرو وعربد في مكة ، فهم حرب بن أمية أن يخلعه ويتبرأ من حلفه . ولكن البرأض رجا حرب بن أمية أن لا يفعل ، وأن

(١) الأغاني ج ١٩ ص ٧٥ طبعة بولاق .

يقيه على حلفه ، شريطة أن يغادر مكة . وفعلاً خرج من مكة ولحق بالملك
النعمان بن المنذر بالحيرة في العراق فأقام عنده وهو على حلفه مع حرب بن
أمية .

سوق عكاظ هي السبب

كانت سوق عكاظ من أشهر الأسواق بين العرب لا في الجزيرة العربية
وحدها ، بل في الشرق الأدنى كله ، وكانت هذه السوق تبدأ بأول ذى القعدة
من كل عام ولا تزال قائمة يبيع الناس ويشترون فيها ويتعاكضون إلى أن يحضر
الحج . وعكاظ تقع ما بين نخلة (وادي اليمانية والطائف) . فهي (أصلاً)
في ديار هوازن .

وكان الملك النعمان بن المنذر يغتنم فرصة سوق عكاظ فيبعث من كل
سنة قوافل محملة بمختلف السلع والبضائع إلى هذه السوق ، لتباع هذه
البضائع والسلع ، ويشتري بثلثها من منتجات البلاد العربية ، وبضائع أخرى
مما يرد إلى سوق عكاظ .

وفي تلك السنة التي نشبت فيها حرب الفجار ، أقر الملك النعمان قافلة
كبيرة من الجمال بمختلف السلع والبضائع ، وقرر أن يبعث بها (كالمعتاد)
إلى سوق عكاظ ، وبحث عمن يجيئها في بلاد العرب حتى تعود من عكاظ إلى
الحيرة . فقال البراض أنا أجيرها . فقال له النعمان (وكان يعرف أنه خليع
وأنه ليس من قيس) : إنما أريد رجلاً يجيئها على أهل نجد . فقال عروة الرحال
ابن عتبة بن جعفر بن كلاب (وهو من هوازن) : أنا أجيرها أبيت اللعن .
فقال له البراض (وهو من كنانة) : أتيئها على كنانة ؟ قال : نعم وعلى
الخليع كله ، أفكلب خليع يجيئها ؟ يعرض بالبراض بن قيس . وكان عروة
الرحال في أعز قبيلة نجدية هوازنية ، وهي بنو عامر بن صعصعة . فقبل الملك
النعمان بجوار عروة ، فشخص عروة بقافلة الملك النعمان ، فاجتاز بها حدود
الجزيرة العربية . وكان البراض بن قيس يتعقب عروة الرحال ، فيعرف عروة
ذلك فلا يخشاه .

وحتى إذا ما تخطى عروة بالقافلة أكثر بلاد نجد ، وفي مكان من أرض

(م - ٣ * غزوة حنين)

غطفان يقال له (تيمن) وهو قريب من خير ، نام عروة الرحال في ظل شجرة ، فاعتنمها البراض بن قيس فرصة فوثب على عروة في الشهر الحرام وقتله . ثم استولى على القافلة واستاقها وما تحمل من أموال تابعة للملك النعمان وقصد بها مكة .

وفي الوقت الذي قتل فيه البراض بن قيس الكنانى عروة الرحال الهوازى ، كانت سوق عكاظ قائمة وذلك في الشهر الحرام وهو شهر ذى القعدة الذى يأمن فيه العرب ، كل العرب ، بعضهم بعضاً مهما كانت بينهم من دماء . وكان البراض ، كما قلنا ، كنانياً وحليفاً لقريش ، وكانت قريش وكنانة متواجدتان في سوق عكاظ التى هى في أرض هوازن ، فخشى البراض ، بعد أن ارتكب فعلته ، أن يبلغ الخبر هوازن فتقتل برجلها عروة رجلاً عظيماً من قريش أو كنانة ، فاستأجر البراض رجلاً وكلفه ، بعد أن أجزل له العطاء من الإبل ، بأن يبلغ حليفه حرب بن أمية بن عبد شمس ، وعبد الله بن جدعان ، وهشاماً والوليد ابنى المغيرة بأنه قد قتل عروة الرحال لينسحبوا مع سائر قريش وكنانة من عكاظ قبل أن يبلغ قيسا عيلان الخبر فيقتلوا به عظيماً من قريش . فقال المستأجر للبراض : وما يؤمنك أن تكون أنت ذلك القتل ؟ قال : إن هوازن لا ترضى أن تقتل بسيدها رجلاً خليعاً طريداً من بنى ضمرة (يعنى نفسه) .

وفي الحال وقبل أن يصل خير الحادث الفظيع هوازن — تبلى قريش وكنانة الخبر فكنموه لئلا تفتك بهم هوازن في عكاظ ، فقرروا الانسحاب منها خلسة .

ولما كان الوقت في الشهر الحرام والناس آمنون بعضهم بعضاً ، دفع العرب كلهم أسلحتهم إلى عبد الله بن جدعان القرشى وديعة حتى يفرغوا من أسواقهم وحجهم ثم يردها عليهم ، وتلك عادتهم من كل سنة .

المعركة الأولى من الفجار الرابع

فقد كان عبد الله بن جدعان من أرفع قريش بل من أرفع العرب قدراً ، وكان سيداً عاقلاً حكيماً وواسع الثراء ، فجاءه حرب بن أمية حليف

البراض القاتل . وطلب منه أن يمنع عن هوازن سلاحها المؤمن لديه ، كى يسهل على قريش وكنانة التغلب على هوازن ، إذا ما نشبت الحرب بينهما ، فغضب عبد الله بن جدعان وقال لحرب بن أمية : أبالقدر تأمرنى ؟ والله لو أعلم أنه لا يبقى منها سيف إلا ضربت به ولا رمح إلا طعنت به ما أمسكت منها شيئاً ، ثم نادى منادى ابن جدعان فى عكاظ من كان له سلاح قبلى فليأت وليأخذه فأخذ الناس جميعاً أسلحتهم ، وانسحبت قريش وكنانة من عكاظ خلصة ، وبعد انسحابهم وهم لمَّا يزالوا فى الطريق خارج الحرم أرسل عبد الله بن جدعان وحرب بن أمية وبقية سادات قريش يبلغون هوازن سبب خروجهم المفاجئ من عكاظ وأنهم يخشون الاشتباك المسلح وتفاقم الأمر فى السوق حيث تحضره عامة العرب ، وبلغ هوازن آخر النهار قتل البراض عروة ، فقال سيد هوازن بعكاظ ، أبو البراء : خدعنى حرب وابن جدعان ، وركب فيمن حضر عكاظ من هوازن وجدُّوا على متون الخيل فى أثر قريش ، فأدركوهم بوادى نخلة فاقتتلوا وتدرجت قريش فى الانسحاب وهى تقاتل حتى دخلوا الحرم وجرَّ عليهم الليل ، فكفت هوازن عن ملاحقتهم تهيئاً من إجراء القتال فى الحرم ، ولكنهم اتَّعدوا عكاظاً من العام القادم للقتال .

المعركة الثانية من الفجار الرابع

واستعد الفريقان للمعركة الثانية ولم يتحرَّجوا أن تكون فى الشهر الحرام فأوعبت قريش وكنانة كما احتشدت كل قبائل هوازن ما عدا كعب وكلاب ، وسبقت هوازن إلى سمطة من عكاظ ، وجاءت قريش وكنانة فالتقى الفريقان ودارت المعركة رهيبة بين الفريقين ، وكان النصر فى المرحلة الأولى من المعركة لقريش وكنانة غير أن هوازن تذاَمروا وصبروا ، فاستحرَّ القتل فى قريش ، فساندتهم كنانة ولكن الهزيمة كانت من نصيبهم آخر الأمر حيث انسحبوا إلى جبل يقال له : رخما .

المعركة الثالثة من الفجار الرابع

وبعد مضى سنة التقى الفريقان بعكاظ فى مكان يقال له : العبلاء فاقتتلوا قتالاً ضارياً وكان النصر فى هذه المعركة حليف هوازن على كنانة وقريش . فقال

في ذلك شاعر هوازن :

ألم يبلغك ما قالت قريش وحى بنى كنانة إذ أثيروا
دهمناهم بأرعن مكفهر فظل لنا بعقوتهم زئير
نقوم مارن الخطى فيهم يجيء على أسنتنا الزئير
وانسحبت كنانة وقريش بعد أن نزلت بهم الهزيمة .

المعركة الرابعة من الفجار الرابع

وقد تأثرت قريش بالهزيمة في العباء فاستعدت للمعركة القادمة أضخم استعداد ، حتى أن عبد الله بن جدعان وحده جهز ألف مقاتل من كنانة على ألف بعير من ماله الخاص ، وخشيت قريش أن تغلبها هوازن كما في يوم العباء . فوطن رجالها أنفسهم على الموت ، وعلى مدار الحول التقى الفريقان من جديد بعكاظ في الشهر الحرام ، وثبتت قريش ذلك اليوم ثباتاً عظيماً حتى إن إخوة ثلاثة وهم حرب وسفيان وأبو سفين أبناء أمية بن عبد شمس قيدوا أنفسهم وقالوا لا نبرح حتى نموت مكاننا

ودارت المعركة رهيبة ضارية وصبر الفريقان صبراً عظيماً وأوجع القتل بنى كنانة فهموا بالانهزام ، ولكن قريشاً حافظت أشد الحفاظ على مواقعها فخجل بنو كنانة (بعد أن قرروا الهرب) وصبروا ، فاستعرت المعركة بضراوة من جديد ، وحملت قريش وكنانة حملة شديدة على هوازن ، فشرعت بعض عشائر هوازن في الهزيمة وانهزمت كلها إلا بنى نصر فصبروا وعقل قائدهم سبيع بن أبي ربيعة نفسه كي تخجل هوازن ، ونادى يا آل هوازن وكررها ، ولكن الهزيمة كانت أكبر من أن يسمع فيها أحد صوت سبيع .

امراة من قريش تحير هوازن

وركبت قريش وكنانة هوازن تقتل فيهم وتأسر ، وكان مسعود بن معتب الثقفي ، والد عروة بن مسعود قد ضرب على امرأته القرشية ، سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف خباء في عكاظ . وقال لها : من دخله من قومك قريش هو آمن . فأخذت توسع في خبائها ليتسع لأكثر عدد ممكن من الناس ، فقال لها زوجها مسعود : لا يتجاوزني خباؤك ، فإني لا أضمن حياة إلا من

أحاط به الخباء ، فأغضبها قوله ، وقالت له (ساحرة) : أما والله إنى لأظن أنك ستودّ أن لو زدت فى توسعته .

فلما انهزمت هوازن دخل رجال من هوازن خبائها مستجبرين بها من القتل . فاستدعت ابن أخيها حرب بن أمية . فقال لها يا عمة : من تمسك بأطناب خبائك أو دار حوله فهو آمن ، فنادت بذلك فى هوازن وقيس حتى كثروا جداً — حيث لم يبق أحد منهم لا نجاة عنده إلا دار بخبائها ، فقبل لذلك الموضع : مدار قيس (وهى قيس عيلان التى منها هوازن وكان يضرب به المثل فتغضب قيس منه) ولما انهزمت قيس عيلان خرج مسعود بن معتب هارباً إلى زوجته ربيعة بنت عبد شمس ، فجعل أنفه فى صدرها ، وقال : أنا بالله وبك فقلت : كلا زعمت أنك ستملاً بيتى من أسرى قومى ، اجلس فأنت آمن .

المعركة الخامسة من الفجار الرابع

ثم نشبت بين الفريقين المعركة الخامسة ، وقد دارت بعكاظ أيضاً وفى الشهر الحرام ، وهذه المعركة سميت (يوم الحرية) وهى حرّة إلى جانب عكاظ ، وكانت المعركة شديدة أيضاً ، واستحرّ القتل فى صفوف الفريقين إلا أن الدائرة دارت على كنانة قريش فانهزموا ، وكان القتل فى كنانة وقريش أكثر فى هذه المعركة ، إلا أن عقلاء الفريقين أدركوا أن هذه الحرب لن تنتهى حتى يتفانى الفريقان ، فعدّلوا بينهم هدنة مؤقتة للتفاوض ، وتفاوض زعماء الفريقين فعلاً ، واتفقوا على الصلح ، وذلك بأن يُحصى قتلى الفريقين ثم تدفع ديات عدد القتلى الزيادة إلى الفريق الذى يكونون فيه ، فاتفقوا على ذلك ، ولكى ينجح الصلح وتنتهى الحرب إلى الأبد ، قدّم كل من المتحاربين رهينة حتى تدفع ديات القتلى الزيادة .

فرهن حرب بن أمية ابنه أبا سفيان عن قريش ، ورهن الحرث بن كلدة الثقفى عن هوازن ابنه النضر ، ورهن سفيان بن عوف عن كنانة ابنه الحرث ، حتى أُحصى قتلى الفريقين ودفعت ديات القتلى الزيادة وكانوا عشرين قتيلاً ، تزعم هوازن أنهم من قريش وكنانة ، وتزعم كنانة أنهم من هوازن . وبهذا

الصلح انتهت تلك الحروب الضارية التي خاضها الفريقان وارتكبوها في الأشهر الحرم التي أجمع العرب منذ آلاف السنين على تحريم سفك الدم فيها مهما كانت المبررات ، ولذلك سميت (حرب الفجار) ، ومن الشخصيات البارزة التي قتلت في هذه المعارك .. من قريش أبو سفيان بن أمية بن عبد شمس عم أبي سفيان بن حرب ، والعوام بن خويلد أبو الزبير بن العوام ، وأخوه حزام بن خويلد ، وأحيحة بن أبي أحيحة العيشمي ومعمّر بن حبيب الجُمَحِي ، كما جرح حرب بن أمية أبو أبي سفيان بن حرب .

ومن هوازن قتل (الصمّة) أبو دريد بن الصمّة الشاعر والفارس المشهور . ويذكر المؤرخون أن الرسول ﷺ شهد حروب الفجار وهو دون العشرين وكان يناول أعمامه وأهله النبل في القتال ، ويقال : إنه ﷺ طعن أبا براء ملاعب الأسنة ، وسئل ﷺ عن مشهده يومئذ فقال : ما سرني أني أشهده ، إنهم تعدوا على قومي ، عرضوا عليهم أن يدفعوا البراض صاحبهم فأبوا^(١) هذه هي خلاصة حرب الفجار بين هوازن وقريش .

نظرة العرب إلى قريش

كان العرب الوثنيون ينظرون إلى قريش نظرة تهاب مشوبة بالكثير من التبجيل والإكبار ، باعتبارها من الناحية الدينية سادنة الكعبة (البيت المعظم عند كافة العرب) المختصة دون سائر العرب بحراسة الحرم وسقاية الحاج واستضافته .

فهى من الناحية الدينية الأب الروحي لجميع قبائل العرب الوثنية . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، ينظر العرب الوثنيون إلى قريش نفس النظرة ، باعتبارها النموذج الوحيد للوحدة والتماسك واتحاد الكلمة .

حيث كانت الجليل الوحيد بين العرب الذى يعيش (رغم تعدد عشائره) فى ظل وحدة سياسية ، وترابط اجتماعى مكين ، ووحدة عسكرية متماسكة كل التماسك . كل ذلك تحت قيادة جماعية منسقة وموزعة توزيعاً محكماً يدل على عراقة فى السياسة وبعد النظر وحظ وافر فى التحضر والعوى بالقياس إلى بقية قبائل

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٩٥ والأغانى ج ١٩ ص ٧٣ وما بعدها طبعة بولاق .

العرب الأخرى ، التى تعيش كلها فى أنظمة تحكمها الفوضى ولا شىء غير الفوضى .

دستور غير مكتوب

وقد كانت قريش تعيش هذه الحالة الفريدة المميزة لها على سائر العرب من حيث الوحدة والتماسك والتناسق ، بموجب قواعد قديمة موعلة فى القدم ، اتفقت عليها العشائر القرشية منذ عهد قصى بن كلاب موحد كلمتها ، وواضع أسس وحدتها .

وقد كانت القواعد التى تحكم المجتمع القرشى ، المتحد فى ظلها (عبر القرون) أشبه بالدستور الدائم المقدس (عندهم) غير المكتوب ، وبهذا تكون قريش قد سبقت بريطانيا إلى اتخاذ دستور غير مكتوب تحترمه ولا تخرج على حدوده بأكثر من عشرين قرناً .

فقد كانت جميع العرب فى الجاهلية ، لا توجد بينها أية مجموعة من عشائر أية قبيلة ، استطاعت الوصول إلى ما وصلت إليه قريش من وحدة وتماسك واتحاد فيما يشبه الدولة ذات الكيان الواحد المتناسك المترابط رغم الجو العشائرى الذى هو طابع حياتها .

أول برلمان عربى

فقد كانت قريش هى القبيلة الوحيدة من بين جميع القبائل الوثنية العربية التى لها (برلمان ومجلس شورى) له نوابه من مختلف العشائر ، يتشاور فيه هؤلاء النواب فى الأمور الهامة التى تحتاج إلى بحث ودرس وتشاور ، ويتخذون فيه القرارات الملزمة وهو (دار الندوة) التى أول من أسسها (فيما أذكر) قصى بن كلاب الجد الرابع للنبي ﷺ .

لذلك لم يكن طابع المجتمع القرشى الفوضى العشائرية ، كما هى الحال عند سائر العرب ، بل كانت قريش ، بواسطة برلمانها (دار الندوة) تضبط أمورها فى محيطها الوثنى ، وتسيطر على النظام فى المجتمع المكى سيطرة تامة ، ويحل زعمائها الأزمات الداخلية كلما نشبت بين بعض الجهات القرشية ، أو بين بعض القرشيين وغيرهم .

فلا يسمحون بأن تتطور أية منازعات (مهما اشتدت) إلى حد الاقتتال . كما هي الحال الشائعة في محيط مختلف القبائل العربية الوثنية الأخرى التي قد تنشأ بينهم حرب ضروس من أجل ناقة أو حصان كما حدث في حرب داحس والغبراء بين عيس وذبيان ، وحرب البسوس بين بكر وتغلب .

ولا أدل على هذه الحقيقة الحضارية (إن صحت هذه التسمية) التي تمتاز بها قريش من أنها لمّا اشتد الخلاف بين عشائرها حول أية عشيرة يحق لها أن ترفع الحجر الأسود إلى موضعه عند بناء الكعبة في الجاهلية ، وبلغ شدة الخلاف إلى أن أصبحت على حافة حرب أهلية مدمرة ، تراجع العقلاء من زعمائها المتخاصمين على حل حكيم يدل على رجاحة عقل وتمدن بعيد المدى ، وهو أن يكون أول داخل من باب بنى شيبة من أبناء قريش حكماً في النزاع الخطير حول الحجر الأسود . فكان أول داخل محمد بن عبد الله الهاشمي قبل أن يتلقى الوحي من السماء ، ففرح زعماء قريش واطمأنت نفوسهم لأن الحكم بينهم سيكون رجلاً تجمع قريش كلها على حبه واحترامه حتى أنها تسميه بالأمين ، فحل النبي محمد ﷺ الخلاف وقضى على النزاع الخطير بتصرف دل على رجاحة عقل وبعد نظر لا مثيل لهما ، حيث طلب إحضار ثوب وأمر بوضع الحجر الأسود فيه ، ثم طلب رجلاً من كل قبيلة ليمسك بجانب من الثوب فيرفع الجميع الحجر الأسود إلى موضعه في الكعبة ، وهذا تكون قريش كلها قد اشتركت في رفع الحجر الأسود ، وهذا التصرف الحكيم اختفى شبح الحرب الأهلية التي كانت تهدد قريشاً بالفناء .

وقد حمدت قريش لمحمد ﷺ الذي كانوا يسمونه — قبل أن يدعوهم إلى التوحيد — بالأمين . حمدت له تصرفه الحكيم الذي أبعداها عن حافة حرب أهلية مدمرة كادت أن تقع فيها ، وزادت منزلته سموً حتى بعثه الله تعالى رسولاً فناصره العدا وحاربوه . وراموا قتله كما هو معلوم .

كما أنه لا أدل على تماسك المجتمع القرشي وتقدمهم على بقية الوثنيين العرب في مضمار التمدن من حلف الفضول الذي أقاموه والذي بموجب بنوده تعهد سادات قريش بأن لا يوجد مظلوم في مكة إلا أنصفوه من ظالمه كائناً من

كان . هذا الحلف الذى أعجب به الرسول ﷺ وقال — بعد أن بعثه الله رسولاً — لو دعيت إلى مثله اليوم لأجبت أو كما قال (١) .

من هنا ليس بغريب أن ينظر سائر العرب الوثنيين إلى قريش ، وكأنها أهم قوة قادرة على الصمود (باسم الوثنية) فى وجه دعوة التوحيد والتصدى للقوة العسكرية الإسلامية التى تدعمه ، وأنها بتناسكها (أى قريش) وحسن تنظيمها وشدة انضباطها العسكرى تستطيع — لا محالة — صد الغزو الذى تعرضت له عقب نقضها صلح الحديبية الذى كان قائماً بينها وبين المسلمين الذين كانوا حتى يوم ذلك الصلح تنظر إليهم قريش لا كما تنظر إلى أمة ذات كيان ، وإنما كعصابات من عصابات قطاع الطرق ، رغم أن واقعهم من حيث السلوك والمعتقد يدل على أنهم كما وصفهم الله تعالى ﴿ خير أمة أخرجت للناس ﴾ .

وحتى اليوم الذى أطبقت فيه من هؤلاء المسلمين عشرة آلاف مقاتل على العاصمة المقدسة (مكة) كانت النظرة الخاطئة تلك إلى المسلمين لا تزال هى السائدة بين سادات مكة . . عبر عن هذه النظرة الخاطئة سيد قريش وقائد جيشها أبو سفيان بن حرب ، حين قال للنبي ﷺ وهو يفاضه فى معسكره على مشارف مكة قبل دخولها : « يا محمد جئت بأوباش الناس من يُعرف ومن لا يُعرف إلى عشيرتك وأصلك » (٢) .

ولهذا كان فزع العرب الوثنيين شديداً عندما استسلمت قريش لقوات الجيش النبوى المسلحة ، ودخلت عقب ذلك مكة ضمن دائرة نفوذ الحكم الإسلامى .

فقد اعتبر من تبقى على الوثنية من العرب — وأكثرهم من أهل الحجاز وأطراف نجد الغربية — اعتبروا سيطرة المسلمين على مكة وانتهاء كيان قريش الوثنى والسياسى والعسكرى من أخطر الأحداث وأهمها على الإطلاق فى جزيرة العرب .

(١) انظر تفاصيل حلف الفضول فى موضعه من سيرة ابن هشام .

(٢) مغازى الواقدي ج ٢ ص ٨١٦ .

هوازن تشعر بالخطر وتحشد للصدام

وأحس هؤلاء الوثنيون (بدون استثناء) أن استسلام قريش للمسلمين ، ووقوع مكة في قبضة القوات النبوية المسلحة ، وإنشاء كيان إسلامي في مكة على أنقاض الكيان الوثني ، سيكون ذا أثر مضميّر فعال على مستقبلهم ، وإن كيانهم الوثني — بعد انكسار قريش الأم — أصبح في مهب العاصفة . لذلك صاروا يفكرون بمصيرهم بخوف شديد وهلع بالغ ، حيث لم يعد لهم مفر من أحد أمرين :

الدخول في دين التوحيد ، دين الإسلام .

أو الدخول في صدام مسلح مع المسلمين حفاظاً على كيانهم الوثني .

وكانت أولى هذه القبائل الوثنية التي انتابها هذا الشعور ، وأشغلها ذلك التفكير ، هي قبائل (هوازن) وهي تمثل عدة قبائل عدنانية قوية كثيرة ذات قدرة قتالية ممتازة ، ومن هذه القبائل (بنو هلال وثقيف وجشم وبنو سعد وبنو مالك وبنو كلاب وبنو عامر وبنو نصر وبنو الرباب) وأجرامهم الثلاثة الرئيسية التي تنحدر منها جميع أفخاذ هوازن ثلاثة — وكلهم لبكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان — وهؤلاء الأجرام الرئيسية الثلاثة هم : بنو سعد بن بكر ، وبنو معاوية ابن بكر ، وبنو منبه بن بكر .

وهم خلق كثير جداً ، ويحتلون مناطق شاسعة في قلب الجزيرة العربية . حيث تمتد منازلهم من وادي حنين الواقع على بعد حوالي عشرين كيلو متراً من مكة حتى بلاد نجد التي تحتل عشائرهم قسماً كبيراً منها مما يلي الحجاز واليمن . فهوازن قبائل من حيث الأصل عدنانية مضرية ، ومن حيث الجغرافيا ، حجازية نجدية .

كانت هوازن (بعد كثانة) أقرب القبائل العربية الوثنية إلى مواطن الخطر الداهم الذي أصبح يهدد الوثنية بالزوال ، والمتمثل في الجيش النبوي الذي أصبح قريباً جداً من ديار هوازن بعد سيطرته على مكة المكرمة .

عداوة هوازن للإسلام

كانت هوازن — كما قلنا — أحد عدوين قويين رئيسيين ظلا على عدااء للإسلام وفي حالة حرب معه ، وهما هوازن وقريش .

أما قريش ، فقد انتهى وجودها السياسى والعسكرى والدينى الوثنى بوقوع عاصمتها مكة فى أيدى القوات النبوية فى العشرين من شهر رمضان عام ثمان للهجرة .

فبقيت (هوازن) وحدها فى الميدان ، القوة الرئيسية التى عليها أن تواجه الجيش النبوى ، وكانت هوازن (كما ذكرنا) ذات قوة عظيمة ، وكانت لعدائها للإسلام ورغبتها فى القضاء على قوته العسكرية لينهار من القواعد تعد العدة لمواجهة المسلمين من زمن بعيد يرجع إلى ما قبل فتح مكة .

فقد رأينا كيف أن طلائع الاستكشاف للجيش النبوى (وهو يزحف نحو مكة) ألقت القبض على جاسوس كان يرصد تحركات الجيش النبوى . اتضح على أثر استجواب الرسول ﷺ لهذا الجاسوس أنه كان يعمل لحساب (هوازن) بعثت به لينقل لها ما تحتاجه من معلومات عن المسلمين وعن قواتهم العسكرية والجهة التى يقصدونها بتحركاتهم^(١) .

فهوازن (إذن) كانت تستعد للصدام مع المسلمين حتى قبل أن تتم لهم السيطرة على مكة ، بان ذلك واضحاً من بثها الأرصاد والجواسيس لرصد تحركات المسلمين .

استعداد هوازن للزحف على مكة

وزاد هوازن إصراراً على الصدام والدخول فى معركة فاصلة مع المسلمين ، أن وقعت العاصمة المقدسة مكة فى قبضة قوات الجيش الإسلامى .
وبات من المؤكد لدى سادة هوازن الوثنيين أن دورهم فى مواجهة الحربة مع المسلمين ، لابد أن يكون قريباً .

وكانت هوازن مستعدة للصدام المسلح والمواجهة الحربية مع المسلمين قبل

(١) انظر تفاصيل قصة هذا الجاسوس فى كتابنا الثامن من هذه السلسلة (فتح مكة) .

أن تتم السيطرة لهم على العاصمة المقدسة .
غير أن وقوع مكة في أيدي المسلمين ألهب نفوس الهوازنين حقناً مشوباً
بالخوف من قوة المسلمين التي باتت ترابط على مقربة من حدود ديارهم .
فزادوا من استعدادهم للحرب ، وكانوا كما قلنا قبائل وبطوناً كثيرة تسكن
مناطق شاسعة من قلب الجزيرة تتخللها جبال شاهقة ووديان سحيقة كلها
مواقع استراتيجية تصلح للدفاع .

ولو أن هوازن تحصنت في بلادها وانتظرت وصول الجيش الإسلامي فتقاتله
في أراضيها وبين ديارها ، لكان ذلك أصلح لهوازن ، وأصعب على جيش
الإسلام .

وكانت هذه الفكرة من الناحية العسكرية التعبوية فكرة صائبة بالنسبة
لهوازن ، لأن تنفيذها يجعل مهمة الجيش الإسلامي المكلف بإنهاء كل وجود
وثنى في جزيرة العرب مهمة صعبة للغاية لأنه ليس من السهل (بل من
الصعب جداً) على جيش الإسلام الصغير (نسبياً) أن يقاتل عشرات
الألوف من هوازن القبائل الشرسة المحاربة في قمم الجبال الشاهقة ويطون
الوديان السحيقة وأمام الحصون المنيعية داخل أراضيهم .

هذه حقيقة من الناحية العسكرية لا غبار عليها ، فالجيش الإسلامي
لا يزيد على اثني عشر ألفاً ، بينما المحاربون من قبائل هوازن سوف لا يقلون على
أربعين ألفاً إذا ما ظلوا مرابطين في بلادهم المنيعية المحصنة ، وعلى المسلمين أن
ينزلوا هذا العدد الضخم من هؤلاء المحاربين ذوى القدرة القتالية الممتازة التي
اشتهروا بها بين العرب ، ومنازلتهم أمر صعب على المسلمين سيكلفهم غالباً إذا
ما اضطروا لمهاجمة هوازن في ديارها ، لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار مناعة
بلادهم وشدة تحصنهم فيها .

وسنرى فيما يأتي من هذا الكتاب ، (إن شاء الله) كيف قاومت ثقيف
الجيش النبوى (بعد انتصاره في معركة حنين الفاصلة) فلم يتمكن من
التغلب على بطن واحد من هوازن ، وهم (ثقيف) حيث لم يستطع اقتحام
مواقعهم الحصينة التي اعتصموا بها في الطائف ففك الحصار عنهم الذي دام

حوالى عشرين يوماً ، وانصرف عنهم راجعاً إلى المدينة دون أن يخضعهم ، وظلوا غير خاضعين للإسلام حتى دخلوا فيه باختيارهم فى السنة التاسعة للهجرة ، بعد أن رأوا أنه لم يبق غيرهم فى المنطقة خارجاً عن نطاق الإسلام .

تنصيب مالك بن عوف قائداً لهوازن

غير أنه لسوء حظ هوازن وحسن حظ المسلمين ، أن ظهر بين هوازن شاب شجاع جرىء مقدام لا يهاب الموت ، بلغت شجاعته إلى حد التهور والطيش ، الذى جعله يجعل هوازن عرضة لهزيمة مدمرة لم ينزل مثلها فى الفداحة بحى من العرب كما سيأتى تفصيله إن شاء الله .

هذا الشاب هو مالك بن عوف النصرى (أحد بنى نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن) فقد انتزع من بين جميع عشائر هوازن القيادة ، إذ بما امتاز به من شجاعة وفصاحة نصبته هوازن ملكاً عليها ، وارتضته قائداً أعلى لقواتها عقب تأزم الموقف بوقوع مكة فى قبضة المسلمين .

فأخذ مالك بن عوف — بما يمتاز به من جرأة وفصاحة وشجاعة وتهور وإقدام يعشقه العربى القبلى ، أخذ يهيب قبايل هوازن — التى استجاب له معظمها — يهيوها لا للدفاع عن بلادها إذا ما تعرضت لهجوم المسلمين ، بل أخذ يهيب هذه القبائل ويعبى شعورها ويحشد الآلاف من رجالها للزحف على مكة وإخراج المسلمين منها بقوة السلاح .

قال الطبرى ج ٣ ص ٧٠ — ٧١ : حدثنا ابن حميد ، قال حدثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال لما سمعت هوازن برسول الله ﷺ وما فتح الله عليه من مكة ، جمعها مالك بن عوف النصرى ، واجتمعت إليه مع هوازن ثقيف كلها فجمعت نصر وجشم كلها وسعد بن بكر وناس من بنى هلال ، وهم قليل ، ولم يشهدا من قيس عيلان إلا هؤلاء ، وغابت عنها ولم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب ، ولم يشهدا منهم أحد له اسم ، وفى بنى جشم دريد بن الصمة شيخ كبير ، ليس فيه شيء إلا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب . وكان شيخاً كبيراً مجرباً ، وفى ثقيف سيدان لهما فى الأحلاف :

قارب بن الأسود بن مسعود ، وفي بنى مالك ذو الخمار سبيع بن الحارث وأخوه الأحمر بن الحارث في بنى هلال وجماع أمر الناس إلى مالك بن عوف النصرى .

أسلوب الواقدي في الرواية

وقال الواقدي في كتابه المغازي ج ٣ ص ٨٨٥ — ٨٨٦ : حدثنا أبو عبد الله محمد بن شجاع الثلجي قال : حدثني الواقدي قال : حدثنا محمد ابن عبد الله ، وعبد الله بن جعفر ، وابن أبي سبرة ، ومحمد بن صالح ، وأبو معشر ، وابن أبي حبيبة ، ومحمد بن يحيى بن سهل ، وعبد الصمد بن محمد السعدي ، ومعاذ بن محمد ، وبكير بن مسمار ، ويحيى بن عبد الله بن أبي قتادة ، فكل قد حدثنا بطائفة ، وغير هؤلاء ، حدثنا ممن لم أسم ، أهل ثقة ، فكل حدثنا بطائفة من هذا الحديث ، وبعضهم أوعى له من بعض ، وقد جمعت كل ما حدثوني به .

قالوا : لما فتح رسول الله ﷺ مكة مشى أشراف هوازن بعضها إلى بعض وثقيف بعضها إلى بعض ، وحشدوا وبغوا وأظهروا أن قالوا : والله ما لاقى محمد قوماً يحسنون القتال ، فأجمعوا أمرهم فسيروا إليه قبل أن يسير إليكم . فأجمعت هوازن أمرها وجمعها مالك بن عوف — وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة — وكان سيداً فيها مسيلاً ، يفعل في ماله ويحمد ، فاجتمعت هوازن كلها ، وكان في ثقيف سيدان لها يومئذ : قارب بن الأسود بن مسعود في الأحلاف ، هو (الذي) قادها ، وفي بنى مالك ذو الخمار سبيع بن الحارث — ويقال الأحمر بن الحارث — وهو الذي قادها موالياً ثقيفاً ، فأوعبت كلها مع هوازن — وقد أجمعوا المسير إلى محمد ، فوجد ثقيفاً إلى ذلك سراعاً ، فقالوا : قد كنا نهم بالمسير إليه ونكره أن يسير إلينا ، ومع ذلك لو سار إلينا لوجد حصناً حصيناً نقاتل دونه ، وطعاماً كثيراً ، حتى نصيبه أو ينصرف ، ولكننا لا نريد ذلك ، ونسير معكم ونكون يداً واحدة . فخرجوا معهم .

قال غيلان بن سلمة الثقفي لبيه ، وهم عشرة : إني أريد أمراً كائنة له . أمور ، لا يشهد بها رجل منكم إلا على فرسه . فشهد بها عشرة من ولده على

عشرة أفراس ، فلما انهزموا بأوطاس هربوا ، فدخلوا حصن الطائف فغلقوه .
وقال كنانة بن عبد يا ليل : يا معشر ثقيف ، إنكم تخرجون من حصونكم
وتسيرون إلى رجل لا تدرون أيكون لكم أم عليكم ، فمروا بحصنكم أن يُرم
ما رث منه ، فإنكم لا تدرون لعلكم تحتاجون إليه . فأمرؤا به أن يصلح ،
وخلفوا على مرمته رجلاً وساروا ، وشهدوا ناس من بني هلال ليسوا بكثير ،
ولم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب .

الفصل الثالث

- الرسول يتحرك من مكة إلى حنين .
- الرسول يقترض المال ويستعير السلاح من أهل مكة .
- عيوب الغرور والإعجاب بالنفس .
- من رواسب الجاهلية ؛ المطالبة بذات أنواط .
- استخبارات هوازن في المعسكر النبوى .
- أسلوب قائد هوازن فى تعبئة جيشه .
- كيف عبأ الرسول جيشه .
- محاولة اغتيال الرسول ﷺ أثناء التحرك .

الحالة بين هوازن وقريش بعد ظهور الإسلام

لم تكن العلاقات بين قريش وبين هوازن علاقات حسنة ، بل كانت علاقات أشبه ما تكون حالتها بحرب قبلية .. وذلك منذ حرب الفجار ، فليس هناك ود بين قريش وبين هوازن بل قطيعة وتربص . ولهذا لم يكن هناك أى اتصال أو تنسيق بين قريش وبين هوازن ، عندما بدأت نذر الغزو النبوى لمكة تلمح فى الأفق .

ولكن عندما وقعت مكة فى قبضة جيش التوحيد شعر قادة هوازن بحرارة خطر الوجود الإسلامى تلفح وجوههم ، فاستعد قائدهم الشاب مالك بن عوف للمواجهة وحشد عشرين ألف مقاتل ، لا للدفاع عن بلاد هوازن ، وإنما للزحف على مكة لضرب المسلمين وإخراج الجيش النبوى منها لتعود من جديد تحت سلطان الوثنية .

أسلوب قائد هوازن المتهور فى التعبئة

وقد اتبع القائد الشاب مالك بن عوف فى تعبئة هوازن أسلوباً غريباً متهوراً ، لم يسلكه أحد قبله فى المعارك الفاصلة التى نشبت فى الجزيرة . فبعد أن تم له حشد عشرين ألف مقاتل من مختلف قبائل هوازن ، قرر أن يزحف بهم على مكة ، والأسلوب الغريب المتهور الذى اتبعه قائد هوازن ، هو أنه قرر أن يصحب كل جندى أو قائد فى جيش هوازن نساءه وأطفاله وكل ما يملك من إبل وشاة وذهب وفضة .

وهدف القائد الشاب من وراء ذلك أن يعطى المقاتلين فى جيشه مزيداً من التصميم على القتال عندما يصطدم بالمسلمين ، وأن يقطع على كل مقاتل فى الجيش فكرة الفرار من أمام المسلمين عند اللقاء ، على أساس الاعتقاد أنه من المستحيل على محارب أن يهرب من الميدان ويترك زوجته ونساءه وكل ما يملك يقع فى قبضة أعدائه .

ذلك هو منطلق فهم القائد الشاب مالك بن عوف للوضع وهو يحشد جيشه ويرسم الخطط للمعركة الفاصلة مع المسلمين ، وقد نسى ، أو بالأحرى جهل (لعدم خبرته بالسياسة الحربية) أن المنهزم لا يرده شيء ، كما قال

المحارب الشهير دريد بن الصمة الجشمي ذلك لملك بن عوف — وهو ينصحه بإرجاع النساء والأطفال والأموال إلى رؤوس الجبال ويلقى المسلمين متون الخيل — كما سيأتى فيما يلى من هذا الكتاب إن شاء الله ..

أول انشقاق فى جيش هوازن

ورغم الحشد الكبير الذى حشده مالك بن عوف النصرى (عشرين ألفاً لغزو المسلمين فى مكة) فإن شقاقاً خطيراً قد حدث بين صفوف التجمع الوثنى الهوازى .

فقد عارضت قبيلتان لهما وزنهما العسكرى الكبير بين هوازن .. عارضت هاتان القبيلتان فكرة مالك بن عوف القائد العام ، والقائلة بنقل المعركة إلى مكة ومحاربة المسلمين لإخراجهم منها ، وكانت معارضة هاتين القبيلتين (على ما يبدو) منطلقة من أن ترك هوازن لديارها وزحفها بقضها وقضيضها ونسائها وأطفالها وأموالها لمواجهة المسلمين خارج ديار هوازن ، يحمل كل معانى التهور وعدم الحسبان للنتائج حيث يعرض هوازن لخطر مدمر لأن الحرب (أى حرب) غير مأمونة عواقبها ، إذ لو حدث (وهو ما حدث بالفعل) وأن نزلت الهزيمة بهوازن فإنها ستكون هزيمة ساحقة فاضحة لا يمكن أن تقوم لهوازن بعدها قائمة ، حيث سيقع نساؤها وأبنائها وكل ما تملك غنيمة فى أيدي المسلمين .

غير أن مالك بن عوف غلبه طيش الشباب فاصر على تنفيذ فكرته ، وقرر الزحف (حسب الخطة المرسومة) على المسلمين فى مكة .

وهكذا ولما لم يسمع صوت المعارضة بين هوازن والمتمثل فى رجال قبيلتي (كعب^(١) وكلاب^(٢)) وهما من بنى عامر بن صعصعة) أعلنت هاتان

(١) كعب هؤلاء بطن عظيمة من هوازن ، وهم بنو كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية ابن بكر بن هوازن . وكان منهم من يقطن المنطقة الواقعة بين تهامة والمدينة وأرض الشام . قال فى معجم قبائل العرب دخلت الشام منهم قبائل عقيل وقسر وحريش وجعدة فانقرض الثلاثة فى دولة الإسلام ، ولم يبق إلا بنو عقيل ، وكانوا بنجد عند مجئ الإسلام ، ودارهم الفلج وما أحاط به من البادية ، كذا قال فى معجم ما استعجم .

(٢) كلاب هذه بطن عظيمة أيضاً من هوازن قال فى معجم قبائل العرب : وهم أبناء كلاب بن ربيعة =

القبيلتان رفض الانضمام إلى جيش هوازن الغازي ، فحدث بذلك أول انشقاق خطير في جيش هوازن ، لأن قبيلتي (كعب وكلاب) تعتبر من أهم الأجنحة العسكرية ذات القدرة القتالية والكثرة العددية بين قبائل هوازن . هذا ما شهد به الخبير العسكري المجرب (دريد بن الصمة) عندما تبلغ وهو في وادي حنين يجادل القائد العام مالك بن عوف حول الخطأ القاتل الذي ارتكبه باصطحاب الجيش نساءه وأطفاله وأمواله .

فقد سأل دريد بن الصمة (وهو ينصح مالك بن عوف بإرجاع النساء والأطفال والأموال إلى رؤوس الجبال) :

— ما فعلت كعب وكلاب ؟

قالوا : ليس في الجيش منهم أحد

فقال : غاب الحد والجد ، لو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب وكلاب ، ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب^(١) .

وكان الذي منع كلاباً من حضور حنين مع هوازن ، ابن أبي البراء . فقد روى الواقدي في مغازيه ج ٣ ص ٨٨٦ فقال : ولم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب ، ولقد كانت كلاب قرية ، فقيل لبعضهم : لم تركتها كلاب ؟ فقال : أما والله إن كانت لقرية ، ولكن ابن أبي البراء مشى فيها عن الحضور فأطاعته ، وقال : والله لو ناوأ محمداً من بين المشرق والمغرب لظهر عليه .

ورغم انشقاق كعب وكلاب من صفوف التجمع الهوازي وتمردا على القائد العام مالك بن عوف بعدم انصياعها لأوامره وإعلانها عدم الانخراط في سلك جيشه ، فإن قوة هوازن بقيت (من الناحية الحربية) قوة جبارة مرهوبة حيث انصاع عشرون ألف مقاتل من هوازن لقائدهم الشاب مالك بن عوف ، يقابلهم اثنا عشر ألف مقاتل من المسلمين .

= أخو كعب بن ربيعة ، قال في معجم قبائل العرب : « كانت ديارهم بحمي ضرية ، وهو حمى كليب ، وحمى الرينة في جهات المدينة النبوية وفدك والعوالي ، ثم انتقلوا إلى الشام ، فكان لهم في الجزيرة صيت ، وملكوا ، وقد اتخذوا في الجاهلية بدومة الجندل صنماً يدعى ودأ ، ودخلوا في دين النصرانية ثم في الإسلام » .

(١) البداية والنهاية

وتدل لهجة المؤرخين في أمهات التاريخ على أن البنية كانت مبيتة لدى هوازن لمواجهة المسلمين وغزوهم في أى مكان ، وأنهم كانوا يعدون العدة لذلك حتى قبل أن تتم السيطرة للمسلمين على مكة ، كما أنهم كانوا في استعدادهم قد ذهبوا إلى أن يدخلوا في حسابهم أسوأ الظروف ، فحسبوا (وهم يضعون خطة الحرب ضد المسلمين أينما كانوا) حساب احتمال نزول الهزيمة بهم وهم يشنون الهجوم على المسلمين في أى مكان .

فوضعوا (انطلاقاً من هذا الحسبان) خطة الدفاع — بعد وضعهم الهجوم — ، وخطة الدفاع هذه تتلخص في الاستعداد للتحصن في المدن (كالطائف مثلاً) إذا ما كانت الهزيمة نصيبهم من هجومهم على المسلمين . واستكمالاً لخطة الدفاع هذه (وهى خطة احتياطية) أرسلوا من ثقيف (بطن من هوازن) بعثة إلى مدينة جرش في الأردن التى كانت جزءاً من الشام الخاضع يوم ذاك لسلطان الإمبراطورية الرومانية المعادية للإسلام والمسلمين . وكانت مهمة هذه البعثة التى كان يرأسها (عروة بن مسعود^(١)) الحصول على آلات حرب ثقيلة تصلح للحروب التى يكون فيها حصار ، بحيث تُستخدم في الدفاع عن القلاع والحصون ، وفي شن الهجمات المضادة على جيش العدو الذى يتولى الحصار .

وكانت جرش (الرومانية آن ذاك) بها مصانع للمنجنيقات والعرادات (راجحات) والدبابات (آلات واقية يتستر خلفها الجنود عند الزحف في بعض الحالات لتقييم السهام) ، ولذلك قررت هوازن ضمن خططها الحربية أن ترسل هذه البعثة للحصول من المصانع الرومانية في (جرش) على هذه الأسلحة الحربية الثقيلة .

وكانت هذه الخطة التى تدل على تبين النية على غزو المسلمين من قبل هوازن قبل وصولهم مكة بل وحتى قبل تحركهم من المدينة .. كانت هذه الخطة قد كشفها جاسوس من هوازن ألقت عليه القبض جريدة من الخيل التابعة لسلح الاستكشاف في الجيش النبوى الذى كان يتحرك من المدينة نحو مكة .

(١) انظر ترجمة ابن مسعود في كتابنا (صلح الحديبية) .

فقد ذكر المقرئى فى كتابه (إمتاع الأسماع) أن النبى ﷺ وهو يتحرك بجيشه من المدينة صوب مكة ، قدم جريدة من الخيل طليعة ، فألقت هذه الطليعة القبض على رجل من هوازن ، كان يعمل فى جهاز استخبارات مالك ابن عوف سيد هوازن وقائدها ، ليمد هذا الجهاز بما يحتاج من أخبار عن المسلمين ، وتحركات جيشهم الذى كانت هوازن تتوقعه بعد نقض قريش صلح الحديبية .

فعندما مَثَلَ هذا الجاسوس الهوازى بين يدى القائد الأعلى النبى ، سأله (أثناء استجوابه) عن حقيقة الوضع العسكرى الذى عليه قبائل هوازن فقال :

قد جمعوا الجموع وأجلبوا العرب ، وبعثوا إلى ثقيف فأجابتهم ، فتركت ثقيفاً قد جمعوا الجموع وأجلبوا العرب وبعثوا إلى جرش فى عمل الدبابات والمنجنيق ، وهم سائرون إلى هوازن ، فيكونون جميعاً .. فقال الرسول ﷺ : وكل هوازن قد أجاب ؟. قال الجاسوس : كلا ، أبطأ من بنى عامر ، كعب وكلاب .

فقال النبى ﷺ (معقباً على ما أدلى به جاسوس هوازن من معلومات) : ما أراه إلا صدقنى ، ثم أمر بحبسه حبساً تحفظياً^(١) .

استخبارات الرسول فى ديار هوازن

وهكذا فالرسول الفائد ﷺ قد كان على علم بما يجرى فى ديار هوازن ، فلم يكن (بعد استيلائه على مكة) غافلاً عما يجرى هناك .

فقد كان (كما هو واضح) على علم بالعداوة الشديدة التى تضمهرها له قبائل هوازن ، والنية المبيتة التى تحمل فى نفوس هذه القبائل العزم على غزو المسلمين أينما كانوا .

فقد أبلغت الرسول ﷺ عيونه (استخباراته) التى بثها بين يديه — وهو يتحرك بالجيش نحو مكة قبل فتحها — أبلغته أن هناك تحشيدات واسعة تقوم بها الأحلاف من هوازن .. القصد منها مواجهة المسلمين فى معركة فاصلة .

(١) انظر إمتاع الأسماع .

إلا أن المعلومات عما يجري في ديار هوازن ضد المسلمين لم تكن متكاملة لدى الرسول القائد ﷺ لأن أحداً من رجال استخباراته (بالذات) لم يكن قد ذهب إلى ديار هوازن ، واختلط هناك بالقوم ورأى بعينه وسمع بأذنه ما يجري ضد المسلمين .

لذلك قرر الرسول ﷺ أن يبعث رجلاً من أصحابه إلى ديار هوازن ليجمع له كل المعلومات اللازمة عن كل ما يجري هناك ضد المسلمين . فكان رجل الاستخبارات الذي وقع عليه اختيار النبي ﷺ للقيام بهذه المهمة الخطيرة ، رجلاً من بني سليم المجاورة لديارهم لديار هوازن ، وهذا الرجل هو عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي^(١) . الصحابي الشهير ، والبطل المشهور في معارك خيبر .

فقد استدعاه الرسول ﷺ وكلفه بأن يذهب إلى ديار هوازن ، وأن يتنكر لثلا يعرف أحد من هوازن حقيقته ، ولكي يتمكن من الاختلاط بهم ، ويعرف كل ما يجب أن يلم به الرسول ﷺ ومدى قوتهم وأى الطرق يريدون سلوكه ، إلى غير ذلك مما يجب أن يعرفه قائد مسئول عن حقيقة عدوه من كل النواحي .

وقد صدع ابن أبي حدرد بأمر النبي ﷺ فذهب إلى مقر قيادة هوازن بأرضهم فاختلط بمختلف القيادات الرئيسية والفرعية هناك ، واندس داخل جموع القبائل ، واستمر هناك عدة أيام يدون في ذاكرته كل ما يهيم رسوله محمداً ﷺ من معلومات عن تلك الحشود الهوازنية .

وبعد أن رأى عبد الله بن أبي حدرد ، أنه قد حصل على ما فيه الكفاية من معلومات يحتاجها الرسول القائد ﷺ انسل من بين جموع هوازن التي توافدت الآلاف من كل عشيرة وفخيزة منها إلى حيث يعسكر قائدها العام مالك بن عوف النصري مجيبة دعوته إلى حرب رسول الله ﷺ . وكانت هوازن (كما قلنا) جيلاً عظيماً ذا أفخاذ وبطون عظيمة تحتل ديارها مساحة عظيمة من الجزيرة متداخلة من الحجاز ونجد . فهي قبيلة حجازية نجدية .

(١) انظر ترجمة عبد الله بن أبي حدرد في كتابنا (غزوة خيبر) .

انسـل رجل الاستخبارات النبوية (عبد الله بن أـى حـدرـد) من بين الجموع الزاخرة من هـوازـن واتجه صوب مكة حيث يقيم ﷺ بعسكره بعد الفتح .

التقرير عن حالة هـوازـن الحربية

وعندما وصل رجل الاستخبارات ابن أـى حـدرـد إلى مكة قدم للرسول والقائد الأعلى للجيش تقريراً شفوياً مفصلاً عن جيش هـوازـن ، وما يقوم به من استعداد لحرب الرسول ﷺ وتبلغ الرسول ﷺ ضمن التقرير الذى قدم إليه عن وضع هـوازـن العسكرى — أنها قد حشدت عشرين ألف مقاتل ، ولا شك أنه تلقى ضمن هذا التقرير أن هـوازـن قد قررت عدم الانتظار فى ديارها وقـمـم جبالها ، بل استجابت لفرور قائدها اليافع مالك بن عوف ، فقررت القيام بغزو المسلمين فى مكة نفسها . وأنها قد عسكرت بوادى حنين . ولذلك سارع النبى ﷺ وبأقصى سرعة إلى الخروج من مكة بالجيش ليكون صدامه مع هـوازـن الغازية خارج مكة . حتى إن الرسول ﷺ (لخطورة الوضع) كما يقول الواقدى تحرك من مكة بجيشه ثانى يوم عيد الفطر . كما سأتى تفصيله فيما يلى من هذا الكتاب إن شاء الله .

قال ابن إسحاق ولما سمع رسول الله ﷺ بهم (أى بهـوازـن) بعث إليهم عبد الله بن أـى حـدرـد ، وأمره أن يدخل فى الناس ، فيقيم فيهم ، حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم ، فانطلق ابن أـى حـدرـد فدخل فيهم حتى سمع وعلم ما قد جمعوا له من حرب رسول الله ﷺ ، وسمع من مالك (ابن عوف) وأمر هـوازـن وما هم عليه ، ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر^(١) .

تحرك هـوازـن صوب مكة

هكذا بعد أن أكملت هـوازـن تجهيزها واكتمل حشد القسم الأكبر من جيشها فى أعاليها تحرك بها ملكها الشاب (مالك بن عوف) صوب مكة لمنازلة المسلمين فيها قبل أن يسيروا إليه هم منها .

(١) ج ٤ ص ٨٢ — ٨٣ .

وكان مالك قد أصدر أمره (كما هي خطته للحرب) إلى جميع الفصائل المشتركة من هوازن في جيشه بأن يحملوا معهم أبناءهم ونساءهم وأموالهم .
لقد كان منظراً مهيباً حقاً عشرين ألف مقاتل يصاحبهم على (أقل تقدير) ثلاثة أضعافهم من النساء والشيوخ والأطفال أى أن هوازن تحركت في اتجاه مكة بحوالى ثمانين ألف إنسان معهم من الإبل أربعة وعشرين ألف بعير^(١) وعدد لا يحصى من عشرات الألوف من الغنم .

وادی أوطاس مركز تجمع هوازن الرئيسى

وكان مكان التجمع النهائى لعشائر هوازن المشتركة في الحشد هو وادى أوطاس ، وهو أحد أودية حنين الرئيسة الواقعة شرق مكة والتي تصب في وادى حنين بين الشرائع والزيمة وجبال كرا وبنى مالك الواقعة جنوب شرق مكة والتي من ناحيتها جاءت قبائل ثقيف (أحد بطون هوازن الشهيرة) والتقت في (أوطاس) بملك هوازن وقائدها العام مالك بن عوف النصرى . وبها اكتمل حشد جيش هوازن عشرين ألف مقاتل .

لقد كانت القوة الرئيسة من هوازن ، تحركت من الشرق حتى عسكرت بأوطاس بقيادة مالك ، وفي أوطاس توالى الإمدادات من مختلف القبائل البعيدة عن مكان الحشد الرئيسى بديار هوازن شرقى الحجاز .

قال الواقدي : واجتمع الناس في أوطاس فعسكروا ، وأقاموا به ، وجعلت الإمدادات تأتيهم من كل ناحية .

دريد بن الصمة في جيش هوازن

كان دريد بن الصمة (أحد بنى جشم بن بكر بن معاوية بن هوازن محاربا شهيراً وسيداً من سادات هوازن ، ولكنه عند الحشد لمعركة حنين كان قد بلغ من العمر مائة وستين سنة . فلم تعد به قدرة على القتال ، حيث كان مقعداً يُحمل في الهودج أو على أكتاف الرجال لعدم قدرته على المشى . فضلاً عن القتال .

(١) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٩٤٣ تحقيق الدكتور مارسدن جونز (طبعة أكسفورد) .

إلا أن دريداً مع تقدمه في السن وعجزه (لكبره) عن القتال ظل متمتعاً بكامل قواه العقلية وكل حواسه (ما عدا السمع الذي كاد يفقده) . وكان مرجعاً لقومه هوازن في السياسة العسكرية والفنون الحربية ، بسبب تجاربه الحربية المتواصلة التي عاشها طوال مائة وعشرين عاماً في المجتمع القبلي الملتهب دائماً بنار الحرب ، فقد كان فارساً مجرباً لا يشق له غبار ، وشاعراً مفكراً فحلاً متوقد الذهن .

ومع عدم قدرته على القتال فقد أحب وأحب قومه أن يكون ضمن جيش هوازن الغازي ، لعلهم يستفيدون من خبرته وتجاربه الحريتين ، فقد حمله الجيش على شجار (والشجار دون الهودج) وجعلوا له قائداً يقود البعير الذي يحمله حتى عسكر الجيش بأوطاس .

القائد العام المستبد لم يستفد من خبرة دريد بن الصمة

ولم يشأ ملك هوازن وقائدها الشاب ، مالك بن عوف النصري أن يستفيد من خبرة دريد بن الصمة الحربية وتجاربه العسكرية التي اكتسبها طوال أكثر من قرن من الزمن قضاه وهو يخوض المعركة تلو المعركة حتى أقعده الكبر ..

فقد كان مالك بن عوف معتدا برأيه متكبراً مستبداً ، وكان شاباً يافعاً في عنفوان الشباب ، ورغم ما امتاز به من شجاعة وجرة وإقدام ، فقد سد الزهو والغرور والإعجاب بالنفس على مالك كل منافذ التفكير في نتائج ما هو مقدم عليه ، وكأنه لغروره ولكونه يقود عشرين ألف محارب من خيرة محاربي العرب يصحبهم نساؤهم وأبناؤهم وأموالهم ، ليس أمامهم سوى اثني عشر ألف مقاتل ليس لهم خبرة بالقتال (كما أشاع بين قومه وخدعهم) .. كأنه بهذا قد ضمن النصر لهوازن على المسلمين .

ولهذا فإنه بعد أن توجهت هوازن عليها ملكاً وأصبح قائداً عاماً لجيشها استبد برأيه وسار يضع الخطة بمفرده ثم يسارع في تنفيذها بطريقة استبدادية ، فلم يفكر في استشارة وجوه عشائر هوازن وسادتها المسنين الذين عرکتهم الحوادث سنين طويلة ، بل أهملهم جميعاً ، وصار يتخذ القرارات الانفرادية ثم يأمر بتنفيذها بصرامة فلا تعصى له هوازن أمراً لأنها قد ارتضته ملكاً عليها وقائداً

عاماً لجيشها .. اللهم إلا بنى كعب وبنى كلاب الذين عصوه ورفضوا إطاعة أوامره منذ البداية .. فكان من نتيجة اتخاذه القرارات الفردية والإسراع في تنفيذها بصورة استبدادية أن قاد قومه إلى هزيمة مدمرة لم يَمَنَّ بمثلها جيل من العرب .

وكان من بين الذين أهملهم (دريد بن الصمة) الذى رغم كبره الشديد الذى أقعده ، كان ذا خبرة كبيرة وتجربة واسعة بشئون الحروب ومكائدها ووسائل النصر وأسباب الهزيمة فيها لطول ما خاضها عبر أكثر من قرن من الزمن .

دريد بن الصمة الخبير الحرنى الكبير هذا أهمله مالك بن عوف ، فحُمِل على ظهر بعيره فى الجيش وهو (لثقل سمعه) لا يدرى ماذا يصنع القائد العام مالك ، وكيف يعبئ الجيش ويتصرف فى شئونه المصيرية الأخرى .

حتى إن (دريد بن الصمة) لم يعلم أن القائد مالكا قد جعل الجند يحملون معهم نساءهم وأبنائهم وأموالهم إلا فى وادى أوطاس الذى كان المكان الرئيسى والأخير للتجمع والذى فيه أكملت هوازن حشد قواتها من كل بطونها (ما عدا كعب وكراب) .

ففى هذا الوادى الذى عسكر فيه مالك بن عوف بهوازن عدة أيام سمع دريد بن الصمة (رغم ثقل سمعه) الضجة الشديدة التى مبعثها رغاء الإبل وأصوات الحمير والشياء ، وأصوات النساء والأطفال ، وهو أمر لم يتوقع دريد (كخبير عسكري مجرب) أن يكون ضمن جيش عرمرم يتحرك ليخوض معركة حياة أو موت .

لذلك عندما سمع تلك الضجة الهائلة فى وادى أوطاس ، قال — بلغة الاستغراب — : « ما لى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وثغاء الشاء ، وخوار البقر ، وبكاء الصغير ؟ » .

وكان الخبير المجرب (دريد بن الصمة) عندما حط به الشجار على الأرض تحسسها بيده وقال : بأى واد أنتم ؟ .
قالوا : بأوطاس .

قال : نعم مجال الخيل ، لا حزن ضرس^(١) ولا سهل دَهِس^(٢) ، مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وثغاء الشاء ، ونحوار البقر ، وبكاء الصغير ؟ .

قالوا : ساق مالك من الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم .
وهنا سأل عن موقف قبيلتين من أشد وأقوى قبائل هوازن وأصبرها على القتال ، فقال :

— يا معشر هوازن ، أمعكم من بنى كلاب بن ربيعة أحد ؟ .
قالوا : لا .

قال : فمعكم من بنى كعب بن ربيعة أحد ؟ .
قالوا : لا .

قال : لو كان خيراً ما سبقتموهم إليه ، ولو كان ذكراً أو شرفاً ما تخلفوا عنه^(٣) .

وقال دريد أيضاً لما بلغه تخلف كعب وكراب عن المشاركة فى حرب المسلمين فى حنين : « غاب الجد والحد ، لو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب وكراب ولو ددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكراب »^(٤) .
ثم سأل : فمن شهدا منكم ؟ .

قالوا : عمرو بن عامر وعوف بن عامر ..
قال : ذاك الجدعان^(٥) من بنى عامر لا ينفعان ولا يضران^(٦) .

دريد بن الصمة يدعو للرجوع بالجيش وتفادى الصدام مع المسلمين

وعندما أطلع الخبير الحرثى المجرب المسن ابن الصمة على الحقيقة الرهيبة

(١) الحزن : المرتفع من الأرض ، والضرس : الذى فيه حجارة معدة .

(٢) دَهِس : لين كثير التراب

(٣) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٨٨٧

(٤) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٧١

(٥) الجدع : هو الشاب الحدث : ويعنى دريد بذلك أن من شهدا من بنى عامر ليست لهم أية

قيمة قتالية .

(٦) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٧١

المتمثلة في جلب النساء والأطفال والأموال مع الجند وتخلف أهم أجنحة هوازن
المحاربة كعب وكلاب ، طلب من وجوه هوازن وشيوخ عشائرها أن يفعلوا
فعل كلاب وكعب ، فيعصوا مالكا ويرجعوا إلى بلادهم قبل أن يصطدموا
بالمسلمين فقال : « أطيعوني يا معشر هوازن ، وارجعوا وافعلوا ما فعل
هؤلاء » — يعني كعباً وكلاباً — فأبت عليه هوازن^(١) .

وعندما لم تستجب شيوخ العشائر ووجوه القبائل في جيش هوازن لنداء
دريد بن الصمة ، الداعي إلى عصيان القائد مالك بن عوف ، والرجوع
بالجيش دون أن يلقي المسلمين ، وحيث بان له أن القائد المتغطرس المستبد
المغرور مصمم على محاربة المسلمين ، بذل محاولة جديدة أراد بها تجنب النساء
والأطفال والأموال الهائلة الوقوع في أيدي جيش الإسلام إذا ما كانت له الدائرة
على هوازن .

فاستدعى القائد العام الشاب مالك بن عوف ، وبعد أن سألته عن سبب
إكراهه الجيش على حمل نسائهم وأبنائهم وأموالهم معهم ، وبعد أن سفه رأيه
وشرح له خطورة ما أقدم عليه ، تقدم إليه باقتراح وطالبه بتنفيذه إنقاذاً لكرامة هوازن
التي لم يعد لدى الخبير المحنك (دريد) أدنى شك في أنها ستمسح في
الوحد ، إذا ما أصر القائد العام على الاستمرار في اصطحاب النساء والأطفال
والأموال مع الجيش . وهذا الاقتراح يتلخص في أن يأمر القائد العام مالك بن
عوف بإعادة النساء والأطفال والأموال إلى رؤوس الجبال لينجو من الوقوع في
الأسر إذا ما كان النصر للمسلمين في المعركة ، وأن يلقي مالك المسلمين على
ظهور الخيل ليتمكن جيش هوازن من الانسحاب بأقل خسارة ممكنة إذا
ما دارت عليه الدائرة . ولكن القائد المغرور مالكا استكبر أيضاً هذه المرة
ورفض الاستجابة لنصيحة الخبير (دريد بن الصمة) .

فقد ذكر أصحاب المغازي والسير وأصحاب الحديث أن دريداً بن الصمة
قد أفرغه تصرف القائد مالك بن عوف عندما ساق مع الجيش نساءهم
وأبنائهم وأموالهم ، لأن ذلك (في نظر دريد كما هو في نظر كل قائد عسكري

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٨٨٧

مستول يقدر المسئولية (ضرب من الانتحار والتهور ، لا يقدم عليه من يضع نتائج المعارك في مقدمة حسابه قبل الإقدام عليها .

ولذلك استدعى دريد بن الصمة الملك والقائد مالكا ، فلما حضر مالك دار بينهما هذا الحوار الحاد :

دريد : يا مالك إنك تقاتل رجلاً كريماً (يعنى النبي ﷺ) ، وقد أصبحت رئيس قومك وأن هذا اليوم كائن لما بعده من الأيام .. يا مالك ما لى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ويعار الشاء أو ثغاء الشاء؟^(١) .
مالك : سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم .

دريد : ولم ؟

مالك : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وولده وماله ونساءه ، حتى يقاتل عنهم .

دريد : (بسخرية وحق) راعى ضأن ماله وللحرب — يعنى مالكا — ثم انقض^(٢) يده ..

ثم قال دريد : وهل يرد المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك رجل إلا بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضيحت في أهلك ومالك ، ثم أردف :
يا مالك إنك لم تصنع بتقديم بيضة^(٣) هوازن إلى نخور الخيل شيئاً . فإذا صنعت ما صنعت فلا تعصنى في هذه الخطة ، ارفعهم (أى النساء والأموال والأولاد) إلى ممتنع بلادهم وعلياء قومهم وعزهم ، ثم الق الصباة^(٤) (يعنى المسلمين) على متون الخيل ، فإن كانت لك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك .

(١) اليعار (بضم الياء) والثغاء (بضم الثاء) معنى لكلمة واحدة ، وهو صوت الغنم .
(٢) قال في النهاية في غريب الحديث : أنقض أى صفق بإحدى يديه حتى يسمع لها نقيض ، أى صوت .

(٣) قال أبو ذر في شرحه ص ٣٨٥ : بيضة هوازن جماعتهم .

(٤) الصباة جمع صباى ، وهو من يخرج من دين إلى دين ، وكان يقال للرجل إذا أسلم في زمن النبي ﷺ : قد صبا . وكانت العرب تسمى النبي ﷺ الصباى لأنه خرج من دين قريش إلى دين الإسلام . فالصباة في كلمة دريد هم المسلمون .. انظر لسان العرب .

مالك : (بغضب واستكبار) : والله لا أفعل ، ولا أغيرُ أمراً صنعته ، إنك قد كبرت وكبر علمك ، وحدث بعدك من هو أبصر بالحرب منك .
 دريد : يا معشر هوازن ، والله ما هذا لكم برأى ، هذا فاضحكم في عورتكم وممكّن منكم عدوكم ، ولاحق بحصن ثقيف وتارككم ، فانصرفوا واتركوه .

قائد هوازن يهدد بالانتحار

ويظهر أن كلام المجرب الخبير (دريد) وحواره المركز الذي أجراه مع ملك هوازن وقائدها قد أثر في قادة الكتائب ووجوه القبائل في جيش هوازن ، فبدأ عليهم الميل للأخذ بنصيحة دريد بن الصمة لإرجاع النساء والأطفال والأموال إلى أعالي الجبال . لذلك (وقد أحس مالك أن زعماء قومه يرون أن المنطق والصواب يكمنان في نصائح وتوجيهات دريد بن الصمة وأن التوفيق قد جانب مالكا في تصرفه) لم يجد القائد الشاب الطائش أمامه سوى التهديد بالانتحار إن لم تطعه هوازن وتصرف النظر عن نصائح وتوجيهات دريد بن الصمة .
 فقد استل مالك سيفه (أمام وجوه وقادة هوازن) ثم نكسه^(١) ثم قال : — يا معشر هوازن ، والله لتطيعنني أو لأتكنن على السيف حتى يخرج من ظهري .

وكره مالك أن يكون لدريد فيها ذكر ورأى ، فتشاور القوم وتناقشوا ودرسوا الوضع ومشى بعضهم إلى بعض . فقالوا : والله لئن عصينا مالكا ، وهو شاب ، ليقتلن نفسه ونبقى مع دريد ، شيخ كبير ، لا قتال فيه ، ابن ستين ومائة . وأجمعوا أمرهم مع مالك ، وخالفت هوازن دريدا .

فلما رأى ذلك دريد وأنهم قد خالفوه ، قال : هذا يوم لم أشهده ولم أغب عنه ، ثم قال :

يا ليتنى فيها جذع	أحبُ	فيها	وأضع ^(٢)
أقود وطفاء الزرع	كانها	شاة	صدع ^(٣)

(١) قال في الصحاح : نكسه أى قلبه .

(٢) الخب والوضع ضربان من السير .

(٣) الفرس الوطفاء الطويلة الشعر .

وكان دريد قد ذكر بالفروسية والشجاعة ، ولم يكن له عشرون سنة ، وكان رئيس بنى جشم وسيدهم وأوسطهم نسباً ، ولكن السن أدركته حتى فنى فناء — وهو دريد بن الصمة بن بكر بن علقمة بن جداعة بن غزيرة بن جشم ابن معاوية بن بكر بن هوازن (١) .

وهكذا نجح الشاب القائد ملك هوازن مالك بن عوف في حمل وجوه هوازن وشيوخها وقادتها على القبول بخوض معركة كان دريد بن الصمة قد أخبره (مسبقاً) بأنها معركة خاسرة وتنتائجها رهيبة مفزعة بالنسبة لهوازن .. لطريقة الحشد والتعبئة التي اتبعها القائد مالك بن عوف النصري والتي أخطر ما فيها حشد النساء والأطفال والشاء والإبل والحمير وكل ما تملك هوازن واصطحابه كله مع الجيش إلى حنين .

تحرك الجيش النبوي من مكة

استمر جيش هوازن في التحرك في اتجاه مكة إلا أن قائده العام مالك بن عوف لما بلغه أن النبي ﷺ قد تحرك (هو الآخر) بجيشه من مكة لمواجهة هوازن قرر أن يعسكر بجيشه في وادي حنين لأنه أصلح مكان من حيث السعة والطول لجولان الخيل التي يعتمد مالك وقادة هوازن على عدة آلاف منها . وكانت الخيل من أهم الأسلحة المتحركة التي يعتمد عليها المحارب في ذلك العصر فهي تقوم مقام سلاح المدرعات في هذا العصر .

أما الرسول ﷺ فبعد أن بلغه تحرك هوازن من ديارها في اتجاه مكة ، سارع إلى حشد جيشه في مكة وأسرع بالتحرك به لمواجهة هوازن قبل أن يصل جيشها إلى مكة ، وكان ذلك من الرسول ﷺ سياسة عسكرية حكيمة ألهمه الله اتباعها .

إذ أن ملاقاته الجيش النبوي للمشركين خارج مكة بعيداً عنها ، أصلح (من نواحي عدة) للجيش النبوي من مواجهتهم فيها أو قريباً منها .

(١) انظر تاريخ الطبري ج ٣ ص ٧١ — ٧٢ ، ومغازي الواقدي ج ٣ ص ٨٨٧ — ٨٨٨ — ٨٨٩ ، وجوامع السيرة ص ٢٣٦ — ٢٣٧ ، وطبقات ابن سعد ج ٢ ص ١٥٠ ، والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٧٧ ، وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٨١١ — ٨١٢ ، والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٢٤ ، وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ٨١ — ٨٢

ذلك أن الحالة تعتبر (باطنياً) داخل مكة غير مستقرة .. فالرسول ﷺ لم يمحض على سيطرة قواته على مكة أكثر من سبعة عشر يوماً . ومكة كانت معقل الوثنية وبها أعظم رؤوس قريش الذين لم يتركوا وسيلة للقضاء على الإسلام إلا واتبعوها .

واستسلامهم للجيش النبوي وتقريهم عدم مقاومته وهو يدخل مكة لم يكن عن اقتناع بأن الإسلام دين الحق يجب الإذعان والتسليم له .. وإنما كان عن ضعف وعدم قدرة على مواجهة الجيش النبوي عسكرياً .

ولو كانت قريش تعرف وتحس في نفسها القدرة على مواجهة النبي ﷺ وأصحابه والتغلب عليهم ودحرهم ، لما ترددت في اتباع خطة المقاومة ولواجهت النبي ﷺ وأصحابه مواجهة عسكرية لدحره .. يدل على ذلك أنها لما فوّضت رئيسها أبا سفيان ليأخذ لها الأمان من النبي ﷺ وجيشها المأيزل في الطريق لم يدخل مكة بعد ، قالت لأبي سفيان ما معناه : (خذ لنا منه الأمان واقبل بأن يدخل مكة إلا أن ترى في أصحابه ضعفاً فتابذه ، أى أعلن عليه الحرب) .

إذن فكثير من أهل مكة بعد أن سيطر الجيش النبوي على مكة أعلنوا إسلامهم ولما يدخل الإيمان في قلوبهم .. وهذه حقيقة عبّر عنها أحد ساداتهم الذي كان حاضراً معركة حنين .. حقيقة عبّر عنها بقوله (حينما انهزم المسلمون في المرحلة الأولى من المعركة) : بطل السحر إنها هزيمة لن تنتهي حتى البحر .

فالرسول ﷺ لو تحصن بمكة واعتمد خطة قتال الشوارع في مواجهته هوازن لأصبح هو وجيشه في وضع غير مأمون ، لأن الكثير من قريش قد تعود إليهم جاهليتهم فيغتنموا فرصة هجوم هوازن على مكة ، فيشكلوا قوة قريشية تضرب المسلمين داخل مكة .. إنه احتمال غير بعيد ، وكل قائد يكون على ما كان عليه النبي ﷺ لابد وأن يدخل في حسابه (وهو يرسم خطة المعركة الفاصلة) هذا الاحتمال .

من هنا كانت خطة رسول الله المرسومة على أساس الخروج من مكة واصطحابه ألفين من أهلها معه في الجيش خطة حكيمة جعلت ظهره مأموناً

من أن يضربه المرتابون الذين أعلنوا الإسلام ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم . مثل
الرعي الذي اغتبط بهزيمة المسلمين في المرحلة الأولى في حنين وقال كلمته تلك
(بطل السحر إنها هزيمة لن تنتهي حتى البحر) .

بل إن هناك من أهل مكة من بقي على شركه فلم يجبره النبي ﷺ على
الدخول في الإسلام بل ترك له الحرية مثل صفوان بن أمية وغيره ، وهذا يؤكد
الاحتمال القائل : إن أهل مكة ربما ينضمون إلى هوازن عندما تنشب المعركة في
مكة بين هوازن وبين الجيش النبوي .

ولهذا كان (من وجهة النظر العسكرية) عين الحكمة والحنكة السياسية
أن يخرج النبي ﷺ بجيشه من مكة ، وقرار مصادمة جيوش هوازن في العراء
بعيداً عن مكة ، التي لم يترك فيها (عند خروجه منها لملاقاة هوازن) سوى
حامية صغيرة لحفظ الأمن والنظام بقيادة عتّاب بن أسيد . وكانت الحامية التي
تركها كافية لحفظ النظام والضرب على يد أي مريب تحدّثه نفسه بالتمرد أو
الإخلال بالأمن ، لاسيما وأن الله ملأ قلوب القرشيين عامة هيبة ورعباً بعد أن
سيطر الجيش النبوي على العاصمة المقدسة .

استعارة الرسول السلاح من المشركين .

ولما قرر الرسول ﷺ الخروج من مكة لمواجهة هوازن خارجها ، قام بتقييم
للعناد الحرّي الذي يحتاجه جيشه ، فوجد أن هناك نقصاً في هذا العناد لا بد
من تكملته ليكتمل تسليح جيشه لأنه مقدم على معركة فاصلة يتقرر فيها
مصير الإسلام والمسلمين ، فقد كان عدوه أكثر عدداً وأجود تسليحاً ولهذا
فكر في مصدر يحصل منه على العناد الحرّي الذي يكمل تسليح جيشه .
كان صفوان بن أمية من كبار زعماء مكة وكان من أغنيائها وكان من أشهر
تجار السلاح . وكان رغم سيطرة المسلمين على مكة وإعطائه الأمان من قبل
الرسول ﷺ — بقي على شركه فلم يجبره الرسول ﷺ على الإسلام حتى
دخل فيه مختاراً بعد عودة الرسول من حنين منتصراً .

بحث الرسول ﷺ عن مصدر للسلاح ليؤمن به جيشه فوجد مصدرين في
مكة فقط استطاع أن يحصل منهما على ما يحتاجه من سلاح للمعركة القادمة

الفاصلة .. وهذان المصدران هما ابن عمه نوفل بن الحارث وصفوان بن أمية .
كان صفوان بن أمية (حتى معركة حنين مشركاً) وفي مكة فاتحه الرسول ﷺ بأنه بحاجة إلى السلاح نظراً لكونه مقدماً على خوض معركة كبيرة حاسمة مع هوازن ، وطلب منه أن يمدّه بالسلاح قائلاً : يا أبا أمية أعزنا سلاحك نلقّ به عدونا غداً . فقال صفوان : أغضباً يا محمد ؟ قال النبي ﷺ : بل عارية ومضمونة حتى نؤديها إليك . قال : ليس بهذا بأس . فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح (رماحاً وسيفاً) . وعند ذلك طلب رسول الله ﷺ من صفوان أن يتولى نقل السلاح إلى مكان المعركة قائلاً : إكفنا حملها ، فحملها صفوان على إبله إلى أوطاس فدفعها الى الرسول ﷺ .

أما نوفل بن الحارث بن عبد المطلب (وكان من كبار تجار السلاح أيضاً) فقد أعان النبي ﷺ في معركة حنين بثلاثة آلاف رمح ، وقد استفاد الجيش الإسلامي فائدة عظيمة من رماح نوفل بن الحارث هذه يوم حنين ، شهد بذلك النبي ﷺ حين قال لنوفل : كأني أنظر إلى رماحك تقصف أصلاب المشركين .

استقراض الرسول ﷺ المال من أهل مكة

كان الرسول ﷺ قد فتح مكة عنوة ، وكان في استطاعته — بعد أن استسلمت له مكة — أن يأخذ (كفاتح منتصر) من المغلوبين أهل مكة ما شاء من أموال وسلاح

أما السلاح فبالرغم من أن الأعراف الحربية تقضي بأن يصادر المنتصر كل قطعة سلاح في حوزة العدو المهزوم — فإن الرسول ﷺ لم يستول على شيء منها إلا التي ألقّت بها في الشوارع بعض الوحدات القرشية التي عصت أمر أبي سفيان وقاومت الجيش النبوي وهو يدخل مكة ثم انهزمت .

أما الأسلحة المخزونة في البيوت بمكة ، سواء كانت للتجارة أو للاستعمال الخاص ، فلم يسمح الرسول ﷺ بمصادرة شيء منها ، فلم يحدث أى اقتحام لأى بيت من بيوت المهزومين القرشيين من قبل الجيش الإسلامي المنتصر بحثاً عن السلاح لمصادرته وقد رأينا كيف أن الرسول ﷺ استعار من

صفوان بن أمية الجمحي (وهو من كبار قادة المشركين في مكة) السلاح ، وعندما سأله صفوان : أغضباً يا محمد ؟ قال : بل عارية ومضمونة حتى تؤديها .

كذلك الأموال ، فقد كان الجيش النبوي في أمس الحاجة إليها عندما سيطر على مكة ، ورغم أنه كذلك ، ورغم أنه جيش فاتح منتصر سيطر على أعظم وأكبر مدينة في بلاد العرب يوم ذاك ، فإن هذا الجيش (وبأمر من قائده الأعلى النبي) قد عَفَّ عَنْ أَنْ يأخذ درهماً واحداً أو أى شيء من أموال أهل مكة قسراً أو بالقوة .

وكل ما فعله النبي القائد المنتصر ، هو أنه لما رأى ما عليه بعض جنده من فقر وعوز وفاقه ، طلب من أغنياء مكة التي فتحها أن يعطوه من أموالهم قرصاً ليخفف به من الضائقة التي يعاني منها بعض الجند من أصحابه ، على أن يسدد لهم هذا القرض عندما يكون قادراً على ذلك ، فأقرضه أغنياء مكة مائة وخمسين ألف درهماً أعادها إليهم (بعد معركة حنين) مشفوعة بالشكر والحمد لهم .

وهذا التصرف من الرسول القائد المنتصر ، خُلِقَ لم يصل إلى مستواه في النبل والنزاهة والعفة والشرف العسكري والعدل المدني حتى هذا اليوم أحد من قادة العالم .

لقد كان بإمكانه (كفاتح منتصر على ألد عدو له) أن يأخذ بأسلوب المصادرة ما شاء من أموال أهل مكة الذين لم يتركوا وسيلة للقضاء عليه وعلى دعوته إلا واتبعوها ، ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ولكن لا غرابة فهو إنما جاء لتحرير البشرية لا لقمهرها وإذلالها .

قال الواقدي أرسل رسول الله ﷺ عام الفتح فاستلف من عبد الله بن أمية أربعة أربعين ألف درهم فأعطاه ، فلما فتح الله عليهم هوازن وغنمه أموالها ردّها وقال : إنما جزاء السلف الحمد ، وقال : بارك الله لك في مالك وولذك ، كما ذكر الواقدي في موضع آخر أن الرسول ﷺ استقرض من حويطب بن عبد العزى أربعة أربعين ألف درهم ومن صفوان بن أمية خمسين ألف درهم ، فقسمها رسول الله ﷺ بين أصحابه من أهل الضعف .

تاريخ تحرك الجيش النبوي من مكة إلى حنين

ويذكر المؤرخون أن النبي ﷺ أقام بمكة بعد الفتح خمسة عشر يوماً ثم تحرك بجيشه إلى حنين يوم السابع من شوال عام ٨ للهجرة ، وكان فتح مكة في شهر رمضان من هذه السنة .

قال الواقدي في مغازيه : وقالوا : وكان فتح مكة يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان فأقام رسول الله ﷺ لمكة خمس عشرة ليلة يصلي ركعتين ثم غدا يوم السبت لست خلون من شوال (١) .

وقال بعضهم : كان فتح مكة يوم الثالث عشر من رمضان ، وهذا يعني أن الرسول ﷺ أقام بمكة يقصر الصلاة سبعة عشر يوماً (٢) .

نائب الرسول على مكة

وعندما استكمل الرسول ﷺ تسليح جيشه وحشده وقرر التحرك به من مكة أصدر مرسوماً عين بموجبه أحد شباب قريش الصادقين في إسلامهم أميراً على مكة ليدبر شؤونها في حالة غيابه .

والشباب الأمير الذي عينه الرسول ﷺ حاكماً على أهل مكة هو عتاب بن أسيد (٣) . وتلك عادة الرسول ﷺ الإدارية . إذا ما غادر مدينة أقام عليها أميراً نائباً عنه حتى عودته إليها . وقد بقي عتاب بن أسيد أميراً على مكة

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٨٨٩ ، وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ٨٣ ، وتاريخ الطبري ج ٣ ص ٧٣ - ج ٣ ص ٩٨٨ .

(٢) انظر مغازي الواقدي ج ٣ ص ٨٨٩ .

(٣) هو عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي يكنى أبو عبد الرحمن وقيل أبو محمد ، أسلم يوم فتح مكة وكان شاباً حين أسلم لا يزيد عمره على خمس وعشرين سنة . وقد حسن إسلامه ووثق به النبي ﷺ وقدمه على غيره من سادات مكة لما رأى فيه من متانة الدين ومضاء العزيمة .. ولاه الرسول ﷺ إمارة مكة حينما توجه لمقاتلة المشركين في حنين ، وقد ظل عتاب أميراً على مكة طيلة حياة الرسول ﷺ وأقره أبو بكر عليها إلى أن توفي . قال ابن الأثير في أسد الغابة : وكان عتاب رجلاً خيراً صالحاً فاضلاً ، وعتاب هو الذي حج بالمسلمين سنة ثمان من الهجرة ، وحج المشركون على ما كانوا . توفي عتاب بن أسيد في الوقت الذي توفي فيه الخليفة الأول أبو بكر الصديق .

حتى بعد عودة الرسول ﷺ من حنين ومغادرته مكة راجعاً إلى المدينة . بل ظل عتاب أميراً على مكة حتى توفي رسول الله ﷺ وهو الذى (بالاشتراك مع سهيل بن عمرو) هدد أهل مكة بالقتل إن هم حاولوا الارتداد عن الإسلام وذلك عندما ارتد أكثر العرب وشاعت شائعات فى مكة بأن عناصر من أهلها يفكرون فى الخروج من الإسلام . فرقى سهيل بن عمرو المنبر وقال : (يا أهل مكة لا تكونوا آخر الناس إسلاماً وأولهم ارتداداً) وقال عتاب بن أسيد : (من تأخر عن حضور الصلاة فى المسجد ضربنا عنقه أو كما قال) .

عدد القوات النبوية المتحركة إلى حنين

وعندما أكمل الرسول القائد ﷺ حشد قواته وتعبقتها داخل مكة تحرك بها ناحية حنين الذى قررت هوازن أن يكون مكان المعركة الفاصلة بين المسلمين والمشركين .

أما عدد القوات النبوية فى الجيش المتحرك إلى حنين فقد بلغ اثنى عشر ألف مقاتل . عشرة آلاف من أهل المدينة وعناصر مختلفة من القبائل العربية التى ساهمت فى فتح مكة ، وألفان من أهل مكة ممن أسلم بعد الفتح^(١) ، وفهم بعض الذين بقوا على شركهم حتى انتهاء المعركة مثل (صفوان بن أمية) وكان البعض من أهل مكة ممن انخرط فى سلك الجيش النبوى ، لم يكن له هدف سوى المشاركة فى الغنيمة إذا تم النصر للمسلمين والتشفى من النبى ﷺ إذا خسر المعركة بل إن بعضهم لما انهزم المسلمون فى المرحلة الأولى من المعركة جاء يبشر صفوان بن أمية وكان لا يزال مشركاً ، فانتهره صفوان بشدة وأخبره أنه يفضل أن يرأسه رجل من قريش بدلاً من أن يحكمه رجلاً من هوازن .

قال الواقدى : وخرج رجال من مكة مع النبى ﷺ ، فلم يغادر منهم أحد على غير دين ركبناً ومشاة ينظرون لمن تكون الدائرة فيصيبون من الغنائم لا يكرهون أن تكون الصدمة لمحمد ﷺ وأصحابه وخرج أبو سفيان بن حرب فى أثر

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٨٩ ، وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ٧٣ ، وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ٨٣ وجوامع السيرة ٢٣٨ .

العسكر ، كلما مر بترس ساقط أو رمح أو متاع من متاع النبي ﷺ أخذه وحمله ، والأزلام في كنانته ، حتى أوقر جملة وخرج صفوان بن أمية ولم يسلم ، وهو في المدة التي جعل له رسول الله ﷺ فاضطرب خلف الناس ، ومعه حكيم بن حزام ، وحويطب بن عبد العزى ، وسهيل بن عمرو ، وأبو سفيان بن حرب ، والحارث بن هشام ، وعبد الله بن أبي ربيعة ، ينظرون لمن تكون الدائرة اضطربوا خلف الناس والناس يقتتلون فمر به (أى صفوان بن أمية) رجل فقال : أبشر أبا وهب ، هزم محمد وأصحابه . فقال له صفوان : إن رأياً (أى حاكماً) من قريش أحب إلى من رب من هوازن إن كنت مريباً^(١) . ومعنى مريباً أى محكوماً للملك أو غيره . فالعرب في لغتهم يعبرون عن الملك أو الحاكم بالرب ، وهذا كثير في أقوالهم من شعر ونثر .

وخامة عواقب الإعجاب بالنفس :

بعد فتح مكة قويت شوكة المسلمين سواء من الناحية المعنوية أو العسكرية .. فمن الناحية المعنوية بات سلطان الإسلام على شبه الجزيرة العربية شبه مطلق بعد وقوع مكة في قبضة الجيش الإسلامي ، لأن مكة تعتبر عاصمة الجزيرة العربية كلها لما لها من مركز ديني بين العرب على اختلاف مشاربهم وميولهم .

ومن الناحية العسكرية ، فقد اجتمعت للإسلام (بعد فتح مكة) قوة حربية لم ينضو تحت لواء الإسلام مثلها منذ بزغت شمس هذا الدين .

اثنا عشر ألف مقاتل تحركت من مكة في اتجاه حنين بقيادة الرسول الأعظم ﷺ وهو عدد كما قلنا لم يجتمع لمسلمين مثله من قبل .

لقد كانت هذه الكثرة ، كثرة الجيش التي لم يعرف المسلمون مثلها في تاريخهم العسكرى من قبل .. كانت هذه الكثرة باعث عجب بين بعض فصائل المحاربين في الجيش النبوى ، تحوّل هذا العجب (عند البعض) إلى ما يشبه الغرور .

والغرور من أول ثمراته الاستهانة بالعدو .

(١) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٨٩٥

والاستهانة بالعدو في حالة الحرب من أخطر ثمراتها التساهل في أخذ الاحتياطات اللازمة لمواجهة هذا العدو .

والتساهل وعدم أخذ الحيطة تؤدي بالتالى إلى الهزيمة والانكسار من حيث لا يتوقع المتساهلون المعجبون بأنفسهم .

وهذا ما حدث بالفعل في صفوف الجيش النبوى ، حيث أدى الإعجاب بكثرة إلى الجزم (سلفاً) بأن انتصاره على هوازن أمر مفروغ منه . وهو اعتقاد أدى إلى الاستخفاف بهوازن وقواتها الضاربة المدربة المنسقة ، فكانت النتيجة أن هُزم المسلمون في حنين هزيمة كادت تكون ساحقة مدمرة ، لولا أن ثبت الله القائد الأعلى النبى ﷺ ساعة الهزيمة ونفر قليل من أصحابه الذين ثبتوا معه ساعة الهزيمة المنكرة ، الأمر الذى أعاد للمسلمين المنهزمين تنظيمهم الذى فقدوه عند الصدمة الأولى حين انقضت عليه في غلس الفجر كائن هوازن من الشعاب التى نظمهم ورتبهم فيها قائدهم الشاب وملكهم الشجاع مالك بن عوف .

فتحول (بعد ذلك) ميزان القتال لصالح الجيش النبوى ، بعد أن محصهم الله بالهزيمة عند الصدمة الأولى ، تحول ميزان القتال من هزيمة مزقت شمل الجيش الإسلامى (حتى وصل بعض المنهزمين منه قرب مكة) إلى انتصار ساحق كان أعظم ظفر من وجهة النظر الحربية يحجزه الرسول ﷺ وأصحابه في معركة خاضوها في العهد النبوى ، نظراً للقوى الكثيفة الشرسة المحاربة التى اصطدموا بها في وادى حنين ، حيث كانت هذه القوى من هوازن لا تقل عن عشرين ألف مقاتل ، بينما جيش المسلمين لا يزيد على اثنى عشر ألف مقاتل .

حديث الجيش عن الإعجاب بالكثرة

لقد تفوهت عناصر من الجيش النبوى بما يشبه الزهو والغرور بكثرة هذا الجيش ، ويوحى بغفلة بعض القلوب عن الله نتيجة الإعجاب بالكثرة ، فعاقبهم الله بالهزيمة التى ردتهم إليه تعالى .

فقد جاء في كتب التفسير والسير والتاريخ أن النبى ﷺ لما فصل من مكة

بائني عشر ألف مقاتل ، قال رجل من أصحابه (بلهجة الإعجاب) : لو لقينا بنى شيان ما بالينا . ولا يغلبنا اليوم أحد من قلة ، وذكر بعض المؤرخين أن أبا بكر الصديق قال : يا رسول الله لن تغلب من قلة^(١) .

والخلاصة أن كثرة المسلمين قد أعجبتهم إلى حد وصل مرحلة الغرور في نفوس بعض العناصر منهم ، مما أدى إلى هزيمتهم في المرحلة الأولى من المعركة .

وهذه حقيقة أشار إليها القرآن الكريم بكل وضوح . فقال تعالى : ﴿ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين .. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين .. ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم .^(٢) ﴾

قال العلامة سيد قطب رحمه الله (في كتابه : في ظلال القرآن) : (ثم لمسة للمشاعر بالذكرى وباستعراض صفحة من الواقع الذي عاشه المسلمون إذ ذاك منذ قريب يوم حنين ، يوم غفلت قلوب المسلمين لحظات عن الله مأخوذة بالكثرة في العدد والعتاد ليعلم المؤمنون أن التجرد لله وتوثيق الصلة به هي عدة النصر التي لا تخذلهم حين تخذلهم الكثرة في العدد والعتاد وحين يخذلهم المال والإخوان والأولاد .)

ثم يقول (مشيراً إلى ما ذكره القرآن من نتائج إعجاب المسلمين بكثرتهم) : والنص يعيد عرض المعركة بمشاهدها المادية وبانفعالاتها الشعورية ﴿ إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ فمن انفعال الإعجاب بالكثرة إلى زلزلة الهزيمة الروحية ، إلى انفعال الضيق والخرج حتى لكأن الأرض كلها تضيق بهم وتشد عليهم . إلى حركة الهزيمة الحسية ، وتولية الأدبار والنكوص على الأعقاب ﴿ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ﴾ وكأنما السكينة رداء ينزل فيثبت القلوب الطائرة ، ويهدئ الانفعالات الشائرة ﴿ وأنزل جنوداً لم تروها ﴾ فلم تعلم

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٨٨٩ و ٨٩٠ وتفسير الطبري ج ١٤ ص ١٧٩ — ١٨٠ .

(٢) التوبة ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ .

ماهيتها وطبيعتها — وما يعلم جنود ربك إلا هو — ﴿وعذب الذين كفرو﴾
بالقتل والأسر والسلب والهزيمة ﴿وذلك جزاء الكافرين﴾ .

من بقايا تأثيرات الجاهلية المطالبة بذات أنواط

تحرك الرسول ﷺ — كما قلنا — بجيشه من مكة في السابع من شهر
شوال عام ثمان للهجرة متجهاً إلى حنين لمواجهة هوازن .

وكان في جيشه البالغ اثني عشر ألف مقاتل — ألفان من حديثي العهد
بالإسلام من أهل مكة . فكثير من هؤلاء لم ينخلعوا (كلياً) من معتقدات
الجاهلية ، بل ظلت — من تصورات الوثنية رواسب راسبة في نفوسهم لقرب
عهدهم بما كانوا عليه من شرك ووثنية .

ومن هذه الرواسب أن بعضاً ممن كان في الجيش النبوي من حديثي العهد
بالإسلام الذين لم يكونوا قد استوعبوه كله ، طلبوا من الرسول ﷺ أن يحقق
لهم طلباً .. تحقيقه هو عين الشرك والوثنية .

وخلاصة ذلك أن النبي ﷺ بينما كان يتحرك بجيشه بين مكة وحنين ،
مر الجيش بشجرة عظيمة خضراء ، كانت قريش وسائر العرب يعظمونها ،
يقال لها : (ذات أنواط) ، وهنا (وعندما رأوا الشجرة المذكورة) طلب
بعضهم من النبي ﷺ أن يجعل لهم شجرة مثل تلك الشجرة يعظمونها كما
يعظم المشركون ذات أنواط ، فقال الرسول ﷺ .. مستنكراً : الله أكبر قلت
والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى لموسى : ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال
إنكم قوم تجهلون﴾ .. إنها السنن لتركين سنن من كان قبلكم .

قال ابن إسحق وحدثني ابن شهاب الزهري عن سنان بن أبي سنان
الدؤلى ، عن أبي واقد الليثي أن الحارث بن مالك . قال :

خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حديثو عهد بالجاهلية ، قال
فسرنا معه إلى حنين ، قال : وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب
شجرة عظيمة خضراء ، يقال لها : ذات أنواط ، يأتونها كل سنة فيعلقون
أسلحتهم عليها وينحون عندها ويعكفون عليها يوماً . قال : فرأينا ونحن نسير
مع رسول الله ﷺ سدة خضراء عظيمة ، قال : فتنادينا من جنابات

الطريق : يا رسول الله ، اجعل لنا ذاء أنواط كما لهم ذات أنواط ، قال رسول الله ﷺ : الله أكبر قلت والذى نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى : ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال : إنكم قوم تجهلون﴾ إنه السنن لتكبن سنن من كان قبلكم^(١) .

وفى رواية عن عكرمة عن ابن عباس . قال كانت ذات أنواط شجرة عظيمة . أهل الجاهلية يذبحون بها ويعكفون عليها يوماً ، وكان من حج منهم وضع رداءه عندها ، ويدخل بغير رداء تعظيماً لها ، فلما مر بها رسول الله ﷺ إلى حنين . قال رهط من أصحابه ، فيهم الحارث^(٢) بن مالك : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فكبر رسول الله ﷺ ثلاثاً وقال : هكذا فعل قوم موسى بموسى^(٣) .

محاولة اغتيال الرسول ﷺ في الطريق إلى حنين

في كل حرب (وخاصة في الحروب القديمة التى يكون قتل قائد الجيش السبب الرئيسى فى هزيمة جيشه) يفكر كل جانب فى التخلص من قائد الجيش الذى تقرر الاشتباك معه ، ليوهن بذلك من عزيمة جنده بقتله .

وليس من المستبعد أن يكون ملك هوازن وقائد جيشها العام قد فكر هذا التفكير ، فوضع خطة لاغتيال الرسول القائد ﷺ قبل نشوب المعركة وأوعز إلى من يثق به من رجاله لتنفيذ هذه الخطة .

فقد روى المؤرخون أن رجلاً من المشركين — لم يذكر اسمه — تمكن من التسلل إلى حيث يرقد الرسول ﷺ وهو فى الطريق إلى حنين فتخطى الحرس النبوى (خلصة) ، فلم يشعر النبى (ﷺ) إلا وذلك الرجل المشرك فوق

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٨٤ و ٨٥ .

(٢) هو الحارث بن مالك بن قيس بن عوذ بن جابر بن عبد مناف بن شجع الكنانى البكرى اللبى المعروف بابن البرصاء . قال ابن الأثير : هو من أهل الحجاز أقام بمكة ، وقيل نزل الكوفة .. وقد روى عنه الحديث كثير من التابعين ، منهم عبيد بن جريح والشعبي . وعنه روى الشعبي عن رسول الله ﷺ أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة يقول : لا تعزى قريش بعد اليوم إلى يوم القيامة .

(٣) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٨٩١ .

رأسه قد جرد سيفه والنبي ﷺ نائم بعيداً عن سلاحه ، غير أن الله تعالى أفضّل هذه المحاولة الخطيرة ، ونجّاه الرسول ﷺ من شرها ، فقد أشعر الرسول ﷺ حرسه فاعتقلوا المشرك المتآمر ، وحاولوا إعدامه ولكن الرسول ﷺ نهاهم عن ذلك .

قال أبو بردة بن نيار^(١) وهو من المقرين إلى رسول الله ﷺ : لما كنا دون أوطاس ، نزلنا ونظرنا إلى شجرة عظيمة ، فنزل رسول الله ﷺ تحتها وعلق بها رسول الله ﷺ سيفه وقوسه وقال : وكنت من أقرب أصحابه إليه . قال : فما أفرغني إلا صوته : يا أبا بردة ، فقلت : لبيك ، فأقبلت سريعاً ، فإذا رسول الله ﷺ جالس وعنده رجل جالس . فقال رسول الله ﷺ : إن هذا الرجل جاء وأنا نائم ، فسل سيفي ثم قام به على رأسي ففرغت به ، وهو يقول : يا محمد ، من يؤمنك مني اليوم ؟ قلت : الله ، قل أبو بردة : فوثبت إلى سيفي فسللته ، فقال رسول الله ﷺ شيم^(٢) سيفك . قال : قلت : يا رسول الله دعني أضرب عنق عدو الله ، فإن هذا من عيون المشركين . قال : فقال لي : أسكت يا أبا بردة . قال : فما قال له رسول الله ﷺ شيئاً ولا عاقبه . قال : فجعلت أصبح به في العسكر ليشهده الناس فيقتله قاتل بغير أمر من رسول الله ﷺ ، فأما أنا فإن رسول الله ﷺ قد كفني عن قتله . فجعل رسول الله ﷺ يقول : إله عن الرجل يا أبا بردة ، قال : فرجعت إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا أبا بردة إن الله مانعي وحافظي حتى يظهر دينه على الدين كله^(٣) .

تقارير استخبارات هوازن عن الجيش النبوي

وكما هي العادة المتبعة في كل حرب فإن حصول العدو عن المعلومات الكاملة في مختلف القطاعات والمجالات أمر يضعه كل قائد مسؤول في مقدمة خططه وحساباته واستعداداته للمواجهة . وانطلاقاً من هذه القاعدة (وكما فعل الرسول ﷺ حين بعث باستخباراته للحصول على المعلومات اللازمة عن

(١) أنظر ترجمة أبو بردة في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٢) شيم — بكسر الشين أى اغمدته .

(٣) مغازي الواقدي ج ٣ .

قوة هوازن ، فقد فعل مالك بن عوف النصرى ملك هوازن وقائدها نفس الشيء ، فبعد أن سبق المسلمين إلى وادى حنين وعسكر به وبعد أن علم بتحركهم من مكة ، قرر أن يبعث برجال من استخباراته العسكرية تستطلع أمر الجيش النبوى وتحمل إليه المعلومات الهامة عن الجيش النبوى التى يحتاج إليها قائد عام جيش هوازن الذى أصبح على أبواب معركة مصيرية حاسمة على نتائجها يتقرر مصير الوثنية بأكملها .

فقد انتخب مالك بن عوف ثلاثة من رجاله وأمرهم بأن يقوموا بمهمة التجسس على جيش المسلمين لمعرفة مدى قوته ، فكوّن منهم جهاز استخبارات خاصاً للقيام بهذه المهمة .

فقد أمر مالك بن عوف هؤلاء الثلاثة بأن يندسوا فى معسكر المسلمين ، وينقلوا إليه كل ما يحتاج إلى معرفته عن جيش الإسلام .

فقام هؤلاء الثلاثة بتنفيذ أمر ملكهم وقائدهم فتسللوا (متكررين) حتى وصلوا إلى المعسكر الإسلامى وجاسوا خلاله دون أن يشعر أحد من المسلمين ، فعرفوا عن جيش الإسلام ما حل قواهم المعنوية وجعلهم يستيقنون فى أنفسهم أن أحداً (مهما كان) لن يقدر على أن يتغلب على جيش الإسلام الذى رأوا .

لذلك عادوا إلى ملكهم وقائدهم مالك بن عوف فقدموا له عن جيش المسلمين تقريراً أغضبهم ، ولم يكتف جهاز استخبارات مالك ، بل أسدوا لقائدهم النصيح بأن يتجنب الصدام مع المسلمين ، وأن يعود بجيشه إلى ديار هوازن دون أن يلتحم بالجيش النبوى ، لأن تلك هى الوسيلة الوحيدة التى بها ينجو مالك وينجى جيشه من هزيمة ستكون ماحقة لا محالة .

قدم جهاز استخبارات ملك هوازن تقريره ثم نصحه بعدم الصدام عن قناعة بنوها نتيجة لواقع شهوده ولسوه ، حينما خالطوا المسلمين فى معسكرهم بين مكة وحنين حيث رأوا ما أفرعهم وبث الرعب فى نفوسهم .

ولكن مالكا اتهم استخباراته بالجن فسخر منهم ومن نصائحهم ، وكلف رجلاً آخر من رجاله بأن يقدم له تقريراً عن واقع الجيش الإسلامى ، وقد ذهب الرجل إلى معسكر المسلمين للاستكشاف ولكنه عاد إلى القائد مالك

يحمل نفس الشعور والانطباع اللذين حملهما الجواسيس الثلاثة ، فنصح القائد مالكا ، بأن يعود إلى ديارهم دون أن يلقي المسلمين ، وإلا فإن الهزيمة ستكون من نصيبه ومن نصيب جيشه إن هو أصر على ملاقاته المسلمين .

ولكن الغرور حال بين مالك وبين أن يأخذ ويعمل بما في التقارير والنصائح التي قدمها رجال استخباراته عن جيش المسلمين ، فأصر على مقاتلة المسلمين مهما كانت النتائج ، وقد فعل ، فنزلت به وبجيش هوازن تلك الهزيمة المنكرة التي كانت خاتمة الصراع الدامي بين الإسلام والوثنية في جزيرة العرب .

قال الواقدي : وبعث مالك بن عوف رجالاً من هوازن ينظرون إلى محمد وأصحابه ، ثلاثة نفر ، وأمرهم أن يتفرقوا في العسكر ، فرجعوا إليه وقد تفرقت أوصالهم . فقال : ما شأنكم ويلكم ؟ فقالوا : رأينا رجالاً يبضاً على خيل بلق ، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى . وقالوا له : ما نقاتل أهل الأرض إن نقاتل إلا أهل السموات — وإن أفئدة عبونه (أى جواسيسه) تحفق — وإن أطعنا رجعت بقومك . فإن الناس إن رأوا ما رأينا أصابهم مثل الذي أصابنا .

قال : أف لكم بل أنتم قوم أجبن أهل العسكر . فحبسهم عنده فرقاً (أى خوفاً) أن يشيع الرعب في العسكر . وقال : دوني على رجل شجاع ، فخرج ، ثم رجع إليه وقد أصابه نحو ما أصاب من قبله منهم ، فقال : ما رأيته ؟ قال رأيته رجالاً يبضاً على خيل بلق ، ما يطاق النظر إليهم ، فوالله ما تماسكت أن أصابني ما ترى . فلم يشنه ذلك عن وجهه^(١) .

الاستخبارات النبوية في معسكر هوازن

وعندما اقترب الرسول ﷺ من وادي حنين الذي اتخذته مالك بن عوف معسكراً لجيوش هوازن بعث بأحد أصحابه إلى معسكر هوازن ليقوم بمهمة جمع المعلومات اللازمة عن هذا الجيش ، ويعرف كل ما يمكنه معرفته من أخباره . وقد صدع رجل الاستخبارات الحربية النبوية فدخل (متكرراً) إلى معسكر هوازن حيث تعسكر في حنين وجمال في جميع نواحيه حتى إنه وصل إلى مقر

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٨٩٢ ٨٩٣

قيادة هوازن في المعسكر وسمع ما كان يدور بين ملك هوازن وقائدها وبين بقية رؤسائها من أحاديث حول الحرب بينهم وبين المسلمين .

بل وحصل رجل الاستخبارات النبوية على كامل تفاصيل الخطة التي وضعها قائد هوازن وملكها للمعركة ، وعرف بالتحديد عدد الجند الذي يقوده مالك بن عوف لمحاربة الجيش النبوي .

ورجل الاستخبارات النبوية هذا هو عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي الذي سمع مالك بن عوف (وهو في خيمة القيادة) يضع لهوازن خطة الهجوم ويصرّ لهم من شأن المسلمين ويرفع من معنويات قادة الكتائب في جيشه بأن لديه عشرين ألف مقاتل من هوازن ستكون الغلبة لهم ولا شك على المسلمين ، لأن المسلمين — بزعمه — لم يقاتلوا في كل حروبهم إلا أناساً لا علم لهم بالحرب . أمّا هوازن فهي (بزعم مالك) ستبرهن لمحمد وأصحابه كيف تكون الحرب .

فقد سمع ابن أبي حدرد .. سمع مالك بن عوف يقول لقادة وزعماء هوازن في مقر قيادته : إن محمداً لم يقاتل قط قبل هذه المرة ، وإنما كان يلقي أغماراً لا علم لهم بالحرب ، فيُنصر عليهم^(١) .

ثم شرع في وضع خطة المعركة الفاصلة فقال :
فإذا كان السّحر فصقّوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم ، ثم صفوا صفوفكم ثم تكون الحملة منكم .

ثم دعاهم إلى اتباع طريقة تمكنهم من خفة الحركة في القتال وتحملهم على الاستبسال وعدم التراجع ، وهي كسر جفون السيوف وإلقاؤها جانباً ، ودعاهم أن يكونوا هم البادئين بالهجوم لأن النصر — حسبما يقول — إنما يكون للباديء بالهجوم فقال :

ثم تكون الحملة منكم واكسروا جفون سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف مكسور الجفن ، واحملوا حملة رجل واحد ، واعلموا أن الغلبة لمن حمل أولاً .
وبعد أن حصل عبد الله بن أبي حدرد على هذه المعلومات الخطيرة الهامة

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٨٩٣

عن هوازن وخططها للحرب انسل من معسكرهم دون أن يشعر به أحد من رجال العدو .

وحتى إذا ما وصل مقر قيادة الرسول القائد ﷺ قدم له تقريراً مفصلاً عن كل ما رآه وسمعه في معسكر العدو^(١) .

قال سهل بن حنيف : سرنا مع رسول الله ﷺ في غزوة هوازن فأسرع السير حتى أتاه رجل فقال : يا رسول الله قد تقطعوا من ورائك (يعني المسلمين) ، كأنه يقصد أن جيش الرسول ﷺ فقد شيئاً من تنظيمه الذي كان عليه — قال سهل : فنزل (أى رسول الله ﷺ) فصلى بهم العصر وآوى إليهم الناس فأمرهم فنزلوا^(٢) .

وجاء فارس آخر ممن كلفوا القيام بمهمة الاستطلاع جاء إلى رسول الله ﷺ في مقر قيادته وقدم له تقريراً آخر عن وضع قوات العدو كما رآه ، فقال : يا رسول الله إني انطلقت من بين أيديكم على جبل كذا وكذا ، فإذا بهوازن عن بكرة أبيها يظعنونها ونسائها ونعمها في وادي حنين . فتبسم رسول الله ﷺ وقال : تلك غنيمة للمسلمين غداً إن شاء الله^(٣) .

أعمال الحراسة ليلة المعركة

وعندما اقترب الرسول ﷺ بجيشه من وادي حنين حيث دارت المعركة الفاصلة أمر بإنشاء جهاز الحراسة — يرصد العدو — ويرقب تحركاته لئلا يتعرض المسلمون لهجوم مفاجئ . والهجوم المفاجئ من أخطر ما تتعرض له الجيوش المحاربة .

وكان الذي أوكل إليه النبي ﷺ مهمة الحراسة ورصد العدو ومراقبة أى تحرك يقوم به هو أنيس بن مرثد بن أنى مرثد الغنوي^(٤) وكان فارساً شجاعاً مقداماً .

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٨٩٣

(٢) نفس المصدر .

(٣) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٤ .

(٤) هو أنيس بن مرثد بن أنى مرثد ، كان حليف حمزة بن عبد المطلب ، ونسبه في بني غنى بن أعصر ، شهد مع رسول الله ﷺ فتح مكة ، وحنين ، وهو الذى أمره الرسول ﷺ برفع المرأة التى اعترفت . قتل أبوه شهيداً يوم الرجيع فى حياة الرسول ﷺ . توفى أنيس سنة عشرين هجرية ، وروى المحدثون عنه =

وقد أمر الرسول ﷺ أن يكون مركز الحراسة بعيداً عن المعسكر الإسلامى وقريباً من معسكر العدو ليكشف أى تحرك يقوم به المشركون فيحذر المسلمون منه .

قال الواقدي (وهو يصف تحركات الرسول ﷺ بجيشه نحو حنين) ثم قال رسول الله ﷺ : ألا فارس يحرسنا الليلة ؟ إذ أقبل أنيس بن أئى مرثد الغنوى على فرسه ، فقال أنا ذا يا رسول الله .

فقال ﷺ : انطلق حتى تقف على جبل كذا وكذا ، فلا تنزلن إلا مصلياً أو قاضى حاجة ، ولا تغرن من خلفك . قال : فبتنا حتى أضاء الفجر وحضرنا الصلاة ، فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال : أحسستم فارسكم الليلة ؟ قلنا : لا والله فأقيمت الصلاة ، فصلى بنا ، فلما سلم رأيت رسول الله ﷺ ينظر خلال الشجر ، فقال : ابشروا ، فقد جاء فارسكم .. وجاء (أى الفارس) وقال : يا رسول الله إني وقفت على الجبل كما أمرتني فلم أنزل عن فرسى إلا مصلياً أو قاضى حاجة حتى أصبحت ، فلم أحس أحداً . قال رسول الله ﷺ : انطلق فانزل عن فرسك ، وأقبل علينا . فقال : ما عليه ألا يعمل بما هذا عملاً ؟ .

كيف عبأ الرسول ﷺ جيشه ؟ .

وبعد أن حصل الرسول ﷺ على المعلومات التى يريدونها عن هوازن وقواتها العسكرية فى وادى حنين عمد إلى قواته فعبأها للقتال استعداداً للمعركة الوشيكّة الفاصلة التى نشبت عند فجر اليوم الثالث عشر من شهر شوال عام ثمان للهجرة ، فهزم المسلمون — عند الصدمة الأولى — هزيمة منكرة وكادت تكون ساحقة لولا أن ثبت الله رسوله ﷺ وقلة من خلصاء أصحابه هم هيئة أركان حربه فيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والعباس وسادة الأنصار ، فعاد المنهزمون إلى الميدان عندما علموا أن نبيهم ﷺ باق فى قلب المعركة وحملوا على جموع المشركين حملة رجل واحد فمزقوا صفوفهم شر ممزق ثم أنزلوا بهم الهزيمة المدمرة الساحقة . وكانت تبعيّة الرسول ﷺ لجيشه قبيل الفجر .

= حديث الفتنة ، وأنها ستكون فتنة عمياء صماء بكماء . الحديث — (أسد الغابة ج ١ ص ١٣٥ —

١٣٦) .

(م - ٦ * غزوة حنين)

كان الرسول القائد ﷺ قد عبأ جيشه لخوض معركة حنين على أساس قبلى ، وهو ما فعله عندما استعد لدخول مكة وتحريرها .

فقد عمد إلى جيشه الزاحف نحو حنين والبالغ اثنى عشر ألفاً فقسمه إلى أقسام ثلاثة :

القسم الأول : المهاجرون من أهل مكة وحلفائهم .

القسم الثانى : الأنصار .

القسم الثالث : مختلف القبائل بمن فيهم المهاجرون السابقون الأولون منهم .

أما القسم الأول وهم المهاجرون القرشيون وحلفاؤهم ، فقد قسمهم الرسول ﷺ إلى كتائب ثلاث أعطى قيادتها لثلاثة من كبار المهاجرين وكلهم من قريش .

وأما القسم الثانى وهم الأنصار (الذين يمثلون العمود الفقرى للجيش) فقد نظمهم فرقتين رئيسيتين وهما الأوس والخزرج اللتان إليهما ينتسب جميع الأنصار . وأعطى قيادة هاتين الفرقتين إلى سيدين من سادات الأوس والخزرج كل منهما يحمل لواء قبيلته الأعظم .

ثم قسم الرسول ﷺ رجال هاتين القبيلتين الرئيسيتين إلى فصائل على أساس قبلى أيضاً بحيث صارت كل فصيلة من الأوس والخزرج تشمل رجالها المنتسبين فى الجيش فصيلة منفردة لها قائدها الخاص وعلمها الخاص .

على أن يكون ارتباط قائد كل فصيلة من القبيلة بحامل اللواء الأعظم من الأنصار وهو سعد بن عباد أو أسيد بن حضير اللذان كل واحد منهما قائد عام لقبيلته الأم .. سعد بن عباد قائد عام لقبيلة الخزرج .. وأسيد بن حضير قائد عام لقبيلة الأوس .. على أن يكون مرجع الجميع الرسول الأعظم ﷺ كقائد أعلى للجيش .

أما بقية القبائل العربية فى الجيش من غير المهاجرين والأنصار ، فقد عبأها النبى ﷺ على أساس قبلى أيضاً ، فجعلهم فصائل .

وكانت هذه الفصائل (قلة وكثرة) حسب عدد رجال القبيلة . فبعض القبائل (لكثرتها) قُسمت إلى أربع فصائل وعين لكل فصيلة حامل راية قائد .

وبعضهم قسم إلى ثلاث فصائل ، وبعضهم قسم إلى فصيلتين . وبعضهم كانت القبيلة كلها (لقلة عدد رجالها) فصيلة واحدة .

الجدول بأسماء القادة في حنين :

وفيما يلي جدول يوضح أسماء القادة الكبار من حملة الألوية ، ثم جدول بأسماء حملة الرايات من قادة الفصائل من المهاجرين والأنصار وبقية القبائل العربية من أهل البادية :

أسماء حملة الألوية

الاسم	النسب
١ — علي بن أبي طالب	قرشي مهاجري
٢ — سعد بن عبادة	خزرجي أنصاري
٣ — أسيد بن حضير	أوسى أنصاري

أسماء حملة الرايات

الإسم	النسب
١ — سعد بن أبي وقاص	قرشي مهاجري
٢ — عمر بن الخطاب	قرشي مهاجري
٣ — أبو نائلة	أوسى أنصاري
٤ — أبو بردة بن نيار	أوسى أنصاري
٥ — أبو لبابة بن عبد المنذر	أوسى أنصاري
٦ — قتادة بن النعمان	أوسى أنصاري
٧ — جبر بن عتيك	أوسى أنصاري
٨ — أبو أسيد الساعدي	خزرجي أنصاري
٩ — عمارة بن حزم	خزرجي أنصاري
١٠ — أبو سليط	خزرجي أنصاري
١١ — سليط بن قيس ^(١)	خزرجي أنصاري

(١) مما تحذر الإشارة إليه أن الجيش الذي دخل مكة هو الجيش الذي اشترك في معركة حنين . وكان الرسول ﷺ قد عبأ جيشه في قديد على أساس قبلي ، فجعل قادة الكتائب من الأوس ستة وقادة =

هذه أسماء حملة الألوية والرايات من المهاجرين والأنصار .. أما بقية القبائل العربية من أهل البادية والذين يأتون في الدرجة الثانية من حيث كثرة عددهم في الجيش . فقد كان بينهم من حملة الرايات يوم حنين ثمانية عشر قائداً وهم كما يلي :

أسماء حملة الرايات من أهل البادية

القبيلة	الاسم
أسلم	١ — بريدة بن الحصيب
أسلم	٢ — جندب بن الأعجم
غفار	٣ — أبو ذر الغفاري
بنو ضمرة	٤ — أبو واقد الليثي
بنو كعب بن عمرو	٥ — بشر بن سفيان
بنو كعب بن عمرو	٦ — أبو شريح
مزينة	٧ — بلال بن الحارث
مزينة	٨ — النعمان بن مقرن
مزينة	٩ — عبد الله بن عمرو بن عوف
جهينة	١٠ — رافع بن مكيث
جهينة	١١ — عبد الله بن يزيد
جهينة	١٢ — معبد بن خالد أبو زرة
جهينة	١٣ — سويد بن صخر
أشجع	١٤ — نعيم بن مسعود
أشجع	١٥ — معقل بن سنان
بنو سليم	١٦ — العباس بن مرداس
بنو سليم	١٧ — خفاف بن ندبة

= الكتاب من الخزرج سنة . ويلاحظ هنا أن قادة الفصائل في معركة حنين هم أنفسهم قادة الكتاب في فتح مكة . إلا أن قادة الفصائل من الأوس في معركة حنين خمسة ، وقادة الخزرج أربعة فقط . (أنظر كتابنا فتح مكة ص ١٠٨ و ١٠٩ و ١١٠ و ١١١ و ١١٢ .)

١٨ — الحجاج بن علاط^(١) بنو سليم^(٢)

قال الواقدي : ولما كان من الليل عمد مالك بن عوف إلى أصحابه فعبأهم في وادي حنين — وهو واد أجوف ، ذو شعاب ومضائق — وفرق الناس وأوعز إلى الناس أن يحملوا على محمد وأصحابه حملة واحدة .

وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه وصقهم صفوفاً في السحر ، ووضع الألوية والرايات في أهلها . ثم ذكر الواقدي أسماء حملة الألوية والرايات من المهاجرين والأنصار وأهل البادية على النحو الذي فصلناه فيما مضى .

وقال الواقدي : وكانت رايات الأوس والخزرج في الجاهلية خضر وحمر ، فلما كان الإسلام أقروها على ما كانت عليه . وكانت رايات المهاجرين سود والألوية بيض .

الخيـل في مقدمة الجيش النبوي

ومع أن النبي ﷺ قد قسم جيشه ونظمه عند التعبئة على أساس قبلي فصار الجيش النبوي يتألف من تسع وعشرين فصيلة .. فصيلتان من المهاجرين . وتسع من الأنصار . وثمانى عشر من مختلف القبائل من أهل البادية . فقد أبقي تعبئة الخيل على ما كانت عليه عند دخوله مكة لتحريرها . فقد جعل الخيل (عند تحركه من مكة إلى حنين) في مقدمة الجيش ، ورغم أن الرسول ﷺ قد نظم جيشه ورثبه على أساس قبلي إلا أنه ﷺ جعل (وبصورة استثنائية) القائد الشهير خالد بن الوليد قائداً على ألف فارس ، كلهم من بني سليم يقودهم ثلاثة من ساداتهم .. هم العباس بن مرداس .. والحجاج بن علاط .. وخفاف بن نذبة .. فظل خالد قائداً عاماً للخيـل حتى انتهت معركة حنين وحصار الطائف . ولم يزل خالد على مقدمة الجيش حتى عاد النبي ﷺ من حنين والطائف إلى الجعرانة^(٣) .

(١) انظر تراجم القادة الذين جاء ذكرهم في هذه الجداول وكذلك تراجم القبائل في كتابنا الثامن (فتح مكة) ص ١٥٥ وما بعدها .

(٢) انظر مغازي الواقدي ج ٣ ص ٨٩٥ وما بعدها .

(٣) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٨٩٧ .

وجعل الخيل في مقدمة الجيش ، أسلوب يتبعه النبي ﷺ دائماً في حروبه عندما تكون لديه في الجيش خيل متوفرة ، لأن الخيل في ذلك العصر أقوى سلاح في أى جيش على الإطلاق ، وهو بمثابة سلاح المدرعات في هذا العصر .

كيف عباً قائد هوازن قواته في حنين

أما قائد هوازن وملكها فقد كان شاباً في عصفوان شبابه ، وهو مالك بن عوف النصرى الذى كان يقود عشرين ألفاً من هوازن يقابلهم (فقط) في الجانب الإسلامى إثنا عشر ألف مقاتل .

كان مالك رغم صغر سنه (وكما دل أسلوبه في تعبئة جيشه) محارباً ممتازاً من الدرجة الأولى ، وكان خبيراً عسكرياً ومحنكاً في رسم الخطط للمعارك ووضع الكمائن ، بالإضافة إلى الشجاعة المتناهية التى بلغت حد التهور .. وكان مع كل هذا يتمتع بسلطات مطلقة على جميع عشائر هوازن ، لأنه كان بمنزلة الملك بينهم توجهوا واعترفوا بسلطانه المطلق .

لقد كانت خطة مالك بن عوف التى رسمها للمعركة خطة محكمة دقيقة أكسبته الجولة الأولى في أول الصدام ، حيث أنزل بالمسلمين هزيمة منكرة ، مزقت كتائبهم ، وجعلت بعضهم يدوس بعضاً وهم يفرون من الشعاب عند طلوع الفجر في اتجاه مكة لا يلوون على شيء ، وكادت تكون النهاية المفجعة للجيش الإسلامى ، لولا أن ثبت الله الرسول القائد ﷺ ونفراً قليلاً من خلصاء أصحابه ، استبسلوا وثبتوا حول نبيهم وأهابوا بالمنهزمين أن يعودوا إلى ساحة الوغى ، فعادوا وجالدوا المشركين أعنف مجالدة وقتلواهم أشرس قتال بقيادة نبيهم ﷺ حتى دارت الدائرة على الكفار ونزلت بهم الهزيمة الساحقة . وكتب الله النصر المؤزر للمسلمين .

أما أسلوب القائد مالك بن عوف في تنظيم جيشه وتعبئته وإعداداته للمعركة فقد كان كما يلي :

١ - رفع الروح المعنوية بين جنده

فقد وقف مالك خطيباً في هوازن مشيداً بهم ولافتاً نظرهم إلى أن يثقوا

بأنفسهم لأنهم أكثر عدداً من المسلمين ، وأقدر (بزعمه) على الصبر والثبات منهم .

فمما قاله في خطابه لهوازن : إن محمداً لم يقاتل قط قبل هذه المرة ، وإنما كان يلقي قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فيُنصر عليهم .

٢ — حشد نساء هوازن وأطفالها وأموالها خلف الجيش

فقد أصدر مالك أوامره إلى جند هوازن بأن يجعلوا نساءهم وأطفالهم ومواشيهم وراء الصفوف قريباً من ميدان المعركة .

وهدف القائد مالك من هذا التصرف ، أن يستبسل المحارب الهوازني في القتال ، لأنه من الصعب على المحارب أن يفكر في الفرار ، فينجو بنفسه ويترك نساءه وولده وماله ليقعوا أسرى في أيدي أعدائه .

فكان مالك بذلك يقصد أن يدخل في نفوس المحاربين من جنده عنصراً جديداً من عناصر الثبات والصمود .

وكان دريد بن الصمة الجُشمي المحارب الشهير والشاعر المشهور ، قد انتقد خطة القائد مالك هذه أثناء التحرك إلى حنين أشد الانتقاد ، واعتبرها نوعاً من المغامرة ، بل ضرباً من الانتحار ، ونصح مالكا بأن يعيد النظر في خطته هذه بأن يعيد النساء والأطفال والمواشي إلى رؤوس الجبال ويلقي المسلمين على متون الخيل . ولكن مالكا أصرَّ فنفذ خطته وصحب معه النساء والأطفال والمواشي حتى انتهت المعركة حيث وقعوا جميعاً في قبضة الجيش الإسلامي .

٣ — جرد السيوف وكسر الجفون

وكانت العرب ترى أن كسر جفون السيوف أبلغ في توطين النفس على الموت ، وهو يعنى عندهم عدم التراجع بل القتال حتى النصر أو الموت ، وذلك هو الذى قصد إليه القائد مالك بن عوف حين خاطب جنود هوازن وهو ينظمهم : (واكسروا جفون سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف مكسور الجفن) .

٤ — وضع الكمائن

كان وادى حنين (كما وصفه المؤرخون) وادياً أجوف ذا منافذ مختلفة وشعاب عدة ، وكان مالك لديه كل المعلومات الجغرافية عن هذا الوادى ، ولهذا قرر أن يتبع خطة الكمائن لتكون ضربات هذه الكمائن أول ما يلاقيه المسلمون فى الحرب .

وفى الحروب القديمة ، بل وفى كل الحروب ، ليس أضر على الجيوش من تعرضها لضربات الكمائن المفاجئة .

كان مالك بن عوف هو السابق إلى وادى حنين فاختار المكان المناسب لضخامة جيشه فعسكر فيه . وفى الليلة التى كانت صبيحتها معركة حنين ، انتخب مالك بن عوف عدة مفارز من رجال هوازن الأشداء وذهب بهم فى ظلام الليل إلى الشعاب والمضائق التى سيمر أمامها جيش النبی ﷺ ، وهناك وَّزَّع مالك رجاله إلى عدة فصائل ، نظمها على شكل كمائن ، وبعد أن رتب هذه الكمائن ونظمها فى ظلام الليل (زيادة فى الكتمان) أصدر إلى قادتها الأوامر المشددة بأن يهاجموا المسلمين فى عماية الصبح وقبل أن ينشر الفجر ضوءه ليدخلوا بذلك الفوضى على صفوفهم ويشوا الذعر فى نفوسهم ويشتتوا شملهم ولايتركوا لهم فرصة يعيدون فيها تنظيمهم .

وهذا ما حدث بالفعل ، فكانت خطة الكمائن أنجح الخطط التى اتبعها مالك بن عوف فى حربه ضد المسلمين ، حيث نزلت بهم على أيدي الكمائن هزيمة منكرة كادت تكون ساحقة مدمرة لولا أن ثبَّت الله رسوله فثبت مكانه مع قلة من خلصاء أصحابه كان ثباتهم جميعاً سبباً فى إعادة تنظيم المنهزمين وعودتهم إلى قلب المعركة بعد أن فروا منها كما سترى فيما يلى من هذا البحث إن شاء الله .

٥ — البدء بالهجوم واتباع خطة المباغتة

كذلك كان ضمن خطة مالك بن عوف التى رسمها لمعركة حنين : البدء بالهجوم أى أن تكون هوازن آخذة بزمام المبادرة فتهاجم المسلمين قبل أن يهاجموها ، لأن النصر يكون (غالباً) كما صرح مالك بن عوف لمن يكون بادئاً بالهجوم .

ولذلك قال القائد مالك هوازن (وهو يضع لهم الخطة) : ثم تكون الحملة منكم ، واحملوا حملة رجل واحد واعلموا أن الغلبة لمن حمل أولاً .

وقد نفذت هوازن جميع الخطط التي وضعها للمعركة القائد العام مالك بن عوف وقد أتت هذه الخطط المحكمة ثمارها اليانعة في المرحلة الأولى من المعركة فانكسر المسلمون حتى وصلت طلائع المنهزمين منهم ضواحي مكة . وقال الذين أسلموا ولماً يدخل الإيمان في قلوبهم من عناصر الجيش الإسلامي : إنها هزيمة لن تنتهى حتى البحر .. غير أن ثبات الرسول ﷺ وقلة من خلصاء أصحابه من المهاجرين والأنصار ساعة الهزيمة أضاع على هوازن ثمرة انتصارها حيث تحول هذا الانتصار إلى هزيمة ساحقة بفضل الله تعالى ثم بفضل ثبات الرسول ﷺ والقلة من صفوة أصحابه ، هذا الثبات الذى لماعلمه المنهزمون المسلمون خجلوا من أنفسهم وكروا راجعين وقاتلوا هوازن أشد ما يكون القتال حتى هزموهم شر هزيمة .

التخويف والإرهاب بالتضليل

كذلك كان من خطط مالك بن عوف وأسلوبه في الاستعداد للصدام التخويف باتباع الحرب النفسية بإدخال الرهبة في نفوس المسلمين من قواته . وذلك بجعل جيشه يظهر أكبر من حجمه الطبيعي بكثير . بحيث تحيل لمن يراه من المسلمين على بعد وكأنه مائة ألف مقاتل . وهذا المظهر ولا شك يكون ذا أثر في النفوس . فقد عمد الداهية مالك بن عوف (بالإضافة إلى جيشه الحقيقي) عمد إلى عشرات الألوف من الجمال التي جلبها معه وجعلها وراء جيشه الحقيقي كالجيش الاحتياطي صفوفاً ، ثم أركب عليها النساء ، فبدا سواد جيشه وكأنه مائة ألف مقاتل .

وفعللاً ظن المسلمون أن الجمال التي تحمل النساء ، تحمل رجالاً محاربين . لاسيما وأن الجمال تأق في ذلك العصر (بعد الخيل) من أهم الأسلحة في الحرب حيث كان العرب يحاربون وهم عليها كما يحاربون وهم على الخيل .

صحابى يصف ضخامة جيش هوازن

ولترك أحد كبار الصحابة الكرام ممن اشتركوا في معركة حنين .. يصف

لنا هذه الخدعة الحربية التى لجأ إليها القائد الملك مالك بن عوف النصرى .
وهذا الصحابى الجليل هو أنس بن مالك ، فقد قال : لما انتهينا إلى وادى
حنين وهو واد من أودية تهامة ، له مضائق وشعاب ، فاستقبلنا من هوازن
شئ لا والله ما رأيت مثله فى ذلك الزمان قط من السواد والكثرة ، قد ساقوا
نساءهم وأموالهم وأبناءهم وذرائعهم ، ثم صُفوا صفواً فجعلوا النساء فوق الإبل
وراء صفوف الرجال ، ثم جاءوا بالإبل والبقر والغنم فجعلوها وراء ذلك لئلا
يفرّوا (بزعمهم) . فلما رأينا ذلك السواد حسبناه رجالاً كلهم ، فلما تحدثنا
فى الوادى ، فبينما نحن فى غلس الصبح ، إن شعرنا إلا بالكتائب قد خرجت
علينا من مضيق الوادى وشعبه فحملوا حملة واحدة ، فأنكشف أول الخيل —
خيل سليم — موليّة فولوا ، وتبعهم أهل مكة وتبعهم الناس منهزمين .

من هذا الوصف الذى رواه الصحابى أنس بن مالك عن خطة التضليل
والإيهام التى اتبعها ورسمها أثناء تعبته قائد هوازن الذى لم يتجاوز الثلاثين من
عمره .. من هذا الوصف يتضح أى خصم عنيد شجاع محنك ومدرّب ،
واجهه المسلمون فى موقعة حنين الحاسمة ، التى بمهارته وحسن تعبته لجيشه ،
كسبها مالك بن عوف فى الجولة الأولى وكاد يركب أكتاف المسلمين ويحتل مكة
لولا أن أمدّ الله رسوله وقلة من صفوة أصحابه فقلّبوا (بثباتهم بعد عون الله)
ميزان القوى لصالح الإسلام فرفعوا رصيد الجيش الإسلامى (الذى عاد إلى
الميدان) من الصفر إلى أعلى درجات النصر .

الفصل الرابع

- نشوب المعركة عند الفجر .
- البداية السيئة للمسلمين في القتال .
- هجوم كئان هوازن المفاجيء الصاعق على المسلمين .
- هزيمة المسلمين المروعة في بداية المعركة .
- ثبات الرسول ومائة فقط من أصحابه عند الهزيمة .
- المحاولة الثانية لاغتيال الرسول أثناء الهزيمة .
- الرسول يناشد المسلمين الثبات والعودة إلى الميدان .
- استجابة المنهزمين للرسول بعودتهم إلى الميدان .
- احتدام المعركة وعنفيها الشديد .
- دور المرأة المسلمة في معركة حنين .
- هزيمة هوازن الساحقة .
- فرار القائد العام لهوازن بعد استبساله .

نشوب المعركة وهزيمة المسلمين

وهكذا وبعد أن أكمل الفريقان المسلمون والمشركون في حنين تعبتهما دنت ساعة الصفر واستعد الفريقان للمعركة الحاسمة .

كانت تعبئة المسلمين للجيش عند السحر قريباً من الفجر ، وكان انحذارهم إلى وادي حنين عند غلس الفجر ، حيث يغلب الظلام على الضياء .

وتلك كانت فرصة ذهبية للكمائن الكثيرة التي وضعها قائد هوازن في الشعاب والمضايق ، فقد كان جل اعتماد القائد ابن عوف لكسب المعركة على نجاح الكمائن الكثيرة الخطيرة التي وضعها بدقة وإحكام أثناء الليل ودون علم استخبارات الجيش النبوي في مضائق الشعاب التي سيمر من أمامها الجيش النبوي قاصداً السهل الفسيح الذي تعسكر فيه هوازن بنسائها وأطفالها وأموالها من وراء جيشها .

وكان المسلمون يظنون (لعدم علمهم بكمائن هوازن) أن الصدمة الأولى في المعركة ستكون في سهل حنين حيث يعسكر سواد الجيش الهوازني بأثقاله وأمواله ونسائه وأطفاله . ولم يُدْخِلُوا في حسابهم أمر الكمائن التي وضعها لهم عند مداخل وادي حنين قائد هوازن ، وإلا لاستعدوا لها ولم يمكنوها من تحقيق شيء من أهدافها . ولكن أمر الله كان مقضياً ، فقد كتب أن تنجح كائن المشركين وتنزل الهزيمة بالمسلمين (الذين أعجبهم كثرتهم) عند الصدمة الأولى وقبل أن يُكْمَلُوا انحذارهم إلى الوادي ويصلوا إلى السهل الذي دارت فيه (فيما بعد) المعركة الحاسمة بعد تراجع المسلمين من هزيمتهم .

كائن المشركين تهزم المسلمين

لاشك أن الكمائن هي من أخطر الأخطار التي تتعرض لها الجيوش النظامية في القديم والحديث ، ولم كانت الكمائن سبباً في إلحاق الهزائم المدمرة بالجيوش التي تفوق الكمائن عدداً وعدة .

وهذا ما فطن له القائد المحنك مالك بن عوف النصري فأحكم تركيب الكمائن للمسلمين في الشعاب ومضائق التلال ووراء الهضاب في حنين ، فأنزل الهزيمة بالجيوش النبوية عند الصدمة الأولى فولّى الجيش هارباً دون أن يشرع أحد منه رجلاً أو مجرد سيفاً .

لا شك أن رجال الكمائن الذين وضعهم مالك بن عوف في أماكنهم بطريق الجيش النبوي هم أقل بكثير من عدد جيش الإسلام ، ولكن المباغلة لها (دائماً في الحروب) تأثيرها الصاعق الذي يشل فعالية الجيوش ويريكها مما يجعل الهزيمة تحقيق بها مهما كانت كثرتها ومهما كان تنظيمها وحسن تسليحها . وهذا هو الذي فعلته كائن هوازن (وهم مفارز صغيرة) بالجيش الإسلامي الكبير الذي يبلغ اثني عشر ألف مقاتل يتقدمهم ألف فارس يقودهم فارس من أمهر فرسان العرب وهو خالد بن الوليد .

وما كان خالد قائد المقدمة من الرجال الذين ينخذلون لكمائن أو غيرها ، ولكن يظهر أنه فقد السيطرة على فرسانه الذين أكثرهم من أهل البادية الذين هم حديثو عهد بالحرب النظامية التي اتبعها كل من الرسول ﷺ وخصمه مالك بن عوف ، فأفقدتهم الثبات هجمات الكمائن المباغلة التي شنت عليهم بأسلوب صاعق فانكفأوا هاربين نحو مكة وهم ألف فارس فجرفوا من ورائهم بقية الجيش بعد أن أدخلوا بفرارهم الرعب في النفوس ، فانفرط عقد الجيش النبوي وصار كل جندي فيه همه النجاة بنفسه في تلك اللحظات العvisية التي نجحت فيها كائن هوازن كل النجاح .

أسباب نجاح كائن هوازن

ويمكن تلخيص أسباب نجاح كائن مالك بن عوف عند الصدمة الأولى في

أمور ثلاثة :

أولاً : عدم علم قيادة الجيش الإسلامي بهذه الكمائن وأماكنها ولو علمت بها لأبطلت فعاليتها .

ثانياً : قيام الكمائن بهجومها على المسلمين والظلام لا يزال سائداً مع بزوغ الفجر حيث تعرض المسلمون لقصف شديد بالسهام ، وللهجوم الصاعق بمختلف الأسلحة من كل ناحية فلم يتبينوا من أين يأتيهم الهجوم ، فنفرت خيلهم من السهام ، ولا شيء يؤذى الخيل ويفزعها مثل السهام ، فانسحب أصحابها إلى الخلف وكانوا في المقدمة وهم ألف فارس ، فتحول انسحابهم إلى هزيمة كبرى .

ثالثاً : كانت مواقع الكمائن تشرف على منحدرات وعرة وضيقة وكثيرة التعاريج ، غير صالحة لجولان الخيل التي كانت في مقدمة الجيش والتي كان تراجعها سبباً في إنزال الهزيمة بالجيش النبوي عند فجر يوم الثالث عشر من شوال عام ٨ للهجرة .

كيف انهزم المسلمون بفعل الكمائن

يدل سياق المؤرخين على أن قائد هوازن مالك بن عوف قد كان دقيقاً في توقعاته وتوقيتته للهجوم الذي قرر أن تكون كائنه هي البادئة به ، وبحيث يكون هذا الهجوم أول هجوم تشنه قواته على الجيش النبوي .

فقد افترض هذا القائد وأدخل في حسابه (وهو يضع الخطة للمعركة) افترض — وضمن حسابات ومعادلات دقيقة —.. افترض وقدر (وكان افتراضه وتقديره في محلها) أن الجيش النبوي سيمر بالأماكن التي وضع فيها الكمائن ، عند عماية الصبح وقبل أن يغمر ضوء الصباح الأرض بنوره ، فيستفيد مالك من الظلام وهو يشن بكوائنه الهجوم المباغت الصاعق على الجيش الإسلامي ، وقد يكون توقعه وافتراضه هذان بناهما على معلومات نقلها إليه جواسيسه عن سير تحركات الجيش النبوي .

المهم : الأمور جاءت كما توقع القائد مالك . فعند بزوغ الفجر وقبل أن ينسخ ضياء الصبح ظلام الليل ، وجدت مقدمة الجيش الإسلامي نفسها (وكلها الخيل) بين كائنين هوازن ، فانقضت هذه الكمائن على مقدمة

المسلمين انقضاضة رجل واحد وقصفتها بسيل من السهام وهاجمتها بمختلف الأسلحة من مختلف الجهات ، ولم تكن كائن هوازن من المشاة فقط ، بل إن هناك كائن من الخيل أيضاً اشتركت وقت عماية الصبح في مهاجمة المسلمين حيث كانت هذه الكمائن الهوازنية ترابط في فجاج الشعاب والوديان الصغيرة الرافدة إلى حنين .

وعندما تعرضت مقدمة الجيش النبوى لذلك الهجوم المفاجئ الصاعق من الكمائن انهزمت كلها واتجهت هاربة نحو مكة دون أن تشهر سيفاً أو تشرع رمحاً أو تطلق سهماً .

وأحدث تراجع مقدمة جيش الإسلام وفرارها الفوضى الشاملة والارتباك الكامل داخل صفوف الجيش النبوى الذى فقد تنظيمه تماماً وصارت خيل المسلمين المنهزمة تحطم من أمامها وتدوسه من جند المسلمين ، وظن الكثير أنها الهزيمة التى لن تقوم للمسلمين بعدها قائمة ، وأخذت كتائب الجيش النبوى تتدفق وكأنها السيل الجارف — لا إلى المعركة للقتال — وإنما فراراً نحو مكة . وشرعت قوات هوازن في مطاردة المسلمين الذين لم يباشروا أى قتال بعد لأنهم فروا فور تعرضهم لهجوم الكمائن الصاعق .

كان موقفاً عصيباً وامتحاناً شديداً لم تتعرض القيادة الإسلامية العليا لمثله في تاريخ حروبها ضد الوثنية وحتى في يوم أحد . لأن المسلمين انهزموا ذلك اليوم بعد أن سجلوا نصراً رائعاً على المشركين في المرحلة الأولى من المعركة .

أما في يوم حنين فإن جيوش الإسلام تمزقت وولت الآلاف المؤلفة من المشاة والفرسان هاربة لا تلوى على شيء ، ولو استمر الوضع على ما كان عليه عند الصدمة الأولى لأبىد أكثر الجيش الإسلامى ولسقطت مكة نفسها في أيدي المشركين من هوازن الذين يبلغ تعداد قواتهم عشرين ألفاً كانوا قادرين على اجتياح مكة في أقل من ساعتين ، ولكن الله غالب على أمره فقد كان ثبات النبى ﷺ ومائة (فقط) من خلصاء أصحابه عاملاً حاسماً في تغيير مجرى تلك الأحداث الخطيرة لصالح الإسلام .

المرجفون في جيش الإسلام

كان في الجيش النبوي ألفان من أهل مكة ، الكثير منهم أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم ، وكان خروجهم مع الجيش النبوي لا للقتال في جانب الإسلام ضد الوثنية ، وإنما للحصول على حصتهم في الغنيمة عندما يتم النصر للمسلمين .

هذه العناصر من أهل مكة لما رأت انهزام المسلمين ورأت فرسان هوازن الوثنية تطاردهم ، ظهر ما كانت تبطن هذه وتفوهت بكلام يدل على فرحتها بهزيمة الجيش النبوي وتشفيها منه ..

فقد قال ابن إسحاق : ولما انهزم الناس تكلم رجال من جفاة الأعراب بما في أنفسهم من الضغن ، فقال أبو سفيان بن حرب (وهو حديث عهد بالإسلام لم يمر على إسلامه أكثر من عشرين يوماً) : لا تنتهى هزيمتهم حتى البحر^(١) .

وصرخ كلدة بن الحنبل (وهو مع أخيه لأمة صفوان بن أمية وصفوان مشرك في المدة التي جعل له رسول الله ﷺ وكان ضمن الجيش النبوي) ألا بطل السحر اليوم . فقال له صفوان بن أمية : اسكت فض الله فاك ، فوالله لئن يرئى^(٢) رجل من قريش أحب إلى من أن يرئى رجل من هوازن^(٣) .

وفي مغازي الواقدي أن كلدة بن حنبل قال لصفوان بن أمية — ساعة اندحار المسلمين —: أبشر أبا وهب ، هُزم محمد وأصحابه . فقال له صفوان (زاجراً) : إن رباً من قريش أحب إلَيَّ من ربِّ من هوازن إن كنت مربوباً .. قال هذا الكلام صفوان وهو لا يزال مشركاً . وقد أسلم وحسن إسلامه وكان عاقلاً شديد الإنصاف ، وقد استشهد في حروب الجهاد في الشام .

محاولة اغتيال الرسول ﷺ ساعة الهزيمة

وفي تلك اللحظات من ساعات المصير التي شرع المسلمون فيها في

(١) مما لا جدال ولا خلاف فيه بين أهل الحديث والسير أن أبا سفيان من حسن إسلامه وهو عدل صحابي ثقة عند جميع أئمة الحديث .

(٢) يرئى : معناه يحكمنى ، حيث أن العرب تطلق على الحاكم أحياناً اسم الرب .

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٢٧ .

الانكسار والتراجع ، تعرض الرسول ﷺ — وهو يواجه ذلك الموقف الصعب — لمحاولة اغتيال شريفة ، فقد اغتتم أحد المتورين من قريش فرصة انكشاف المسلمين فقرر اغتيال الرسول ﷺ انتقاماً لمقتل أبيه يوم أحد على أيدي المسلمين ، وكان أبوه حامل لواء المشركين يوم أحد .

وهذا الرجل الذي أضمر اغتيال الرسول ﷺ هو شيبه بن عثمان بن أبي طلحة العبدري حامل مفتاح الكعبة وكان ضمن من أسلم يوم الفتح ولما يدخل الإيمان في قلبه . ولكن الله تعالى منع رسوله ﷺ من تلك المؤامرة الشريرة وحماه منها .

فقد تحدث المخطط لهذه المؤامرة نفسه بعد أن حسن إسلامه فقال : قلت : اليوم أدرك ثأر أبي . اليوم أقتل محمداً . قال : فأردب رسول الله ﷺ لأقلته ، فأقبل شيء حتى تغشى فؤادي فلم أطق ذلك وعلمت أنه قد منع مني ^(١) .

حديث المؤرخين عن الهزيمة

أما هزيمة المسلمين عند الصدمة الأولى وقت الفجر فقد أجمع المؤرخون وأصحاب الحديث على أنها كانت هزيمة مخيفة لم يثبت عندها أحد من المسلمين إلا الرسول ﷺ ومائة فقط من هيئة أركان حربه وهم خلصاء أصحابه وكلهم من سادات المهاجرين والأنصار . وكان وصف المؤرخين والحديث للهزيمة مقتضباً ليس فيه كثير تفصيل . ونحن نذكر هنا ما جاء فيما بين أيدينا من أمهات التاريخ من وصف لهذه الهزيمة :

قال ابن إسحاق : حدثني غاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله قال :

لما استقبلنا وادى حنين انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف خَطوط ^(٢) ، إنما ننحدر فيه انحداراً . قال : وفي عماية الصبح ، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي ، فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضائقه ، وقد أجمعوا وتهاؤا وأعدوا

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٧٥ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ٨٧ .

(٢) خطوط : بفتح الحاء : منحدر

(م - ٧ * غزوة حنين)

فو الله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد ..
وانشمر^(١) الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد ، وانحاز رسول الله ﷺ
ذات اليمين ثم قال : أين الناس ؟ هلموا إليّ ، أنا رسول الله . قال : فلا
شيء ، حملت الإبل بعضها على بعض ، فانطلق الناس إلا أنه بقي مع رسول
الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته .

وعن يونس بن بكر ، قال : فخرج مالك بن عوف بمن معه إلى حنين
فسبق رسول الله ﷺ إليها فأعدوا وتهيأوا في مضائق الوادي وأحنائه . وأقبل
رسول الله ﷺ حتى انحط بهم الوادي في عماية الصبح ، فلما انحط الناس ثارت
في وجوههم الخيل فشددت عليهم وانكفأ الناس منهزمين لا يقبل أحد على
أحد ، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين يقول : (أين الناس ؟ هلموا إليّ أنا
رسول الله أنا محمد بن عبد الله) . قال : فلا شيء . وركبت الإبل بعضها
بعضاً^(٢) .

وقال ابن حزم يصف الهزيمة : ثم نهض (أى رسول الله ﷺ) ، فلما أتى
وادي حنين وهو واد حذور^(٣) من أودية تهامة ، وهوازن قد كمنت جنبتي
الوادي ، وذلك في عماية الصبح^(٤) فحملوا على المسلمين حملة رجل واحد
فولى المنهزمون لا يلوى أحد على أحد ، فناداهم رسول الله ﷺ فلم
يرجعوا^(٥) .

وقال الطبري في تاريخه — بعد سرد أسانيده عن جابر بن عبد الله عن
أبيه : لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف
حطوط ، إنما ننحدر فيه انحداراً ، قال : وفي عماية الصبح ، وكان القوم قد
سبقوا إلى الوادي ، فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضائقه ، قد أجمعوا وتهيأوا
وأعدوا — فو الله ما راعنا — ونحن منحطون — إلا الكتائب قد شدت علينا

(١) انشمروا : انهزموا

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٢٦

(٣) الحذور : المكان الذي ينحدر منه .

(٤) عماية الصبح : ظلامه قبل أن يتبين .

(٥) جوامع السيرة ص ٢٣٩

شدة رجل واحد ، وانهمز الناس فانشمروا لا يلوى أحد على أحد ، وانحاز رسول الله ذات اليمين ، ثم قال : أين الناس ؟ هلم إليّ أنا محمد بن عبد الله ، فلا شيء احتملت الإبل بعضها بعضاً ، فانطلق الناس^(١) .

وقال محمد بن سعد في طبقاته : وانحدر رسول الله ﷺ في وادي الحنين على بغلته البيضاء دلدل ، ولبس درعين والمغفر والبيضة ، فاستقبلهم من هوازن شيء لم يروا مثله قط من السواد والكثرة ، وذلك في غبش الصبح ، وخرجت الكتائب من مضيق الوادي وشعبه فحملوا حملة واحدة ، وانكشفت الخيل خيل بني سليم مولية وتبعهم أهل مكة وتبعهم الناس منهزمين ، فجعل رسول الله ﷺ يقول : يا أنصار الله وأنصار رسوله أنا عبد الله ورسوله^(٢) .

وقال محمود شيت خطاب (وهو من المؤرخين العسكريين الإسلاميين المعاصرين) : دخلت قوات المسلمين وادي حنين فجراً ، وكان وادياً أجوف منحدرًا ينحط فيه الركبان كلما أوغلوا ، كأنهم يسرون إلى هاوية ، فلما استقرت أكثر قوات المسلمين في الوادي ، رماهم المشركون ببوابل من سهامهم ، فلم يعرف المسلمون مصدر ذلك الرمي ، لأن الظلام كان سائداً وقتذاك ، ولأن مواضع المشركين كانت مخفية تماماً ، فانسحبت مقدمة المسلمين وجرفت أمامها المسلمين^(٣) الآخر ، فانقلب انسحاب المسلمين إلى هزيمة . ورأى أبو سفيان هزيمة المسلمين فقال : (لا تنتهي هزيمتهم دون البحر) . وقال آخرون ممن أسلموا حديثاً مثل قوله ، بل إن عثمان بن طلحة الذي قتل أبوه في غزوة أحد حاول اغتيال الرسول ﷺ في هذا الموقف العصيب ليدرك ثأر أبيه من محمد ، وترك المشركون مواضعهم للقيام بالمطاردة بعد انسحاب المسلمين ، وكان يتقدم هوازن رجل على جمل أحمر بيده راية سوداء في رأس رمح طويل ، وهو كلما أدرك المسلمين طعن برمحه ، وهوازن وثقيف منحدرين وراءه يطعنون . وانتشر الفزع بين المسلمين وازدحمت المسالك بالسابلة ، وارتبكت الصفوف واختلطت القبائل ببعضها ، وركبت الإبل بعضها بعضاً وهي مولية

(١) الطبري ج ٣ ص ٧٤

(٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٥٠

كانت مقدمة المسلمين ألف فارس ، وللخير العسكري أن يتصور كيف تصنع ألف حصان وهي فارة بمن أمامها من المشاة وراكبي الجمال .

بأصحابها وتعقدت الأمور^(١) .

وقال ابن الأثير : واستعمل رسول الله ﷺ على من بمكة عتاب بن أسيد^(٢) . قال جابر : فلما استقبلنا وادى حنين انحدروا في واد أجوف حطوط إنما ننحدر فيه انحداراً في عماية الصبح ، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادى فكمنا لنا في شعابه ومضايقه ، وقد أجمعوا وتهاؤا وأعدوا ، فو الله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شددت علينا شدة رجل واحد ، فانهزم الناس أجمعون لا يلقى أحد على أحد ، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين ، ثم قال : أيها الناس هلموا إلّى أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله ، قالها ثلاثاً ، ثم احتملت الإبل بعضها بعضاً^(٣) .

الكمان بمشورة دريد بن الصمة

ويذكر ابن برهان الدين أن الكمان التي نصبها الشاب القائد مالك بن عوف كانت بإشارة من المجرب المعمر دريد بن الصمة فقد قال : فلما كان النبي ﷺ بحنين وانحدروا في الوادى عند غبش الصبح خرج عليهم القوم وكانوا قد كمنوا لهم في شعاب الوادى ومضايقه ، وذلك بإشارة دريد بن الصمة ، فإنه قال للمالك : اجعل لك كميناً يكون لك عوناً ، إن حمل القوم عليك جاءهم الكمين من خلفهم وكررت أنت بمن معك ، وإن كانت الحملة لك لم يفلت من القوم أحد ، فحملوا عليهم حملة رجل واحد ، فاستقبلوهم بالنبل كأنهم جراد منتشر ، لا يكاد يسقط لهم سهم^(٤) .

ثبات الرسول القائد ساعة الهزيمة

هكذا كانت هزيمة المسلمين عند الصدمة الأولى في حنين ، هزيمة منكرة ، ركب المسلمون فيها بعضهم بعضاً وهم يفرون من ساحة القتال لا يلبون على شيء ، وقد كانت هزيمة عامة شاملة شملت جميع قطاعات الجيش البالغ اثني

(١) الرسول القائد ص ٢٤٩

(٢) انظر ترجمة عتاب بن أسيد فيما مضى من هذا الكتاب .

(٣) الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٧٨

(٤) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٣

عشر ألفاً .. والمنهزم — (كما قال دريد بن الصمة للملك بن عوف) لا يرد
شئ .

وللخبير الحرثي أن يتصور اثني عشر ألف مقاتل بينهم أكثر من ألفين وأربعمائة فارس وعدة آلاف من الجمال ينطلقون من الميدان راجعين فارين على غير تعبئة ولا نظام ، إنها الفوضى الخيفة المريعة ، الناس يدوس بعضهم بعضاً وهم قوة هائلة انفرط عقدها وضاع نظامها ، قوة هائلة منهزمة ، خيلها وجمالها ومشاتها انهزمت جميعها ما عدا الرسول القائد ﷺ وقلة من أصحابه لا يزيدون على المائة في أكبر تقدير . وهذه القوات المنهزمة من ورائها عشرون ألفاً من هوازن يطاردونها بأقصى قوة .

الرسول يحاول إيقاف المنهزمين

وقد حاول الرسول القائد ﷺ إيقاف المنهزمين ، وهو ثابت في الميدان ، فناداهم بأن يثبتوا ويلتفوا حوله فلم يلتفت إليه أحد ولم يجبه أحد ، بل يمكن أنه لم يسمع صوته أحد في تلك الساعات الرهيبة التي اختلط فيها الحابل بالنابل ، حيث أصبح هم كل واحد من الجند النجاة بنفسه ، ولا يستبعد أن أكثر المنهزمين قد ظنوا أن الرسول ﷺ قد قُتل أو انهزم ، بدليل أنهم لما أفاقوا من صدمة الهزيمة وسمعوا صوت العباس بن عبد المطلب يُشعرهم بأن الرسول ﷺ حي ثابت مكانه يناشدهم الرجوع إلى ميدان الشرف تنادوا وأخبر بعضهم بعضاً ورجعوا إلى الميدان من جديد .

أما الرسول القائد ﷺ فقد ثبت عند الهزيمة ، وجرّد سيفه ورمى غمده وأخذ حربته ليواجه الأعداء ثابتاً وحوله تلك القلة القليلة من صفوة أصحابه . وقد قاتل الرسول ﷺ المشركين في تلك الساعات الحرجة ببسالة وشجاعة وثبات تليق بمقامه كنبى مرسل وقائد أعلى مسئول ، وواجه جموع هوازن الهائلة تسانده تلك القلة الصابرة من أصحابه وهم مائة فقط . بينما تبلغ جيوش هوازن المتدفقة في الميدان عشرين ألفاً .

وليس يوم حنين هو اليوم العصيب الوحيد الذي يثبت فيه الرسول ﷺ عندما يفرع الناس أو يتعرضون لهزيمة . فقد كان الثبات عند الرّوع وتحجّر

الأمور سجية أساسية وخلقاً مكيناً من أخلاق سيد القادات والشجعان محمد ﷺ .

ففى يوم أحد عندما انكشف المسلمون نتيجة غلطة الرماة واقتحام خيل خالد بن الوليد مؤخرة المسلمين ، ثبت الرسول ﷺ مكانه بمنتهى الشجاعة والثبات ، حتى أن ثباته فى تلك الساعة الحرجة ، كان العامل الرئيسى فى تراجع المسلمين عن الهزيمة وتكتلهم وإعادة تنظيم قواتهم من جديد وعلى نحو أعاد لهم هيبتهم وسيطرتهم على مكان المعركة رغم الخسائر الفادحة التى نزلت بهم والتى بلغت عشرة فى المائة من قواتهم يومئذ^(١) .

وفى أيام الخندق عندما تخرجت الأمور ونقضت يهود قريظة العهد وتعرض المسلمون لأشد الأخطار حتى بلغت القلوب الحناجر ، كما جاء فى القرآن الكريم ، كان الرسول ﷺ يمثل أعلى مستويات الصبر والشجاعة والثبات ، فقد كان بشجاعته وإيمانه يشيع الطمأنينة فى النفوس القلقة التى بلغ بها الخوف من جيوش الأحزاب الهائلة حد الاختناق ، بل كان الرسول ﷺ يقوم بنفسه بأعمال الحراسة . وأين ؟ أمام أخطر النقاط التى يمكن أن تكون دون غيرها عرضة لاقتحام خيالة الأحزاب ، وذلك على مشارف الخندق فى ليل شتائية شديدة البرودة مع العواصف المزعجة ، وذلك فى وقت تخرجت فيه حالة المسلمين وتناقص عدد قواتهم من ألف مقاتل إلى ما لا يزيد على ثلثائة بعد تسلل المنافقين وضعاف النفوس من صفوف الجيش النبوى خوفاً من قوة الأحزاب التى بلغت عشرة آلاف مقاتل^(٢) .

وهكذا كان الرسول ﷺ (دائماً) ملاذاً أصحابه ، وتصرفه فى ميادين الثبات والصبر عندما تشتد خطوب الحرب — عاملاً رئيسياً فى استبسالهم وتقوية روحهم المعنوية وسد المنافذ التى يمكن أن يتسرب منها إلى نفوسهم الخور والتخاذل ساعة الروع وساعة تقاطر البلايا والحن الحربية عليهم .

الامتحان العظيم

حقاً لقد كانت الهزيمة للمسلمين (عند الصدمة الأولى) امتحاناً عظيماً

(١) انظر تفاصيل ثبات الرسول ﷺ يوم أحد فى كتابنا الثالث (غزوة أحد) .

(٢) انظر تفاصيل محنة المسلمين الكبرى أيام الخندق فى كتابنا الثالث (غزوة الأحزاب) .

ما في ذلك شك ، وقد صمد الرسول الأعظم ﷺ والقائد الأكبر لهذا الامتحان ، فثبت مكانه كقطب يمكن أصحابه المنهزمين من العودة ليكونوا حوله إذا ما علموا أنه حي باق في موقعه ، وما كان لمن هو في منزلة محمد بن عبد الله الهاشمي أن يفرّ مهما كانت الظروف ومهما كانت النتائج والاحتمالات في تلك الساعات الرهيبة التي لم تمر بجيش للإسلام . يقوده النبي ﷺ تجربة مريّة مثل تلك التجربة .. إنه نبي مرسل واثق من نصر الله له ومن يثق بالله لا يمكنّ عدوه منه ، ثم إن محمد بن عبد الله سيد السادات وقائد القادات ، قائد أعلى لجيش هو مسئول عنه ، ولا بد من أن يعالج الوضع الذي صار إليه الجيش الإسلامي (رغم هزيمته) لا يزال سليماً ولم تنزل به أية خسارة في الأرواح تذكر .

إذن لابد من إعادته إلى الميدان ، إن الذين فوجئوا بهجوم هوازن المباغت الصاعق ليسوا من الجبناء ، إن من بينهم من رفعوا الرأس وجعلوا الإسلام يدخل التاريخ من أوسع أبوابه يوم بدر فصمدوا في ذلك اليوم لقوات الشرك وانتصروا عليها وهي تفوقهم في العدد ثلاثة أضعاف ، وتتفوق عليها في العتاد والتموين وكل شيء مادي تفوقاً ساحقاً . أما في حنين فقوات هوازن عشرون ألفاً والمسلمون اثنا عشر ألف ، إنه ليس هناك تفوق ساحق لهوازن على المسلمين في العدد ، إذن فهزيمة المسلمين المفاجئة يوم حنين عند الصدمة الأولى لها أسباب ليس من بينها الجنّ أو الخور ، إنه (على ما يفسر الخبراء العسكريون) عامل المفاجأة المذهل ، ووجود عناصر قبلية بدائية حديثة العهد بالإسلام لا تزال تتحكم فيها الفوضى ، كما أنه كانت هناك عناصر داخل الجيش الإسلامي أظهرت إسلامها ﴿ ولما يدخل الإيمان في قلوبها ﴾ ، هذه العناصر كان لها دور في صنع الهزيمة بما تحتزنه نفوسها من بقايا جاهلية جعلتها تتصرف تصرف من يقصد أن تكون الهزيمة للجيش النبوي ، ويكون النصر لجيش هوازن ، بدليل أن أول المنهزمين في الجيش النبوي عند الصدمة الأولى هم من هذه العناصر كما أكد ذلك وكرّره كبار المؤرخين الذين كتبوا وقائع معركة حنين .

والخلاصة أن الهزيمة عند الصدمة الأولى كانت هزة وامتحاناً اضطربت فيه وحدات الجيش النبوي ثم انهزمت ، فثبت القائد الأعلى النبي ﷺ فكان ثباته

والمائة من أصحابه عاملاً أساسياً في معالجة الوضع وتحسينه ثم تعديله وترجيح كفة الجيش الإسلامي المنهزم ، وجعله يتخذ موقف الهجوم الصاعق بعد أن كان في موقف المنهزم الهارب ، وذلك بعد أن ثبت الله المؤمنين فعادوا إلى الميدان بعد أن علموا أن نبيهم وقائدهم الأعلى لا يزال ثابتاً في موقفه في الميدان يضرب وجوه هوازن بالسيف ويطعن في صدورهم بالرمح .

صيحة العباس تعيد المنهزمين

كان العباس بن عبد المطلب من القلة (المائة) الصابرة التي ثبتت مع الرسول ﷺ عندما انهزم المسلمون يوم حنين ، وحين رأى الرسول ﷺ الجيش الإسلامي منهزماً لا يلوى على شيء عمد إلى معالجة الوضع المتدهور (وكان على ثقة بأن أصحابه وخاصة الأنصار والمهاجرين) إذا علموا بمكانه وأنه ثابت يقاتل المشركين لم ينهزم سيعودون حتماً إلى ساحة الميدان ويعودتهم سيتغير ميزان القوى لصالح الإسلام والمسلمين وإن النصر سيكون حليف جيش التوحيد ، فالنبي ليس لديه أدنى ريب في أن الله ناصره .

لذلك طلب من عمه العباس (وكان صبيّاً يسمع صوته لعدة أميال) طلب منه أن يناشد الجيش العودة إلى ميدان الشرف والجهاد ، وكلفه بأن يصرخ باسم الأنصار وأصحاب شجرة الرضوان خاصة لأنهم العمود الفقري للجيش في كل معركة يخوضها المسلمون في العهد النبوي (وعلى الخصوص الأنصار) الذين يكونون الأكثرية دائماً في أى قتال يدور بين الإسلام وأعدائه .

فعل العباس ما أمره النبي ﷺ ونادى باسم الأنصار خاصة وباسم أصحاب السَّمرة (الشجرة التي بايع المسلمون النبي ﷺ تحتها يوم الحديبية قبل فتح مكة) .

ولم يكذب المسلمون المنهزمون يسمعون المناشدة النبوية ، عبر صوت العباس ابن عبد المطلب حتى أفاقوا من صدمة المفاجأة ، وخاصة بعد أن أيقنوا أن نبيهم ﷺ ثابت مكانه يقاتل المشركين ، فعادوا جميعاً إلى ميدان المعركة ، فتجمعوا حول النبي ﷺ وبسرعة هائلة ، فأخذ الوضع في التحسن لصالح الجيش النبوي ، وصارت هوازن تتلقى ضربات المسلمين ، بعد أن كانت قد

ركبت أكتافهم وظن قادتها أن هزيمة المسلمين ساحقة وأن مكة أصبحت في حكم المنتهى أمرها سقوطاً في قبضة هوازن .

احتدام القتال من جديد

وبعد استجابة الصحابة المنهزمين لنداء الرسول الحبيب ﷺ عبر صوت عمه العباس ، احتدم القتال بين المسلمين وهوازن كأعنف ما يكون ، فدارت المعركة رهيبة ، وتحول موقف هوازن في لحظات من الهجوم إلى الدفاع ، وقاتل المسلمون المشركين بحنق وغيظ فصبروا صبراً عظيماً حتى كتب الله لهم النصر المؤزر ، وانهزمت هوازن هزيمة مدمرة لم يهزم مثلها أحد من العرب عبر التاريخ . تحطم كبرياء هوازن الذي هزها بسبب نصرها المفاجيء المؤقت عند الصدمة الأولى ، ونزل بها الذل والهوان ، والهزيمة التي ما كان أحد من قاداتها يتصور أنها ستحدث . أو حتى سيتمكن المسلمون من عدم مواصلة الانهزام حتى مكة . أو حتى البحر ، كما قال أحد الذين أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم .

كل ذلك حدث بفضل الله تعالى ثم بفضل ثبات النبي القائد بأبى وأمى هو صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، والذي كان ثباته مكانه ومهاجمته المشركين ساعة انهزام المسلمين (رغم أنه لم يثبت معه سوى مائة من أصحابه) سبباً في رفع رصيد المسلمين بالمعركة في حساب النصر من الضفر حتى أعلى رقم في حسابات الفوز والغلبة .

فقد خجل المنهزمون المسلمون حين علموا أن نبيهم ثابت مكانه يصارع أمواج الجيش الهوازي وهم يفرّون منهزمين ، خجلوا حين سمعوا المناشدة النبوية بدعوتهم إلى العودة إلى ساحة القتال حول نبيهم ، فرجعوا وانقضوا على العدو بحنق وغيظ (وكأنهم الرياح العاتية تكتسح كل شيء يعترضها ، حتى أن أجدهم (كى يكون أسبق العائدين إلى ميدان القتال) يرمى خطاب جملة ثم يقفز من على ظهره حاملاً سيفه ورمحه وهو يجري بأقصى سرعة إلى حيث يقف الرسول الأعظم ﷺ لمجالدته المشركين .

وكما كان المسلمون في هزيمتهم عند الصدمة الأولى يدوس بعضهم بعضاً صاروا أشد من ذلك في الازدحام حينما عادوا إلى ميدان الشرف ونقضوا غبار

الهزيمة عن وجوههم ، حتى كادت رماحهم تصيب رسول الله ﷺ من شدة
الازدحام حوله لمقاتلة المشركين .

وصف الواقدي للمعركة

ولعله من المستحسن أن نستمع إلى إمام المغازي محمد بن عمر الواقدي ،
وهو يصف لنا تلك الساعات الدقيقة الحرجة المحرجة المخجلة التي انهزم فيها
المسلمون ، واللحظات الرائعة المشرفة التي عادوا فيها وغسلوا عار الهزيمة
المفاجئة بدمائهم الشريفة الطاهرة ، فسجلوا أعظم نصر سجله الإسلام على
الوثنية في العهد النبوي .

قال الواقدي : قال أنس بن مالك : فلما تحدثنا في الوادي وادي حنين ،
فبينما نحن في غلس الصبح ، إن شعرنا إلا بالكتائب قد خرجت علينا من
مضيق الوادي وشعبه ، فحملوا حملة واحدة فانكشف أول الخيل — خيل
سليم — مولية ، فولوا ، وتبعهم أهل مكة وتبعهم الناس منهزمين ، ما يلوون
على شيء ، قال أنس فسمعت رسول الله ﷺ — والتفت عن يمينه
ويساره — والناس منهزمون وهو يقول : يا أنصار الله وأنصار رسوله ، أنا
عبد الله ورسوله صابر . قال ثم تقدم ﷺ بحريته أمام الناس . وعن العباس
ابن عبد المطلب : لما كان يوم حنين التقى المسلمون والمشركون ، فولى
المسلمون يومئذ ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا أبو سفيان بن
الحارث بن عبد المطلب ، أخذ بثغر بغلة رسول الله ﷺ والنبي ﷺ
لا يألو مسرعاً نحو المشركين .

قال العباس : كنت رجلاً صبيئاً . فقال رسول الله ﷺ حين رأى من
الناس ما رأى لا يلوون على شيء قال : يا عباس اصرخ : يا معشر الأنصار
يا أصحاب السمرة ، فناديت : يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة ،
فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنت إلى أولادها يقولون : يا لبيك يا لبيك ، فيذهب
الرجل منهم فيثنى بعيوه ، فلا يقدر على ذلك ، فيأخذ درعه فيقدمها في
عنقه ، ويأخذ ترسه وسيفه ، ثم يقتحم عن بعيوه فيخلى سبيله في الناس ،
ويوم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ حتى إذا ثاب إلينا الناس
اجتمعوا ، فكانت الدعوة أولاً ، يا للأنصار ، ثم قصرت الدعوة فنادوا

يا للخزرج ، قال : وكانوا صُبْرًا عند اللقاء صُدُقًا عند الحرب قال : فأشرف رسول الله ﷺ — كالمُتَطاول في ركابه — فنظر إلى قتالهم فقال : الآن حمى الوطيس^(١) ، ثم أخذ ﷺ بيده من الحصى فرماهم ، ثم قال : انهزموا ورب الكعبة ، قال أنس : فوالله ما زلت أرى أمرهم مدبر وحدهم كليلاً حتى هزمهم الله ، وكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يركض خلفهم بغلته . اهـ .

ووصف شاهد عيان (يوم حنين) عودة الأنصار المنهزمين إلى رسول الله ﷺ فقال : لقد عطف الأنصار نحو رسول الله ﷺ ، (وهم يقولون الكثرة بعد الفرة) فعطفوا عطفة البقر على أولادها قد شرعوا الرماح حتى إنى لأخاف على رسول الله ﷺ من رماحهم أشد من خوفاي رماح المشركين يؤمّون الصفوف ويقولون : يا لبيك يا لبيك فلما اختلطوا ، واجتلدوا^(٢) ورسول الله ﷺ قائم على بغلته في ركابه يقول : اللهم إني أسألك وعدك ، لا ينبغي لهم أن يظهروا . ثم قال للعباس ناوطني حصيات من الأرض ، ثم قال : شأهت الوجوه ، ورمى بها المشركين وقال : انهزموا ورب الكعبة^(٣) . وقد أجاب الله تعالى دعاء رسوله ﷺ فانقلب ميزان القوى في المعركة لصالح المسلمين حتى هزموا المشركين شر هزيمة .

الذين ثبتوا مع الرسول ساعة الهزيمة

وقال أنس يصف ثبات الرسول ﷺ وأصحابه النخبة : فسمعت رسول الله ﷺ والتفت عن يمينه ويساره والناس منهزمون ، وهو يقول يا أنصار الله وأنصار رسوله ، أنا عبد الله ورسوله صابر . قال ثم تقدم بحرته أمام الناس ، فوالذي بعثه بالحق ، ما ضربنا بسيف ولا طعننا برمح حتى هزمهم الله ، ثم رجع النبي ﷺ إلى العسكر وأمر بقتل من قدر عليه منهم ، وجعلت هوازن تولى وثاب من انهزم من المسلمين .

(١) قال : الرسول ﷺ : الآن حمى الوطيس تعبيراً عن ضراوة القتال وحدته وهي من الكلم الذي لم يعبر به أحد من العرب قبل الرسول ﷺ ثم صار هذا التعبير الموجز يعبر به دائماً عن المعارك الدائرة العنيفة المحتدمة .

(٢) اجتلد أى ضرب بالسيف

(٣) الواقدي ج ٣ ص ٨٩٨ و ٨٩٩

وقد جاء في كتب التاريخ ذكر أسماء رجال ثبتوا مع رسول الله ﷺ من بينهم أبو بكر وعمر ، والعباس بن عبد المطلب ، وعلى بن أبي طالب والفضل ابن العباس^(١) وأبو سفيان بن الحارث ، وربيعة بن الحارث ، وأمين بن عبيد الخزرجي^(٢) ، وأسامة بن زيد وحارثة بن النعمان^(٣) . فعن عاصم بن عمرو ابن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله عن أبيه . قال : لما انكشف الناس والله ما رجعت راجعة هزيمتهم حتى وجدوا الأسرى عند النبي ﷺ مكتفين . قال . والتفت رسول الله ﷺ يومئذ إلى أبي سفيان بن الحارث وهو مقنع في الحديد ، وكان ممن صبر يومئذ ، وهو أخذ بشعر بغلة النبي ﷺ قال : من هذا ؟ قال : ابن أملك يا رسول الله . ويقال إنه قال : من أنت قال : أخوك فذاك أبي وأمي — أبو سفيان بن الحارث . فقال رسول الله ﷺ نعم أخي — ناولني حصي من الأرض ، فناولته فرمى بها في أعينهم كلهم وانهزموا^(٤) .

وقال الواقدي : قالوا : فلما انكشف الناس انحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين وهو واقف على دابته لم ينزل إلا أنه قد جرد سيفه وطرح غمده . وبقي

(١) هو الفضل بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وهو ابن عم رسول الله ﷺ يكنى أبو عبد الله ، شهد مع النبي ﷺ فتح مكة ، وثبت معه يوم حنين ، كما شهد معه ﷺ حجة الوداع ، وكان رديفه ، وكان من أجمل الناس : كان من رواية الحديث عن رسول الله ﷺ ، شهد الفضل غسل رسول الله ﷺ ، وكان يصب الماء على علي بن أبي طالب ، استشهد في الشام يوم مرج الصفر ، وقيل بأجنادين ، وبعضهم يقول : أنه مات في طاعون عمواس عام ١٨ هجرية .

(٢) أو أمين بن عبيد بن عمر بن بلال من بني غنم بن عوف بن الخزرج ، وهو ابن أم أيمن حاضنة الرسول ﷺ ، وهو أخو أسامة بن زيد لأمه ، روى عنه مجاهد وعطاء . قاله في أسد الغابة ، استشهد أمين يوم حنين . قاله ابن إسحاق .

(٣) هو حارثة بن النعمان بن نفع بن زيد ، خزرجي من بني النجار . شهد بدرًا وأحدًا والخندق وكل المشاهد ، كان من فضلاء الصحابة والموثوقين لدى رسول الله ﷺ ، ثبت يوم حنين مع الرسول ﷺ ، وهو الذي سلم عليه جبريل ، فقد روى أن النبي ﷺ ، لما جاءه جبريل يوماً ، مر عليه حارثة هذا ، فقال : حارثة : فسلمت على رسول الله ﷺ وحزبت ، فلما رجعت وانصرف رسول الله ﷺ قال : هل رأيت الذي كان معي ؟ قلت : نعم ، قال جبريل وقد رد عليك السلام . قال ابن حجر في الإصابة (نقلاً عن البخاري) إن حارثة قال لعثمان بن عفان : إن شئت قاتلنا دونك ، أدرك حارثة خلافة معاوية ومات فيها بعد أن ذهب بصره .

(٤) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٠٠

رسول الله ﷺ في نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته (العباس وعلى والفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث وربيعة بن الحارث وأمين بن عبيد الخزرجي وأسامة بن زيد ، وأبو بكر وعمر عليهم السلام^(١) .)

شأن المائة الصابرة مع الرسول

وذكر بعض المؤرخين (بشأن المائة الصابرة مع الرسول ﷺ أنه عليه السلام لما انكشف الناس وانهزموا ، عند الصدمة الأولى . قال لحارثة بن النعمان : كم ترى الذين ثبتوا ؟ فقال حارثة : فلما التفت ورأى تحرجاً^(٢) فنظرت عن يميني وشمالى فحزرتهم مائة ، فقلت : يا رسول الله هم مائة .. حتى كان يوم مررت على النبي ﷺ وهو يناجي جبريل عليه السلام عند باب المسجد ، فقال جبريل : من هذا يا محمد ؟ فقال عليه السلام : حارثة بن النعمان . فقال جبريل : هذا أحد المائة الصابرة يوم حنين ، لو سلم لرددت عليه . فأخبره النبي ﷺ فقال حارثة : ما أظنه (يعني جبريل) إلا دحية الكلبي^(٣) واقف معك .

وعن معمر بن راشد عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن جبريل قال : إن الله تكفل لهم (أي الذين صبروا مع الرسول) بأرزاقهم وأرزاق عيالهم في الجنة ، وكان العباس يقول : وكان أبو سفيان بن الحارث من الذين تكفل الله بأرزاقهم وأرزاق عيالهم في الجنة^(٤) .

وفي ثبات النبي ﷺ ساعة الهزيمة روى عن البراء بن عازب (وكان من الذين ثبتوا)^(٥) أنه كان يقول : والله الذي لا إله إلا هو ، ما ولي رسول الله ﷺ ولكنه وقف واستنصر ، ثم نزل وهو يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب
فأنزل الله عليه نصره وكنت عدوه وأفلح حجته^(٦) .

(١) مغازي الزايفي ج ٣ ص ٩٠٠

(٢) قال ابن الاثير في النهاية في غريب الحديث : (تحرج فلان إذا فعل فعلاً يخرج به من الحرج : الإثم والضيق) .

(٣) انظر ترجمة دحية الكلبي في كتابنا الرابع (غزوة بنى قريظة)

(٤) الواقدي ج ٣ ص ٩٠٢ .

(٥) انظر ترجمة البراء بن عازب في كتابنا (غزوة أحد) .

(٦) المغازي ج ٣ ص ٩٠٢

دعاء النبي يوم حنين

وكان دعاء النبي ﷺ حين انهزم جيشه وثبت هو : (والمائة الصابرة من الصفوة من المهاجرين والأنصار) : (اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان) . قال جبريل لقد لقنت (بفتح اللام وكسر القاف) الكلمات التي لقن الله موسى يوم فلق البحر أمامه وفرعون خلفه .

وكما ذكرنا دائماً كان الأنصار دائماً العمود الفقري للقوات النبوية المسلحة طيلة حياة الرسول ﷺ ولهذا فقد كان من المائة الصابرة الثابتة مع النبي ﷺ ساعة الهزيمة يوم حنين سبعة وستون من الأنصار وثلاثة وثلاثون من المهاجرين^(١) .

اشتداد القتال بين الفريقين

وبعد أن تراجع المنهزمون المسلمون إلى ساحة الوغى احتدم القتال وقاتلت هوازن بشراسة وضراوة منقطعة النظير ، ولكنها بعد عودة العسكر الإسلامي المنهزم كله ، تحولت من مركز الهجوم إلى مركز الدفاع ، فقد شن المسلمون (بقيادة نبيهم) على هوازن هجوماً مضاداً كاسحاً ، حاولت هوازن وأحلافها الثبات أمامه ولكن دون جدوى .

فقد اكتسحهم المسلمون بحنق وغيظ ، وفتكوا بهم وجرفوهم أمامهم كما تجرف العاصفة الورق اليابس ، فأثخنوا فيهم ، حتى بلغ الحنق ببعض المسلمين إلى أن امتدت أيديهم إلى ذرية المشركين لقتلهم ، فأوقفهم النبي ﷺ عن ذلك بنفسه ، لأن شريعة الإسلام لا تبيح قتل الذرية مهما كانت المبررات والأسباب .

فقد حدث محمد بن أبي صعصعة قال : لما نادى العباس مهيباً بالمسلمين أن يعودوا عن الهزيمة ، صاح سعد بن عبادة سيد الخزرج يا للخزرج يا للخزرج ، وصاح سيد الأوس أسيد بن حضير : يا للأوس يا للأوس ، فتابوا والله من كل ناحية كأنهم النحل تأوى إلى يعسوبها ، قال فحنق المسلمون على المشركين فقتلوه حتى أسرع المسلمون في قتل الذرية ، فبلغ

(١) مغازی الواقدي ج ٣ ص ٩٠١

ذلك رسول الله ﷺ فقال : ما بال أقوام ذهب بهم القتل حتى بلغ الذرية ، ألا لا تقتل الذرية ، نادى بها ثلاثاً ، فقال أسيد بن حضير : يا رسول الله إنما هم أولاد المشركين .

فقال الرسول ﷺ مجيباً أسيداً : أو ليس خياركم أولاد المشركين ؟ كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها ، فأبواها يهودانها أو ينصرانها^(١) .

وبما لا خلاف فيه أن هوازن بعد تراجع المسلمين إلى الميدان قد قاتلت قتالاً ضارياً وكان فيهم رجال قد أكثروا القتل في المسلمين بشراسة ولا أدل على ذلك من هذه القصة التي رواها المؤرخون عن أن رجلاً من هوازن على جمل له يهر المسلمين بسيفه حتى أكثر القتل فيهم إلى أن تعاون عليه على بن أبي طالب وأبو دجانة فقتلاه . ورجل يتعاون على قتله ألمع فارسين في المهاجرين والأنصار هو رجل فاتك شجاع ما في ذلك شك فعلى فارس المهاجرين وأبى دجانة فارس الأنصار وصاحب سيف رسول الله ﷺ يوم أحد وصاحب المواقف البطولية المشهودة في ذلك اليوم .

قالوا : (في وصف فعل الهوازن الأفاعيل بالمسلمين) : وكان رجل من هوازن على جمل أحمر ، بيده راية سوداء في رأس رمح له طويل أمام الناس ، إذا أدرك طعن ، قد أكثر القتل في المسلمين ، فيصمد له أبو دجانة فعرقب جملة فسمع خرخرة جملة^(٢) .

واكتسح الجمل وسد على وأبو دجانة عليه فيقطع على يده اليمنى ويقطع أبو دجانة يده الأخرى ، وأقبلا يضربانه بسيفيهما جميعاً حتى ثلثم سيفاهما فكف أحدهما . وأجهز الآخر عليه ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إمض لا تخرج على سلبه ، فمضيا يضربان أمام النبي ﷺ ، ويعترض لهما فارس من هوازن بيده راية حمراء ، فضرب أحدهما يد الفرس ووقع لوجهه ثم ضرباه بأسيا فمضيا على سلبه . ويمر أبو طلحة فسلب الأول ومر بالآخر فسلبه .

(١) الواقدي ج ٣ ص ٩٠٥

(٢) قال في لسان العرب : الخرخرة : سرعة الخريف في القصب .

وكان عثمان بن عفان وعلى وأبو دجانة وأيمن بن عبيد يقاتلون بين يدي رسول الله ﷺ (١) .

استبسال قائد قبيلة هوازن

كذلك شهد المؤرخون (نقلاً عن شهود عيان) أن القائد العام لقوات هوازن مالك بن عوف النصري وقبيلته بنى نصر ، قد قاتلوا بشراسة وشجاعة وثبات ، حتى كادوا أن يفنوا عن آخرهم ، ولم ينسحب القائد العام مالك بن عوف من الميدان إلا بعد أن رأى أنه قد فقد السيطرة كلياً على جيوشه التي شتتها الهزيمة كما تشتت العاصفة الورق اليابس ، ولم يعد لأحد من جنود هوازن ما يهيم سوى النجاة بنفسه ، قال الواقدي : واستحر القتل في بنى نصر (قوم مالك بن عوف) وفي بنى رباب من بنى نصر ، حتى صار عبد الله بن قيس النصري — وكان مسلماً — يقول : يا رسول الله هلكت بنو رباب ، فقال اللهم اجبر مصيبتهم .

وقال أبو قتادة رأيت يوم حنين رجلين يقتتلان : مسلماً ومشركاً ، قال : وإذا رجل من المشركين يريد أن يعين صاحبه المشرك على المسلم . قال : فأتيته فضربت يده ، فقطعتها ، واعتنقني بيده الأخرى ، فوالله ما أرسلني حتى وجدت ريح الموت ، وكاد يقتلني فلولا أن الدم نزهه (٢) لقتلني ، فسقط فضربته فقتلته وأجهضني عنه القتال (رأى شغلني) ، ومر به رجل من أهل مكة فسلبه ، فلما وضعت الحرب أوزارها وفرغنا من القوم . قال رسول الله ﷺ من قتل قتيلاً فله سلبه . فقلت : يا رسول الله ، والله لقد قتلت قتيلاً ذا سلب ، فأجهضني (٣) عنه القتال ؛ فما أدري من استلبه ؟ فقال رجل من أهل مكة : صدق يا رسول الله ، وسلب ذلك الرجل القتل عندى ، فأرضه عنى من سلبه ، فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : لا والله لا يرضيه منه تعمد إلى أسد من أسد الله ، يقاتل عن دين الله ، تقاسمه سلبه ، أردد عليه سلب قتيله . فقال رسول الله ﷺ : صدق أردد عليه

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٠٣ تحقيق الدكتور مارسدن جونز طبعة أكسفورد .

(٢) نزفه الدم إذا سال حتى أضعفه فأشرف على الموت .

(٣) أجهضني عنه القتال : شغلني وضيق على وغلبني .

سلبه . فقال أبو قتادة : فأخذته منه ، فبعته ، فاشتريت بشمنه مخرفاً^(١) فإنه لأول مال اعتدته^(٢) .

المعجزة السماوية يوم حنين

وتحدث مختلف المؤرخين عن المعجزات التي أيد الله بها نبيه يوم حنين حيث بث الرعب بها في نفوس المشركين : فقد قالوا عن بعض الصحابة ممن شهدوا حنيناً : أنهم رأوا قبل هزيمة هوازن (والناس يقتتلون) مثل البجاد^(٣) الأسود أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم . قال أحدهم : فنظرت فإذا نمل أسود مبثوث^(٤) قد ملأ الوادي ، لم أشك أنها الملائكة ثم لم يكن إلا هزيمة القوم .

وقال آخر : إن رجال مالك بن عوف (وكانوا عيوناً له) عادوا إليه وقد تفرقت أوصالهم ، فقال : ويلكم ، ما شأنكم ؟ فقالوا : رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق ، فوالله ما تماسكنا حتى أصابنا ما ترى .

وعن شيوخ من الأنصار . قالوا : رأينا يومئذ كالبعج السود هوت من السماء ركماً^(٥) فنظرنا فإذا نمل مبثوث فإن كنا لننفضه عن ثيابنا فكان نصراً أيدنا الله به .

وكان سيماء الملائكة يوم حنين عمائم حمراء قد أرخوها بين أكتافهم ، وكان الرعب الذي قذف الله في قلوب المشركين يوم حنين كوقع الحصى في الطست^(٦) . فكان سويد بن عامر السوائي يحدث ، وكان حاضراً يومئذ (مع المشركين) فسئل عن الرعب فكان يأخذ الحصة فيرمى بها في الطست فيظن فقال : إن كان في أجوافنا مثل هذا .

(١) جاء في الروض الأنف : المخرف : نخلة واحدة أو نخلات يسيرة إلى عشر فأما ما فوق ذلك فهو بستان أو حديقة .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٩١ .

(٣) البجاد (بكسر الباء) : الكساء .

(٤) مبثوث : متفرق ، يعني رآه من السماء .

(٥) الركام : السحاب المترام بعضها فوق بعض : كذا قال في نهاية غريب الحديث ج ٢ ص ١٠١ .

(٦) الطست وعاء واسع للغسيل يكون من النحاس غالباً .

(م - ٨ * غزوة حنين)

وكان مالك بن أوس بن الحدثان يتحدث عن مدى أثر الحصى الذى قذف به رسول الله ﷺ في وجوه المشركين فيقول : حدثني عدة من قومي شهدوا ذلك اليوم (مع المشركين) يقولون : لقد رمى رسول الله ﷺ بتلك الكف من الحصىات فما منا أحد إلا يشكو القذى في عينيه ، ولقد كنا نجد في صدورنا خفقاناً كوقع الحصى في الطساس ، ما يهدأ ذلك الخفقان عنا ، ولقد رأينا يومئذ رجالاً بيضاً على خيل بلق عليهم عمائم حمراء ، قد أرخواها بين أكتافهم ، بين السماء والأرض كتائب كتائب ما يليقون شيئاً^(١) ولا نستطيع أن نقاتلهم من الرعب منهم^(٢) .

تعليق السهيلي على المعجزة

وقال السهيلي في كتابه (الروض الأنف ج ٧ ص ٢١٣ تحقيق وتعليق عبد الرحمن الوكيل رحمه الله) تعليقاً على هذه المعجزات : ويقول جبير بن مطعم (هو صحابي حضر المعركة) : لقد رأيت مثل البجاد يعنى الكساء من التمل مبثوثاً ، يعنى رآه ينزل من السماء . قال : لم أشك أنها الملائكة ، وقد قدم ابن إسحاق قول الآخر : رأيت رجالاً بيضاً على خيل بلق ، وكانت الملائكة فأراهم الله لذلك الهوازي على صور الخيل والرجال ترهيباً للعدو ، ورأهم جبير على صورة التمل المبثوث إشعاراً بكثرة عددها ، إذ أن التمل لا يستطيع عدّها ، من أن التملة يضرب بها المثل في القوة ، فيقال : أقوى من التملة لأنها تحمل ما هو أكبر من جرمها بأضعاف ، وقد قال رجل لبعض الملوك : جعل الله قوتك قوة التملة ، فأنكر عليه ، فقال : ليس في الحيوان ما يحمل ما هو أكبر منه إلا التملة ، وهذا المثل قد ذكره الأصبهاني في كتاب الأمثال مقروناً بهذا الخبر ، وقد أهلك بالتمل أمة من الأمم وهم جرهم اه .

ومعجزة أخرى يحدّثنا حاجب البيت شيبه الحجبي (بأسلوب أوسع) فيقول — عن سبب إسلامه — : ما رأيت أعجب مما كنا فيه من لزوم ما مضى عليه آباؤنا من الضلالات ، ولما كان عام الفتح ودخل رسول الله

(١) قال في لسان العرب ج ١٢ ص ٢١٠ : يقال فلان ما يليق شيئاً من سخائه ، أى ما يمسك .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٨٢ و ٩١ ومغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٠٥ و ٩٠٦ والسيرة الحلبية

ج ٢ ص ٢٣٨ والطبري ج ٣ والبداية والنهاية ج ٤ والكامل في التاريخ ج ٢ .

ﷺ مكة وسار إلى حرب هوازن ، قلت أسير من قريش إلى هوازن بحنين ، فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرة فأقتله فأكون أنا الذى قمت بثأر قريش كلها وفى لفظ : اليوم أدرك ثأرى من محمد — لأن أباه وعمه قتلوا يوم أحد قتلتهما حمزة رضى الله عنه — وأقول لو لم يبق من العرب والعجم أحد لا أتبع محمداً ، لا يزداد ذلك الأمر عندي إلا شدة ، فلما اختلط الناس ، ونزل ﷺ عن بغلته أصلت السيف^(١) ودنوت منه ، ورفعت السيف حتى كدت أوقع به الفعل ، رفع إلي شواظ من نار كالبرق كاد يهلكنى ، فوضعت يدى على بصرى خوفاً عليه ، فنادانى ﷺ يا شيبه ، أدن منى فدنوت منه ، فالتفت إلى وتبسم وعرف الذى أريد منه فمسح صدرى ، ثم قال : اللهم أعذه من الشيطان ، قال شيبه : فوالله لو كان الساعة إذن أحب إلي من سمعى وبصرى ونفسى ، وأذهب الله ما كان فى ، ثم قال ﷺ : أدن فقاتل فتقدمت أمامه أضرب بسيفى ، الله أعلم أنى أحب أن أقيه بنفسى كل شيء ولو كان أبى حياً ولقيته فى تلك الساعة لأوقعت به السيف ، فجعلت ألزمه فيمن لزمه حتى تراجع المسلمون وكروا كرة واحدة ، وقربت إليه ﷺ بغلته فاستوى عليها قائماً وخرج فى أثرهم حتى تفرقوا فى كل وجه أى المشركون ، وأمر رسول الله ﷺ أن يقتل من يقدر عليه واتبعهم المسلمون يقتلونهم حتى قتلوا الذرية فنهاهم النبى ﷺ عن قتل الذرية^(٢) .

دور المرأة المسلمة فى معركة حنين

وفى معركة حنين ، كان للمرأة المسلمة دوراً مشرفاً ، فقد كان ضمن الجيش النبوى نسوة أربع من نساء الأنصار ثبتن مع رسول الله ﷺ يوم حنين ، على رأسهن أم عمار^(٣) صاحبة المواقف المشهورة فى معركة أحد ، فقد روى سليمان بن هلال عن أم عمار رضى الله عنها قالت : لما كان يومئذ والناس منهزمون فى كل وجه وأنا وأربع نسوة فى يدى سيف لى صارم وأم سليم^(٤) معها خنجر قد حزمته على وسطها ، وهى يومئذ حامل بعبد الله بن

(١) صلت السيف : جرده من غمده متيقاً للضرب .

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٥ — ٣٣٦ .

(٣) أنظر ترجمة أم عمار فى كتابنا الثانى (غزوة أحد) .

(٤) أنظر ترجمة أم سليم فيما مضى من سلسلتنا هذه .

أبى طلحة^(١) وأم سليط^(٢) وأم الحارث^(٣) قالوا : فجعلت (أم عمارة) تسله وتصيح بالأنصار (لما انهزم المسلمون) : أية عادة هذه ؟ مالكم وللفرار . قالت : وأنظر إلى رجل من هوازن على جمل أورق معه لواء يوضع جملة في أثر المسلمين ، فأعترض له فأضرب عرقوب الجمل فيقع على عجزه . وأشد الرجل ، فلم أزل أضربه حتى أثبته ، وأخذت سيفاً له وتركت الجمل يخرج ، ورسول الله ﷺ قائم مصلت السيف بيده قد طرح غمده ينادى يا أصحاب سورة البقرة ، قال : وكر المسلمون فجعلوا يقولون : يا بني عبد الرحمن ، يا بني عبيد الله ، يا خيل الله ، وكان رسول الله ﷺ قد سمى خيله خيل الله ، وجعل شعار المهاجرين بني عبد الرحمن ، وجعل شعار الأوس بني عبيد الله ، فكرت الأنصار ، ووقفت هوازن حلب ناقة فتوح^(٤) ، ثم كانت إياها ، فوالله ما رأيت هزيمة كانت مثلها ، ذهبوا في وجهه ، فرجع ابنائى إلى — حبيب وعبد الله ابنا زيد — بأسارى مكتفين ، فأقوم لهم من الغيظ ، فأضرب عنق واحد منهم ، وجعل الناس يأتون بالأسارى ، فرأيت في بنى مازن ابن النجار ثلاثين أسيراً . وكان المسلمون قد بلغ أقصى هزيمتهم مكة ، ثم كروا بعد وتراجعوا ، فأسهم لهم النبي ﷺ جميعاً^(٥) .

(١) هو شيبه بن عثمان بن أبى طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار القرشى العبدري الحجبى من أهل مكة يكنى أبا عثمان وقيل أبا صفية ، وأبو عثمان يعرف بالأوقص ، كان أبوه يحمل لواء المشركين يوم أحد قتله (مشركاً) على بن أبى طالب ، أسلم شيبه يوم الفتح في الظاهر ، ولكنه صحح إسلامه يوم حنين ، قال ابن الأثير في أسد الغابة : كان شيبه من خيار المسلمين ، ودفع له رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة وإلى ابن عمه عثمان بن طلحة بن أبى طلحة ، وقال : خذوها خالدة مخلدة تالدة إلى يوم القيامة يا بنى طلحة لا يأخذها منكم إلا ظالم ، وشيبه هو جد بنى شيبه الذين يلون حجابة البيت الذين بأيديهم مفتاح الكعبة إلى يومنا هذا ، كان شيبه من رواة الحديث . حج بالناس سنة تسع وتلاثين ، وذلك كحل وسط حينما اختلف أنصار معاوية وعلى حيث كل منهم يريد أن يكون أميراً على الحجاج (انظر الإصابة) توفي شيبه سنة تسع وخمسين .

(٢) أم سليط قال في أسد الغابة : امرأة من المبايعات حضرت مع النبي ﷺ يوم أحد قال عمر ابن الخطاب : كانت تزفر لنا القرب يوم أحد .

(٣) أم الحارث هذه هى جدة عمارة بن عزية ، وهى من الأنصار من الخزرج قاله ابن عبد البر .

(٤) قال في الإصحاح : الفتوح من النوق الواسعة الإحليل .

(٥) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٩٠٢ و ٩٠٣ .

امراة تطلب إعدام المنهزمين المسلمين

والعجيب أن حماس الثبات مع الرسول ﷺ وعامل الغضب على المسلمين المنهزمين قد بلغ بإحدى نساء الأنصار اللواتي ثبتن مع الرسول ﷺ ساعة الهزيمة وهى (أم سليم بنت ملحان) طلبت من الرسول ﷺ أن ينفذ حكم الإعدام فى الذين فرّوا من أصحابه عند الصدمة الأولى يوم حنين

فقد ذكر المؤرخون أن أم سليم هذه — وكانت مع زوجها أبى طلحة^(١) ، وهى حامل بابنها عبد الله ، وهى حازمة وسطها ، ومعها جمل أبى طلحة ، وقد خشيت أن يعزّها^(٢) الجمل ، فأدنت رأسه منها ، فأدخلت يدها فى خزامته^(٣) مع الخطاب ، فقال لها رسول الله ﷺ أم سليم ؟ قالت : نعم بأبى أنت وأمى يا رسول الله . أ رأيت هؤلاء الذين أسلموك وفرّوا عنك وخذلك ، لا تعف عنهم إذا أمكنتك الله منهم ، فاقتلهم كما تقتل هؤلاء المشركين . وفى رواية : اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك ، كما تقتل الذين يقاتلونك ، فإنهم لذلك أهل ، فقال رسول الله ﷺ : يا أم سليم قد كفى الله .. عافية الله أوسع . قالوا : ومعها خنجر ، فقال لها أبو طلحة : ما هذا الخنجر معك يا أم سليم ؟ قالت : خنجر أخذته ، إن دنا منى أحد للمشركين بعجته^(٤) به ، قال يقول : أبو طلحة : ألا تسمع يا رسول الله ما تقول الرميضاء^(٥) .

كما طالبت امراة أخرى بإعدام المنهزمين من المسلمين وهى أم الحارث الأنصارية . فقد روى الواقدى قال : وكانت أم الحارث الأنصارية أخذت بخطام جمل أبى الحارث زوجها ، وكان جملة يسمّى الجحسار فقالت : يا حار ، تترك رسول الله ﷺ فأخذت بخطام الجمل ، والجمل يريد أن يلحق بألفه ، والناس يولّون منهزمين ، وهى لا تفارقه . فقالت : أم الحارث : فمر بى عمر ابن الخطاب (وكان ممن ثبت) فقالت أم الحارث : يا-عمر ، ما هذا ، فقال

(١) أنظر ترجمة أبى طلحة فى كتابنا (غزوة أحد) .

(٢) يعزّها : يغلبها ، ومنه قوله تعالى فى قصة داود عليه السلام : ﴿ فعزنى فى الخطاب ﴾ .

(٣) الخزامة حلقة من شعر تجعل فى أنف البعير لينقاد بها ولا يعصى .

(٤) بعجته . يقال : بعج بطنه إذا شقه .

(٥) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٨٨ و ٨٩ ومغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٠٣ و ٩٠٤ والسيرة الحلبية

ج ٢ ص ٢٣٦ .

عمر : أمر الله . وجعلت أم الحارث تقول : يا رسول الله ، من جاوز بعيري فاقتله ، والله إن رأيت كالיום ما صنع هؤلاء القوم بنا تعنى بنى سليم وأهل مكة الذين انهزموا بالناس (١) .

حكم الفارين من الزحف

وقد تكلم علماء التشريع الإسلامى عن مسألة فرار المسلمين وانهزامهم يوم حنين وموقفهم من قوله تعالى في تحريم الفرار يوم الزحف : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ (٢) . فقد قالوا : إن الإجماع لم ينعقد بين المسلمين على أن الفرار من الزحف من الكبائر إلا يوم بدر . ثم إن الله تعالى غفر للفرارين يوم حنين كما تاب على الذين قرؤوا يوم أحد كما جاء ذلك صريحاً في القرآن . قال السهيلي : (إن قيل كيف قرأ أصحاب رسول الله ﷺ والفرار من الزحف من الكبائر ، وقد أنزل الله فيه من الوعيد ما أنزل ؟ قلنا : لم يجمع العلماء على أنه من الكبائر إلا في يوم بدر ، وكذلك قال الحسن ونافع مولى عبد الله بن عمر ، وظاهر القرآن يدل على هذا ، فإنه قال تعالى : ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ فيومئذ ، إشارة إلى يوم بدر ، ثم نزل التحقيق من بعد ذلك في الفارين يوم أحد ، وهو قوله تعالى : ﴿ ولقد عفا الله عنهم ﴾ وكذلك في يوم حنين : ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثيرتكم ﴾ إلى قوله : ﴿ غفور رحيم ﴾ وفي تفسير ابن سلام : كان الفرار من الزحف يوم بدر من الكبائر ، وكذلك يكون في ملحمة الروم الكبرى ، وعند الدجال ، وأيضاً فإن المنهزمين عنه عليه السلام رجعوا لحينهم وقاتلوا معه حتى فتح الله عليهم (٣) .

كلام الذين أسلموا ولما يدخل الإيمان قلوبهم

وفي يوم حنين وعندما انهزم المسلمون تكلم رجال من زعماء قريش أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم فانفرجت أساريرهم للهزيمة وفاهاوا من الحديث بما يدل على

(١) الواقدي ج ٣ ص ٩٠٤ تحقيق الدكتور مارسدن جونس طبعة أكسفورد .

(٢) الأنفال ١٥ و ١٦ .

(٣) الروض الأنف بتحقيق وتعليق عبد الرحمن الوكيل رحمه الله ج ٧ ص ٢٠٨ .

عدم ولائهم للنبي ﷺ وللإسلام ولكنهم جميعهم (فيما بعد) حسن إسلامهم وكانوا من الصحابة الأخيار وإنما كان الذي فاهوا به ساعة الهزيمة يوم حنين لأنهم حديثو العهد بالإسلام . لم يمض على دخولهم فيه (بعد هزيمتهم في مكة) سوى عشرة أيام . فيها لم يتمكن الإسلام من قلوبهم .. من هؤلاء أبو سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو . فقد قال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ، وقال رجل ممن أسلم ، حسن الإسلام صادق الإيمان اسمه أبو مقيت . سمعها من أبي سفيان . فقال له : (أما والله لولا أني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن قتلك لقتلتك وصرخ كلدة بن الحنبل أخو صفوان ابن أمية لأمه .. أسود من سودان مكة : ألا بطل السحر ، فقال له صفوان (وكان عاقلاً بعيد النظر) : أسكت فض الله فاك ، لأن يرئى رب من قرش أحب إلى من أن يرئى رب (أى ملك) من هوازن ، وقال هذا الاستنكار صفوان بن أمية وهو لا يزال على شركه وكان مع المسلمين يوم حنين لأن رسول الله ﷺ عقب فتح مكة أعطي صفوان مهلة أربع أشهر فبقى على شركه ثم أسلم في الجعرانة ، والنبي ﷺ عائداً من حنين .

وقال سهيل بن عمرو^(١) (كان فيما بعد من خيار الصحابة) : لا يجترأ (أى مصيبة الهزيمة) محمد وأصحابه . وكان عكرمة بن أبي جهل ممن رسخ الإيمان في قلوبهم ، وكان حاضراً يسمع كلمات الشماتة هذه فقال لهؤلاء الشامتين : هذا ليس بقول ، وإنما الأمر بيد الله وليس إلى محمد من الأمر شيء ، إن أدبل عليه فإن له العاقبة غداً ، فقال له سهيل بن عمرو : إن عهدك به لحديث . فقال عكرمة : يا أبا يزيد إن كنا لنؤضع في غير شيء ، وعقولنا عقولنا ، نعبد الحجر لا ينفع ولا يضر^(٢) .

كيف كانت هزيمة هوازن ؟

وهكذا وبعد أن تراجع المسلمون عن الهزيمة التي أصابتهم استتبسلا في القتال وأنزلوا أفدح الخسائر بالمشركين ، وتحول بعض الصحابة عند العودة من الهزيمة إلى ما يشبه الإعصار يكتسح كل من يقف أمامه من الأعداء . ومن هؤلاء أبو

(١) انظر ترجمة سهيل بن عمرو في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٢) انظر مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩١٠ .

طلحة الأنصاري (وكان ممن ثبت مع الرسول) فقد قتل وحده من مشركي هوازن خمسة وعشرين رجلاً وغنم أسلابهم^(١) .

جرح قائد الفرسان خالد بن الوليد

وعند عودة المسلمين عن الهزيمة كذلك تعرض كثير من المسلمين للقتل والإصابة بجروح خطيرة (وتلك سنة الحرب) .

ومن الذين جرحوا جراحة خطيرة في معركة حنين قائد الفرسان خالد بن الوليد الذي نزف كثيراً حتى أسند إلى رحله من الضعف لشدة النزيف .

فقد ذكر بعض شهود العيان من الصحابة ، أن رسول الله ﷺ بعدما هزم الكفار ورجع المسلمون إلى رحالهم ، كان يمشي في المسلمين ويقول : من يدلني على رجل خالد بن الوليد ، حتى دلّ عليه ، فوجده قد أسند إلى مؤخرة رحله لأنه قد أثقل بالجراحة ، ففعل النبي ﷺ في جرحه فبرئ^(٢) .

وهكذا وبعد جلاذ عنيف وقتال شرس وصبر على القتال من الفريقين ، نزلت الهزيمة بهوازن بعد أن كان النصر في جانبهم ، وكادت طلائع جيشهم تصل مكة فائحة .

وحقق الجيش النبوي (بعد تلك الهزيمة المروعة) نصراً (من الناحية العسكرية) لم يحقق المسلمون مثله طيلة العهد النبوي . فقد انهزم أمام المسلمين عشرون ألف مقاتل من هوازن ، بينما لا يزيد عدد المسلمين على اثني عشر ألفاً . ألفان منهم من أهل مكة الذين لم يمحض على دخولهم في الإسلام أكثر من عشرة أيام .

وفقد مشركو هوازن في معركة حنين التي خسروها مئآت القتلى كما وقع منهم في أسر المسلمين حوالي ستة آلاف إنسان . كذلك غنم المسلمون من هوازن غنيمة لم يغنموا مثلها في الكثرة في أية معركة خاضوها في العهد النبوي .

فقد غنم الجيش النبوي يوم حنين أربعة وعشرين ألف بعير (والإبل بعد الخيل) من أعز ما يمتلك العربى في ذلك العصر ، كما غنم المسلمون أيضاً أكثر

(١) مغازي الواقدي ج ٣ .

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٨ .

من أربعين ألف شاة ، وغنموا أيضاً عشرات الآلاف من أوقيات الفضة .
أما الذين كتب لهم النجاة من قوات هوازن فقد عمهم الرعب ولاذوا
بالفرار وعلى رأسهم ملكهم وقائدهم مالك بن عوف النصرى .
فقد ابتلعهم الشعاب والوديان مشتين فارين يطلب كل منهم النجاة
لنفسه ، تاركين نساءهم وأطفالهم وأموالهم غنيمة للمسلمين .

إنها كارثة مروعة نزلت بهوازن لم ينزل مثلها بحى من العرب فى الجزيرة . كارثة
حذر (مسبقاً) من حدوثها المحارب المجرب الشهير دريد بن الصمة الهوازنى ،
وناشد الشاب الملك والقائد هوازن مالك بن عوف أن لا يوقعها بأهله
وعشيرته ، حين نصحه بوادى أوطاس قبل المعركة ، أن يأمر بإعادة النساء
والأطفال والمواشى إلى غُلياء بلاد هوازن ، ويلقى المسلمين على متون الخيل ،
ولكن مالكاً عصى دريداً ، ف وقعت الهزيمة والكارثة المدمرة التى حذر دريد
مالكاً من وقوعها ، ومن تصاريق القدر أن دريد بن الصمة لقي حتفه فقتل
يوم حنين مشركاً ، وهو ابن مائة وستين سنة ، وبقي مالك وأسلم وحسن
إسلامه وصار من سيوف الله على المشركين من ثقيف وغيرهم من المجاورين
لبلاده .

وقد تحدث شهود العيان عن انتصار المشركين أول الأمر ثم عن هزيمتهم ثانياً
وعن الرعب الذى نزل بهم عقب تراجع المسلمين عن الهزيمة وعودتهم إلى
ساحة القتال .

فعن عمرو بن زهير ، عن عمر بن عبد الله العيسى عمن أخبره ، عن
ربيعة ، قال : حدثنى نفر من قومنا حضروا يومئذ قالوا : كمنا لهم (أى
المسلمين) فى المضايق والشعاب ، ثم حملنا عليهم حملة ركبنا أكتافهم حتى
أتينا إلى صاحب بغلة شهباء (هو رسول الله ﷺ) ، وحوله رجال بيض
حسان الوجوه فقال شامت الوجوه ، ارجعوا ، فانهزمنا ، وركب المسلمون
أكتافنا وكانت إياها (أى الهزيمة) وجعلنا نلتفت وراءنا ننظر إليهم يكتئوننا ،
فتفرقت جماعتنا فى كل وجه ، وجعلت الرعدة تسحقنا حتى لحقنا بغُلياء
بلادنا ، فإن كان ليحكى عنا الكلام ما كنا ندرى به ، مما كان بنا من

الرعب ، فقدف الله الإسلام في قلوبنا^(١) .

مقتلة ثقيف وقتل قائدها

تعد ثقيف بطن من بطون هوازن ، وقد حضرت ثقيف يوم حنين ورايتها مع قارب بن الأسود ، واستحرّ القتل في هوازن وصبرت بنو مالك من ثقيف ، وصاحب رايتهم قارب بن الأسود بن مسعود ، فإنه (كما قال الواقدي) : لما انهزم الناس أسند رايتها إلى شجرة وهرب هو وبنو عمه من الأحلاف ، فلم يقتل منهم إلا رجلان ، من بنى غيرة (وهب ، واللجلج) ، وقال النبي ﷺ حين بلغه قتل اللجلج : قتل اليوم سيد شبان ثقيف ، إلا ما كان من ابن هنيذة ، قالوا : وكانت راية بنى مالك مع ذى الخمار ، فلما انهزمت هوازن تبعهم المسلمون ، وأحصى القتلى من ثقيف فوجد أنه قتل من بنى مالك وحدهم قريب من مائة رجل تحت راياتهم ، بينهم عثمان بن عبد الله ، فقاتل بها ملياً ، وجعل يحث ثقيفاً وهوازن على القتال حتى قتل ، وكان للجلج رجلاً من بنى كنة ، وقال رسول الله ﷺ لأخى بنى كنة : هذا سيد شبان كنة ، فلما قتل عثمان بن عبد الله ، قال رسول الله ﷺ — لما بلغه مقتله — أبعد الله فإنه كان يبغض قريشاً . وكانت راية ثقيف ساعته مع ذى الخمار واسمه (عوف بن الربيع) فلما قتل أخذها عثمان بن عبد الله فقاتل حتى قتل .

قالوا : وكنة التي منها اللجلج القليل والذي قال الرسول ﷺ : إنه سيد شباب كنة .. كنة هذه امرأة من غامد يمانية ، قد ولدت في قبائل العرب ، وكانت أمة فأعتق الحارث كل مملوك من بنى كنة ، فقال له عمر بن الخطاب في خلافته : أيسرك أن أهل بيت عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة مكان كنة ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، لوددت أن ذلك كذلك ، فقال عمر : ليت أُمى كنة وأن الله رزقني من برّها ما رزقك ، وكان أبر الناس بأُمه ، ما كانت تأكل طعاماً إلا من يده ، ولا يغسل رأسها إلا هو ، ولا يسرح رأسها إلا هو^(٢) .

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٠٦ و ٩٠٧ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٩٢ وتاريخ الطبري ج ٣ ص ٧٧ ومغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٠٧ .

وتحدث أشياخ من ثقيف أسلموا — وكانوا حضروا معركة حنين ، وانهزموا
 فيمن انهزم حتى وصلوا الطائف ودخلوا حصنهم ، وهم يرجفون من الرعب .
 فقالوا : ما زال رسول الله ﷺ في طلبنا — فيما نرى — ونحن مولون ، حتى
 إن الرجل منا ليدخل حصن الطائف وإنه ليظن أنه على أثره من رعب
 الهزيمة (١) .

وكان مقتل سيد ثقيف عثمان بن عبد الله على يد عبد الله بن أبي أمية (٢)
 فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : يرحم الله عبد الله بن أبي أمية ، وأبعد الله
 عثمان بن عبد الله بن ربيعة فإنه كان يبغض قريشاً . ولما بلغ عبد الله بن أبي
 أمية دعاء رسول الله ﷺ له بالرحمة قال : إني لأرجو أن يرزقني الله الشهادة
 في وجهي هذا ، فقتل في حصار الطائف وقال النبي ﷺ : لولا ابن جثامة
 الأصغر لفضحت الخيل اليوم (٣) .

وروى الإمام أحمد عن العلاء بن زياد العدوي أنه قال : يا أبا حمزة هل
 غزوت مع رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم غزوت معه يوم حنين ، فخرج
 المشركون بكرة فحملوا علينا حتى رأينا خيلنا وراء ظهورنا ، وفي المشركين رجل
 يحمل علينا فيدقنا ويحطمننا ، فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ نزل فهزمهم
 الله ، فقام رسول الله ﷺ حين رأى الفتح ، فجعل يجاءهم أسارى رجل
 رجل ، فبايعوا على الإسلام ، فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ إن
 على نذر لئن جيء بالرجل الذي كان منذ اليوم يحطمننا لأضربن عنقه ، قال :
 فسكت رسول الله ﷺ ، وجيء بالرجل ، فلما رأى نبي الله ﷺ قال :
 يا نبي الله تبت إلى الله ، قال : وأمسك نبي الله ﷺ أن يبايعه ليوفي
 الآخر نذره ، قال : وجعل ينظر إلى النبي ﷺ ليأمره بقتله ويهاب رسول الله
 ﷺ ، فلما رأى النبي ﷺ أنه لا يصنع شيئاً بايعه ، فقال : يا نبي الله
 نذرى ، قال : لم أمسك عنه منذ اليوم إلا لتوفى نذرك ، فقال : يا رسول
 الله ، ألا أومأت إلى ؟ فقال : إنه ليس لنبي أن يومي (٤) .

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٠٨ تعليق الدكتور مارسدن جونس طبعة أكسفورد .

(٢) انظر ترجمة عبد الله بن أبي أمية في كتابنا (صلح الحديبية) .

(٣) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩١١ .

(٤) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٢٨ .

وروى البيهقي عن الشعبي عن الحارث بن بدل النصرى عن رجل من قومه
شهد يوم حنين وعمر بن سفيان الثقفي قالاً : انهزم المسلمون يوم حنين فلم
يبق مع رسول الله ﷺ إلا عباس وأبو سفيان بن الحرث ، قال : فقبض
رسول الله ﷺ قبضة من الحصباء فرمى بها في وجوههم ، قال : فانهزمنا ،
فما خيل إلينا إلا أن كل حجر أو شجر فارس يطلبنا ، قال الثقفي فأعجزت
على فرسي حتى دخلت الطائف^(١) .

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٣٢ .

الفصل الخامس

- المطاردة بعد الانتصار .
- إفلات ملك هوازن وقائدها من أيدي المسلمين .
- مصرع شاعر هوازن وفارسها المعمر ، دريد بن الصمة .
- حصار الطائف .
- فشل الحصار .
- الرسول يفك الحصار عن الطائف ويعود إلى الجِعْرانة .
- تقسيم الغنائم الضخمة بين المسلمين .
- الرسول يعطى مئاة الإبل للمؤلفة قلوبهم .
- عتاب الأنصار للرسول ﷺ بشأن هذه العطايا .
- الرسول يعتق ستة آلاف من سبي هوازن .
- عودة الرسول وجيشه إلى المدينة .
- إسلام ثقيف باختيارها .
- انتهاء آخر مظهر من مظاهر الوثنية في الحجاز .

مطاردة المهزمين من هوازن .

وبعد أن تمّ ذلك النصر الساحق للمسلمين على المشركين من هوازن في حنين أمر الرسول القائد ﷺ قادة جيشه بمطاردة المشركين وتعقبهم في كل اتجاه يتجهون ، لئلا يتمكنوا (مجدداً) من جمع قواتهم المهزومة وتنظيمها .

فتحركت كل وحدات الجيش الإسلامي (بقيادة الرسول الأعظم ﷺ) تطارد هوازن ، واستمرت وحدات الجيش النبوي في المطاردة حتى وصلت بقيادة النبي ﷺ في مطاردها الطائف حيث تحصنت ثقيف ، أحد الأجنحة الهامة في هوازن . ف ضرب الرسول القائد الحصار على هذا الجناح من هوازن كما سيأتى تفصيله في هذا البحث إن شاء الله .

مصرع الفارس المعمرّ دريد بن الصمة

وأثناء مطاردة الجيش الإسلامي لمشركي هوازن ، قتل أحد جنود الإسلام شيخ هوازن المعمرّ وفارسها وشاعرها (دريد بن الصمة)^(١) وكان له من العمر مائة وستون سنة .

(١) هو دريد بن الصمة ، من جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان ، ويكنى أبا قرة ، وهوازن أخو سليم بن منصور ، وكان دريد من فخذ من جشم يقال لهم غزية ، وأمه ربحانة بنت معدى كرب ، أخت عمرو بن معدى كرب الزبيدي . فعمرو على هذا خاله . هكذا جاء في ترجمة دريد في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ٢ ص ٥٣٦ . ودريد أحد الشعجاء المشهورين ، وذوى الرأى في الجاهلية . ومن جيد شعر دريد المشهور ، قوله :

أمرتهموا أمرى بمنعرج اللوى	فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى	غوايتهم وإنسى غير مهتد
وهل أنا إلا من غزية إن غوت	غويت ، وإن ترشد غزية أرشد
تنادوا فقالوا : أردت الخيل فارساً	فقلت : أعبد الله ذلكم الردى
فجئت إليه والرماح تنوشه	كوقع الصياصى فى النسيج الممدد
فطاعتب عنه الخيل حتى تبددت	وحتى علائى حالك اللون أسود
قتال امرئ آسى أخاه بنفسه	ويعلم أن المرء غير مخلص
فإن يك عبد الله خلى مكانه	فما كان وقافاً ولا رعى اليد
كميش الإزار خارج نصف ساقه	صبور على الجلى وطلاع أنجد
قليل تشكيه المصابب حافظ	من اليوم أعقاب الأحاديث فى غد
صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه	فلما علاه قال للباطل أبعد
وطيب نفسى أننى لم أقل له	كذبت ولم أنجل بما ملكت يدى

ودريد بن الصمة هذا ، هو الذى عارض الملك القائد هوازن (مالك بن عوف النصرى) عارضه عندما ساق مع الجيش نساءهم وأطفالهم ومواشيهم وكل أموالهم إلى وادى حنين . ولكن مالكا عصاه فوقع كل أموال ومواشى وذرارى هوازن غنيمة فى أيدى الجيش الإسلامى وهو ما حذر دريد مالكا من أن تقع هوازن فيه .

قال المؤرخون : وكان دريد بن الصمة الذى أقعده الكبير (ولكنه حضر حنين) يحمل فى هودج على جمل . لأنه لا يستطيع الحركة للقتال لكبر سنه . وعندما شتت الهزيمة هوازن لم يعد هناك من يعتنى بالشيوخ المعمر (دريد بن الصمة) فترك لوحده يسير به الجمل (وعليه الهودج) على غير هدى ، فأدركه شاب يقال له ربيعة بن رفيع بن أهبان بن ثعلبة بن يربوع من بنى سليم ، فأخذ بخطام جملة وهو يظنه امرأة . وذلك أنه كان فى هودج ، فأناخ الشاب به فإذا هو شيخ كبير ابن ستين ومائة سنة ، وكان الشاب ربيعة لا يعرف أنه (دريد بن الصمة المشهور) . فقال الفتى السلمى : ما أريد إلى غيره ممن هو على مثل دينه ؟ . قال له دريد : من أنت ؟ .

قال الغلام : أنا ربيعة بن رفيع السلمى . ثم ضربه بالسيف فلم يؤثر فيه سيف الفتى السلمى . فقال دريد : بئس ما سلحتك أملك ، خذ سيفى من وراء الشجار (أى الهودج) فاضرب به ، وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ ، فإنى كنت كذلك أضرب الرجال ، ثم إذا أتيت أملك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة ، فرب يوم قد منعت فيه نساءك . ويقال : إن ربيعة لما ضرب دريدا تكشف للموت عجانه ويطون فخذه مثل القراطيس من ركوب الخيل . فلما رجع ربيعة إلى أمه أخبرها بقتله دريدا ، فقالت : والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثاً فى غداة واحدة . وجرّ ناصية أبيك^(١) (أى أطلق سراحه بعد أن

= وكان عبد الله بن الصمة أخو دريد أغار على إبل لعيس وفزارة ، ومعه دريد ، بعد أن شار عليه دريد ألا يفعل فخالفه ، فخرجت عليهم الخيل فاستحر القتال فى بنى جشم ، وقتل عبد الله بن الصمة ، وصرع دريد . ثم تولى دريد زعامة قبيلته بعد أخيه عبد الله . فأغار على عبس وذبيان فقتل منهم مائة قتيل بينهم قاتل أخيه عبد الله واسمه (ذؤاب بن أسماء بن زيد) . قتل دريد عن مائة وستين عاماً .

(١) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٩١٤ و ٩١٥ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٦ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ٩٥ و ٩٦ .

أسره في المعركة) قال الفتى : ما كنت أشعر . وفي رواية قالت أم الفتى له :
ألا تكترمت عن قتله لما أخبرك بمنته علينا ، فقال : ما كنت لأتكرم عن رضى
الله ورسوله^(١) .

وقالت عمرة بنت دريد في قتل ربيعة دريداً :

لعمرك ما خشيت على دريد بيطن سميرة^(٢) جيش العنق^(٣)
جزى عنه الإله بنى سليم وعقتهم بما فعلوا عناق^(٤)
وأسقانا إذا قدنا إليهم دماء خيارهم عند التلاق
وقالت تذكر بنى سليم أياذى دريد عندهم في الجاهلية حين أعتق نساءهم
وأطلق سراح أحد آبائهم :

فرب عظيمة دافعت عنهم وقد بلغت نفوسهم التراق
ورب كريمة أعتقت منهم وأخرى قد فككت من الوثاق
ورب منوه بك من سليم أجبت وقد دعاك بلا رماق^(٥)
فكان جزاؤنا منهم عقوقاً وهماً ماع منه غم ساق^(٦)
عفت آثار خيلك بعد أين بذى بقر إلى فيف النهاق^(٧)

مصير القائد العام لهوازن

أما القائد العام لجيوش هوازن ، مالك بن عوف النصري ، فبعد أن تأكد
أنه خسر المعركة نهائياً انهزم وانسحب من الميدان في كوكبة من الفرسان ، هم
كبار قادته وهيئة أركان حربه وحرسه . وكان الذى تولى مطاردة مالك
وصحبه ، الزبير بن العوام فى الخيل ، وقد ذكر المؤرخون ، أن القائد العام
مالكاً ، لما رأى أن الزبير هو الذى يتولى مطاردته (وكان الزبير يعد من أشجع

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٦ والشعر والشعراء لابن قتيبة ج ٢ .

(٢) سميرة : واد قرب حنين قتل به دريد .

(٣) العناق الحنية والداهية .

(٤) عناق على وزن فعال بكسر اللام : من العقوق .

(٥) المنوه الذى يناديك بأشهر أسمائك نداءً عالياً . والرماع بفتح الراء وكسرهما بقية الحياة .

(٦) قال أبو ذر : ماع ذاب ، وكل سائل مائع .

(٧) عفت درست وتغيرت . وذو بقر موضع ، والفيف : القفر . والنهاق هنا . موضع وقال ابن
سراج : أين وذو بقر موضعان .

الفرسان) . نزل عن فرسه واختفى بين الأشجار في الشعاب لئلا يقع أسيراً في يد الزبير ، لأن مالكا يعلم أن الزبير لن يتركه يفلت من يده .

فقد جاء في كتب التاريخ والسير أن مالك بن عوف (عقب انهزامه) وقف على مرتفع من الأرض ومعه فرسان من أصحابه ، فأمرهم بأن يقفوا مكانهم حتى يمر الضعفاء ومن استطاع النجاة من الذراري قائلاً : قفوا حتى يمضي ضعفاؤكم حتى تلتئم أخراكم .

وبعد أن مرّ الضعفاء وأصبحوا بمنجى في مرتفعات الجبال قال لأصحابه (طالباً الاستطلاع) : أنظروا ماذا ترون ؟ قالوا : نرى قوماً على خيولهم واضعين رماحهم على آذان خيولهم . قال (وكان خبيراً عسكرياً واسع الاطلاع على عادات القبائل) : أولئك إخوانكم بنو سليم^(١) وليس عليكم منهم بأس .

ثم قال : انظروا ، ماذا ترون ؟ قالوا : نرى رجالاً أكفالا^(٢) قد وضعوا رماحهم على أكفال^(٣) خيولهم قال : تلك الخزرج ، وليس عليكم منهم بأس ، وهم سالكون طريق إخوانهم . ثم قال : انظروا ، ماذا ترون ؟ قالوا : نرى قوماً كأنهم الأصنام على الخيل ، قال : تلك كعب بن لؤى وهم مقاتلوكم ، ثم قال : انظروا ماذا ترون ؟ قالوا : نرى رجلاً بين رجلين معلماً بعصابة صفراء ، يخطب برجليه الأرض واضعاً رمحاً على عاتقه . قال : ذلك ابن صفية ، الزبير بن العوام ، وأيم الله لينزلنكم عن مكانكم .

وفعلًا ، فقد هاجم الزبير مالكا وأصحابه حتى كاد يطوقهم . فلما غشيت مالكا الخيل نزل عن فرسه ، مخافة أن يقع في الأسر ، ثم أخذ يلوذ ويتستر بالشجر كي لا يراه أحد من أصحاب الزبير . ثم سلك في يسوم (جبل بأعلى نخلة) فأعجزهم هرباً ، وما زال ملك هوازن وقائدها موغلا في الهرب ، حتى وصل وادي لية^(٤) وهناك تحصن في قصر له ، وبلغ النبي ﷺ تحصن

(١) أنظر ترجمة بنى سليم في كتابنا (فتح مكة) .

(٢) قال في لسان العرب : الكفل من الرجال الذى يكون في مؤخر الحرب .

(٣) الأكفال جمع كفل (بالتحريك) وهو العجز ، وقيل ردف العجز .

(٤) لية (بكسر أوله وثانيه) .

مالك بن عوف في قصر لية^(١) فلم يأمر بتعقبه أو إزعاجه لأنه كان يطمع في أن يهديه الله للإسلام ، وفعلاً ، بعث الرسول ﷺ إلى ملك هوازن المذكور مبعوثاً خاصاً يبلغه أن النبي ﷺ سيعفى عنه وسيعيد إليه أهله وأمواله إن هو دخل في الإسلام ، فأسلم مالك وحسن إسلامه وصار خير عون للإسلام في محاربة من تبقى على الشرك كما سيأتي تفصيله في موطنه من هذا الكتاب .

الرسول ينهى عن قتل النساء والأطفال

ووجدت امرأة مقتولة في المعركة ، ونسب إلى القائد خالد بن الوليد قتلها ، فلما رأى الرسول ﷺ المرأة القتيلة وكانت من المشركين . قال : ما كانت هذه لتقاتل . ثم أمر الرسول ﷺ أحد أصحابه بأن يدرك خالداً ويقول له : إن رسول الله ﷺ ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأة وعسيفاً^(٢) . كذلك رأى رسول الله ﷺ امرأة من هوازن مقتولة ، فسأل (مستنكراً) عنها فقال رجل من الجيش : أنا قتلتها يا رسول الله ، أردفتها ورأى فأرادت قتلى فقتلتها فأمر رسول الله ﷺ بدفنها فدفنت^(٣) .

تصفية جيوب مقاومة هوازن

ورغم انهزام هوازن في حنين فإن بعضاً من رجالها قد عسكروا بوادى : (أوطاس) محاولين إعادة تنظيمهم بغية الصمود في وجه المسلمين من جديد . وكان النبي ﷺ قد أمر أصحابه بتعقب المنهزمين ومطاردتهم . وكان هو ﷺ على رأس القوات المتحركة للمطاردة حتى وصل الطائف فحاصرها .

ولما بلغ الرسول ﷺ تجمع بعض عسكر المشركين بوادى (أوطاس) بعث لمقاتلتهم والقضاء على مقاومتهم سرية بقيادة أبي عامر الأشعري^(٤) عم

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩١٧ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ٩٧ والبداية والنهاية ج ٤ ص

٣٣٦ - ٣٣٧ .

(٢) العسيف هو الشيخ الفاني وقيل هو الأجير .

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٣٦ ومغازي الواقدي ج ٣ ص ٩١٢ ومسند أحمد والنسائي .

(٤) أبو عامر الأشعري اسمه عبيد بن سليم بن حضار ، وهو عم أبي موسى الأشعري ، كان من كبار الصحابة ، كان من السابقين الأولين في الإسلام ذكره ابن قتيبة فيمن هاجر إلى الحبشة . وذكر أنه كان قد عمى ثم أبصر . قتل شهيداً كما هو مفصل في كتابنا هذا .

أنى موسى الأشعري^(١) فحمل أبو عامر لواء رسول الله ﷺ ، ثم تقدم لمهاجمة المشركين فى أوطاس .

وهناك اصطدم بجماعة من هوازن كانوا قد تحصنوا فى أماكن استراتيجية من الوادى وثبتوا للقتال ، وبارزوا المسلمين حتى قتل منهم تسعة مبارزة . قتلهم بيده قائد السرية أبو عامر الأشعري الذى استشهد فى النهاية .

فقد قال أصحاب السير والمغازى : لما انهزم الناس أتوا الطائف ، وعسكر منهم عسكر بأوطاس وتوجه بعضهم نحو نخلة^(٢) . فبعث إليهم الرسول من يقاتلهم وعقد له لواءاً ، فكان معه فى ذلك البعث سلمة بن الأكوع^(٣) فكان يحدث يقول : لما انهزمت هوازن ، عسكروا بأوطاس^(٤) عسكراً عظيماً تفرق منهم من تفرق ، وقتل من قتل وأسر من أسر فأتيناهم إلى عسكرهم ، فإذا هم ممتنعون . وذكر ابن إسحاق ، أن من بين مشركى هوازن هؤلاء عشرة إخوة كلهم بارزوا أبا عامر الأشعري فقتل تسعة منهم ثم استشهد فى النهاية رحمه الله .

فقد جاء فى سيرة ابن هشام والواقدي أن أبا عامر الأشعري (وهو قائد

(١) أبو موسى الأشعري اسمه عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن عامر بن عنز بن بكر بن عامر بن عدى بن وائل بن ناجية بن الجماهر بن الأشعر بن أدد بن زيد بن يشجب ، كان أبو موسى من السابقين الأولين فى الإسلام ، وكان أبو موسى قدم مكة فحالف سيد قريش أبا أحيحة سعيد ابن العاص بن أمية ، وكان قدومه مع إخوانه فى جماعة من الأشعريين . أسلم وهاجر إلى أرض الحبشة . كذا قال ابن إسحاق . وبعضهم يقول : إنه لم يهاجر إلى الحبشة . وإنما صادف مجيئه من اليمن إلى الرسول ﷺ مجيء جعفر . وأصحابه من الحبشة قدّموا معاً فى سفينتين على الرسول ﷺ وهو فى خير ، كان أبو موسى من أعيان الصحابة . استعمله عمر بن الخطاب على البصرة ، وقد شهد أبو موسى وفاة أنى عبدة بن الجراح فى الشام كان أبو موسى من أعيان القادة المشتركين فى فتوح الشام والعراق . وكان هو الذى بالاشتراك مع عمر بن سعد بن أبى وقاص — فتح حران ونصيبين فى العراق ، كذلك فتح أبو موسى الأشعري الأهواز وأصبهان بفارس فى عهد عمر بن الخطاب ، اعتزل أبو موسى الأشعري الفتنة المؤسفة التى حدثت بين الصحابة . وكان أحد الحكمين فى الخلاف الدامى الذى نشب بين أمير المؤمنين على ومعاوية بن أبى سفيان . توفى أبو موسى بمكة عام ٤٢ هـ وقيل توفى بالكوفة وهو ابن ثلاث وستين سنة .

(٢). وادى نخلة : واد كبير مشهور وهو المسمى (اليمانية) تصب فيه روافد كثيرة .

(٣) انظر ترجمة سلمة بن الأكوع فى كتابنا (صلح الحديبية) .

(٤) أوطاس . قال فى مراصد الاطلاع : واد فى ديار هوازن .

السرية) لقي من ضمن عسكر هوازن عشرة إخوة طلب كلهم المبارزة ، فبرز الأول . فقال من يبارز ؟ فبرز له أبو عامر الأشعري (وهو يقول : اللهم اشهد عليه) فقتله أبو عامر ، ثم برز آخر فحمل على أبي عامر الأشعري (وهو يدعو إلى الإسلام ، ويقول اللهم اشهد عليه) فقتله أبو عامر . ثم برز آخر من الإخوة العشرة فقتله أبو عامر ، ثم جعلوا يحملون على أبي عامر رجلاً رجلاً ويحمل أبو عامر ، وهو يقول : اللهم اشهد . حتى قتل تسعة . وبقي العاشر ، فحمل على أبي عامر ، وهو يدعو إلى الإسلام ، ويقول : اللهم اشهد عليه ، فقال الرجل (المشرك) : اللهم لا تشهد عليّ ، فكف عنه أبو عامر ، فأفلت ، أسلم بعد فحسن إسلامه . فكان رسول الله إذا رآه قال : هذا شريد أبي عامر .

وأثناء القتال رمى رجل من بنى جُشَمَ أبا عامر بسهم فأثبته في ركبته ، فأنهى إليه أبو موسى الأشعري فقال : من رماك يا عم ؟ فأشار أبو عامر لأبي موسى إلى الرامي ، فقال : إن ذاك قاتلي تراه ذلك الذي رماني .

قال أبو موسى : فقصدت له فاعتمدته ، فلحقته ، فلما رآني ولي عني ذاهباً ، فاتبعته ، وجعلت أقول له : ألا تستحي ، أأنت عربياً ، ألا تثبت ، فكر ، فالتقيت أنا وهو ، فاختلفنا ضربتين بالسيف ، فضربته بالسيف ثم رجعت إلى أبي عامر فقلت : قد قتل الله صاحبك ، قال : فانزع هذا السهم ، فنزعته فنزا منه الماء . فقال : يا بن أخي انطلق إلى رسول الله ﷺ فأقرئه مني السلام ، وقل له : استغفر لي ، واستخلفني أبو عامر على الناس ، فمكث يسيراً ثم مات ، فرجعت فدخلت على رسول الله ﷺ في بيته على سرير مرمل وعليه فراش ، قد أثر رمال السرير بظهره وجنبه ، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر ، وقوله : قل له : استغفر لي ، قال فدعا بماء فتوضأ ثم رفع يديه فقال : (اللهم اغفر لعبيد أبي عامر) ورأيت بياض إبطيه ، ثم قال : اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك أو من الناس ، قال أبو موسى فقلت : ولي فاستغفر ، فقال : (اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً)^(١) .

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٣٩ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ٩٩ — ١٠٠ وتاريخ الطبري ج ٣ =

الرجل الذى انتحر فى جيش الإسلام

قالوا : وذكروا للنبي ﷺ أن رجلاً كان بحنين قاتل قتلاً شديداً حتى اشتدت به الجراح ، فذكر للنبي ﷺ فقال من أهل النار ، فارتاب المسلمون من ذلك ، ووقع فى أنفسهم ما الله به عليم ، فلما اشتدت به الجراح أخذ مشقصاً من كنانته فانتحر به ، فأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن ينادى : ألا لا يدخل الجنة إلا مؤمناً ، وإن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر (١) .

الغنائم العظيمة

وعقب انهزام هوازن فى معركة حنين وقعت فى أيدي الجيش الإسلامى كميات كبيرة من الغنائم والسبى وعلى شكل لم يسبق أن وقع مثله فى أيدي الجيش الإسلامى . وهذا بيان تقريبي للغنائم والسبى .

٢٤٠٠٠ بعيراً .

٤٠٠٠٠ شاة .

٨٠٠٠ رأس من السبى .

تجميد الغنائم حتى العودة من الطائف

وعندما قرر الرسول ﷺ مطاردة هوازن حتى الطائف أمر بتجميد الغنائم والسبى فى الجعрана وأسند أمر الإشراف على الغنائم والسبى ورعايته والاعتناء به إلى الزعيم الخزاعى الشهير ، بديل بن ورقاء . فبقى السبى وباقي الغنائم مجمداً ومتحفظ عليه فى الجعрана حتى عاد رسول الله ﷺ من حصار الطائف ، وفى الجعрана أعتق جميع السبى ، وقسم الغنائم على الجيش . كما سيأتى تفصيله فى موطنه من هذا الكتاب إن شاء الله .

حصار الطائف

يعتبر حصار الطائف من الناحية العملية الحرية امتداداً لمعركة حنين ، ذلك أن ثقيفاً (وهم أهل الطائف) من أهم قبائل هوازن وأثقلهم وزناً بل يمكن اعتبارهم العمود الفقرى لجيش هوازن فى معركة حنين الفاصلة ، فقد دل

= ص ٧٩ ومغازى الواقدي ج ٣ ص ٩١٥ - ٩١٦ .

(١) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٩١٧ .

تسلسل الأحداث العسكرية — بعد معركة حنين — على أن القوة الرئيسية ذات الخطر والتي قاتلت المسلمين في حنين تحت قيادة مالك بن عوف ، هي من ثقيف ، بدليل أن النبي ﷺ بعد انتصاره في حنين لم يبق من قبائل هوازن التي اشتركت في هذه المعركة ضده ، من يهتم بأمره سوى ثقيف الذين وجه كل قواته لمطاردتهم ، وقاد هذه المطاردة بنفسه ، حتى وصل إلى الطائف فوجد ثقيفاً قد تحصنت في قلاعهم فحاربهم عليها الحصار سبعة عشر يوماً ، ولكن لشدة امتناعهم بمحصولهم في الطائف تركهم ﷺ دون أن ينال منهم شيئاً ، حتى هداهم الله للإسلام ، فجاءوا إلى المدينة وأعلنوا إسلامهم طائعين .

مصير قبائل هوازن

وهذا يعنى أن قوة جميع القبائل الهوازنية (ما عدا ثقيف) قد تلاشت ، لا سيما بعد أن أسلم ملكهم وسيدهم الشاب القائد مالك بن عوف النصرى ، وتحول إلى قائد يحارب إلى جانب الإسلام .

وقبل التحدث عن نتائج مطاردة النبي ﷺ لثقيف من حنين وضربه الحصار عليهم في قلاعهم ، لابد من إعطاء القارئ الكريم لمحة عن تاريخ قبائل ثقيف ، وعن مدى مركزها في التاريخ الجاهلي والإسلام .

تاريخ ثقيف

فالذى يذكره المؤرخون وأصحاب الأنساب ، أن ثقيفاً بطن من هوازن . وهوازن هو ابن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

وهوازن الذى تنتسب إليه ثقيف قد تفرّعت عنه فخاند كثيرة ، تجمعهم قبائل رئيسية ثلاث كلها لبكر بن هوازن وهم .

أولاً .. بنو سعد بن بكر .

ثانياً .. بنو معاوية بن بكر ، الذين منهم مالك بن عوف النصرى .

ثالثاً .. بنو منبه بن بكر . وإلى هذا الأخير تنتسب ثقيف .

وثقيف اسمه قسي (بفتح القاف وكسر السين) ابن منبه بن بكر بن هوازن ، وقد تفرع عن قسي هذا عدة قبائل ، اشتهروا فيما بعد باسم أبيهم

ثقيف .

ومن أهم هذه القبائل ، بنو جهم بن ثقيف ، وبنو عوف بن ثقيف — ومنازل بنى عوف هؤلاء فى وادى لية — وكانت لهم به حصون ، وكل هذه القبائل تقسم إلى قبيلتين هما الأحلاف وبنو مالك ، وهم الذين اشتروا (مشركين) فى معركة حنين تحت هذين الاسمين .

أما موطنهم الأصلى فهو الطائف وضواحيها ، وكانت ثقيف فى الجاهلية قوة حربية لها وزنها ، وقُل أن خاضت معركة فى الجاهلية مشهورة ، انتصرت فيها كلها على خصومها .

فمن تاريخ ثقيف الحربى فى الجاهلية أن خثعم (وهم جيل من اليمن) غزو ثقيفاً فى الطائف فخرجت إليهم ثقيف ، على رأسهم سيدهم غيلان بن سلمة ، فقاتلهم قتالاً شديداً حتى هزمهم ، بعد أن أحدث فيهم مقتلة عظيمة ، وأسر عدة منهم ثم منّ عليهم .

ومن أيامهم التى انتصروا فيها ، يوم وادى وجّ ، وهو واد مشهور بالطائف . ولعل أعظم الأيام التى انتصرت فيها ثقيف فى الجاهلية ، هى تلك المعركة التى دارت بينهم وبين بنى عامر بن ربيعة من هوازن . فقد جاء فى معجم قبائل العرب : أن بنى عامر بن ربيعة هؤلاء ، جمعوا جموعاً كثيرة من أنفسهم وأحلافهم ، ثم ساروا إلى ثقيف فى الطائف ، وكانت بنو نصر بن معاوية أحلافاً لثقيف ، فلما بلغ ثقيفاً مسير بنى عامر ، استنجدوا ببني نصر ، فأنجدهم ، فخرجت ثقيف إلى بنى عامر ، وعلى ثقيف غيلان بن سلمة بن متعب ، فلقوهم وقاتلتهم ثقيف قتالاً شديداً ، فانهزمت بنو عامر ومن كان معهم وظهرت ثقيف عليهم ، فأكثرُوا فيهم القتل .

وفى سبب تسمية بلدهم بالطائف ، ذكر البكرى فى معجم ما استعجم أن بنى ثقيف عرفوا فضل المكان الذى يسمى اليوم بالطائف ، وكان لبني عامر بن ربيعة من هوازن ، فقالوا لبني عامر : إن هذه بلاد غرس وزرع ، وقد رأيناكم اخترتم المراعى عليها ، فأضررت بعمارتها وأعمالها ، ونحن أبصر بعملها منكم ، فهل لكم أن تجمعوا الزرع والضرع وتدفعوا بلادكم هذه إلينا فنشيرها حرثاً (أعناباً وثماراً وشجاراً) ونكظمها كظائم ونحفرها أطواء ، ونغلاها عمارة

وجناناً بفراغنا لها وإقبالنا عليها وشغلكم عنها واختياركم غيرها ؟.

فإذا بلغت وأدركت الثمار شاطرناكم ، فكان لكم النصف بحكمكم في البلاد ولنا النصف بعملنا فيها ، فكنتم بين ضرع وزرع ، لم يجتمع لأحد من العرب مثله ، فدفعت بنو عامر الطائف إلى ثقيف لعمارتها ، فكانت بنو عامر تحيي أيام الصرام (الحصاد) فتأخذ نصف الثمار كلها كيلاً ، وتأخذ ثقيف النصف الثاني .

وكانت عامر وثقيف تمنع الطائف من أرادهم ، فلبثوا بذلك زماناً من دهرهم ، حتى كثرت ثقيف ، فحصنوا الطائف ، وبنو عليها حائطاً يطيف بها ، فسميت (الطائف) فلما قوا بكثرة حصونهم ، امتنعوا من بنى عامر فلم تصل إليهم ولم يقدروا عليهم ، ولم تنزل العرب مثلها داراً . اهـ .

ثقيف عند ظهور الإسلام

وكانت ثقيف شديدة التمسك بالكفر والضلال حتى أنهم امتنعوا في حصنهم عام ثمان للهجرة تمسكاً بالشرك ، ولم يدخلوا في الإسلام إلا في السنة التاسعة من الهجرة ، إلا أن النبي ﷺ بدلاً من أن يدعو عليهم لشدة كفرهم ، دعا لهم فأقبلوا جميعاً فأسلموا . فقد ذكر المؤرخون أن النبي ﷺ لما انصرف من الطائف ولم يقدر على حصن ثقيف ، قيل له : يا رسول الله ادع على ثقيف . فقال : اللهم اهد ثقيفاً وأت بها ، فجاءت ثقيف بإسلامها إلى المدينة طائعة مختارة . بفضل الله ثم بفضل دعاء الرسول ﷺ .

ثقيف تستقدم المنجنيقات للدفاع

عندما تحرك النبي ﷺ من المدينة يريد الاستيلاء على مكة وتحريرها من نير الوثنية ، عقب نقض قريش صلح الحديبية ، ظنت ثقيف أن النبي ﷺ يريد مهاجمتها ، فأبلغت إخوانها من قبائل هوازن ، ثم بعثت بسيدها عروة بن مسعود^(١) وآخرين إلى جرش بالأردن ليتدربوا على الأسلحة الثقيلة وصنعها هناك . والتي تمثل المنجنيق والعرادات والدبابات وغير ذلك من الأسلحة الثقيلة التي لا تستعمل إلا عند مهاجمة الحصون أو الدفاع عنها .

(١) انظر ترجمة عروة بن مسعود في كتابنا (صلح الحديبية) .

وكانت جرش^(١) في ذلك العهد مدينة عربية واقعة تحت نير الحكم الروماني ، وأهلها مشهورون بصناعة الأسلحة الثقيلة ، لذلك بعثت ثقيف بسيدها عروة ابن مسعود ووفد يصاحبه لتعلم صنع هذه الأسلحة والتدرب عليها لاستخدامها في الحرب ضد المسلمين عندما يضربون الحصار على الطائف . فتقذفهم ثقيف بمقذوفات آلتها الراجمة بالحجارة والذهب من منجنيق وعرادات وسهام ضخمة تحمل النيران .

العمليات الحربية قبل حصار الطائف .

وقبل أن يتحرك الرسول ﷺ من حنين لمحاصرة ثقيف في الطائف أمر الطفيل بن عمرو^(٢) الدوسي أن يتوجه إلى قومه فيهدم صنمهم (ذا الكفين)^(٣) صنم عمرو بن حممة كما أمره أن يستمد قومه (دوس) ليعينوا الجيش النبوي في قتاله ثقيفاً . وأمر الرسول ﷺ الطفيل بن عمرو أن يوافيه

(١) جرش بضم الجيم وفتح هـ . مدينة في الشام تقع اليوم آثارها ضمن المملكة الأردنية الهاشمية ، كذلك يوجد ناحية نجران موضع يقال له : (جرش) .

(٢) هو الطفيل بن عمرو بن طريف بن العاص الدوسي ، ودوس بطن من الأزد - يُلقَّب بذي النون ، كان شاعراً شريفاً مطاعاً في قومه ، من السابقين الأولين في الإسلام ، أسلم على يد الرسول ﷺ في مكة قبل الهجرة ، وقصة إسلامه قصة شيقة (انظر مفصلة في أسد الغابة والإصابة والاستيعاب) بعد أن أسلم الطفيل عاد إلى قومه فدعاهم إلى الاسلام فأسلموا ، وفي كتب التراجم أن الطفيل قال : يا رسول الله اني امرؤ مطاع في قومي وأنا راجع إليهم وداعهم إلى الاسلام ، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه ، فقال : اللهم اجعل له آية . قال : فخرجت إلى قومي لحني إذا كنت بثنية تطلعي على الحاضر . وقع نور بين عيني مثل المصباح . قال : فقلت : اللهم في غير وجهي فإني أخشى أن يظنوها مثله لفراق دينهم ، فتحولت في رأس سوطي فجعل الحاضر يترآون ذلك النور في سوطي كالقنديل المعلق وأنا أهبط إليهم من الثنية ، فلما نزلت أتاني أتي وكان شيخاً كبيراً ، فقلت : إليك عني يا أبت فلست منك ولست مني . قال : ولم أي بني ؟ قلت : إني أسلمت . قال أي بني فدينك ديني فأسلم ، ثم أتتني صاحبتني فقلت لها مثل ذلك فأسلمت ، وقالت : أخاف على من ذي الشرى (صنم لهم) فقلت : لا .. أنا ضامن لذلك ، ثم دعوت دوساً فأبطلوا عن الإسلام . فرجعت إلى رسول الله ﷺ بمكة فقلت : يا رسول الله إنه قد غلب على دوس الربا فادع الله عليهم . فقال : اللهم اهد دوساً . ارجع إلى قومك فادعهم وأرفق بهم ، قال . فرجعت فلم أزل بأرض قومي أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجروا إلى النبي ﷺ إلى المدينة .. قتل الطفيل بن عمرو شهيداً باليامة ، وجرح ابنه عمر بن الطفيل ثم عوف وقتل عام اليرموك في خلافة عمر بن الخطاب شهيداً .

(٣) ذو الكفين : صنم للدوس ، (انظر كتاب الأصنام للكلبى) .

بقومه في الطائف . وكان الطفيل بن عمرو من السابقين الأولين في الإسلام ومطاعاً في قومه . فصعد الطفيل بن عمرو بأمر الرسول ﷺ .

وقبل أن يتحرك الطفيل لتحطيم الصنم . قال : يا رسول الله أوصني . قال : أفش السلام وأبذل الطعام ، واستحي من الله كما يستحي الرجل ذو الهبة من أهله ، إذا أسأت فأحسن ، ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ ^(١) . فخرج الطفيل سريعاً إلى قومه ، فهدم ذا الكفين (الصنم) وجعل يحشو النار في جوفه ويقول :

يا ذا الكفين لست من عبادكا ميلادنا أقدم من ميلادكا
أنا حشوت النار في فؤادكا

وقد استجاب قوم الطفيل بن عمرو له . فانضوى تحت قيادته أربعمائة من قومه المسلمين وافي بهم الطفيل النبي ﷺ وهو بالطائف .

وقد حمل الأزد معهم إلى الطائف من السلاح الثقيل دبابة ومنجنيق . وعندما أرادوا التحرك إلى الطائف . قال بعضهم : يا معشر الأزد ، من يحمل رايتكم ؟ قال الطفيل بن عمرو : من كان يحملها في الجاهلية ، قالوا أصبت ، وهو النعمان بن الزرافة اللهبي ^(٢) وصلت الأزد الطائف بعد وصول النبي ﷺ إليها بأربعة أيام ^(٣) .

النبي يتحرك إلى الطائف

وهكذا بعد انتهاء معركة حنين على النحو الذي انتصر فيه المسلمون ذلك الانتصار الساحق على هوازن ، وبعد أن أرسل النبي ﷺ بالغنائم والسبي إلى الجعرانة (قرب مكة) أخذ في مطاردة القوات الرئيسية من هوازن بنفسه . وكانت هذه القوات من ثقيف الذين لجأوا إلى حصنهم واعتصموا به في الطائف .

خالد على مقدمة الجيش إلى الطائف :

وعندما قرر الرسول ﷺ التحرك إلى الطائف لمطاردة ثقيف جعل خالداً

(١) سورة هود ١١٤ .

(٢) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من مصادر .

(٣) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٢٣ .

ابن الوليد على مقدمة الجيش ، وكان خالد دائماً منذ خرج الجيش النبوى من مكة إلى حنين — على الخيل . كما أن الرسول ﷺ استخدم الأدلاء العارفين بالطرق ليسيروا أمام الجيش فى طريقه إلى الطائف .

وما زال الرسول ﷺ يقوم بعملية المطاردة حتى وصل الطائف . وقد سلك الرسول بالجيش إلى الطائف وادى نخلة المعروف اليوم (باليمانية) كما سلك وادى لية المشهور .

قال الواقدى : وقدم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد من حنين على مقدمته وأخذ يسلك به من الأدلاء إلى الطائف ، فأنهى رسول الله ﷺ إلى الطائف .. وكانت ثقيف قد رموا (أى أصلحوا) حصنهم ، ودخلوا فيه منهزمين من أوطاس وأغلقوه عليهم — وهو حصن على مدينتهم له بابان — وصنعوا الصنائع للقتال وتهاووا ، وأدخلوا حصنهم ما يصلحهم لسنة لو حوصروا . وقال ابن إسحاق : ولما قدم فل^(١) ثقيف الطائف أغلقوا أبواب مدينتها وصنعوا الصنائع للقتال .

ولم يشهد حنيناً ولا حصار الطائف عروة بن مسعود ولا غيلان بن سلمة كانوا بجرش يتعلمان صنعة الدبابات^(٢) والمجانيق^(٣) والضبور^(٤) ثم سار ، رسول الله ﷺ إلى الطائف حين فرغ من حنين ، فسلك على نخلة اليمانية ، ثم على قرن ثم على الميخ ، ثم على بحرة الرغاء من لية فابتنى بها مسجداً فصلى فيه . ثم إنه أقاد يومئذ ببخرة الرغاء ، حين نزلها ، بدم ، وهو أول دم أقيد به فى الإسلام ، رجل من بنى ليث قتل رجلاً من هذيل ، فقتله به ، وأمر رسول الله ﷺ وهو بلية بحصن مالك بن عوف (قائد هوازن) فهدم ، ثم سلك فى طريق يقال لها : الضيقة ، فلما توجه سأل عن اسمها ؟ فقيل له : الضيقة .

(١) الفل (يفتح أوله) : الجماعة المنهزمون من الجيش .

(٢) قال السهيلي : الدبابات ، من آلات الحرب ، يدخل فيها الرجال فيدبون بها إلى الأسوار لينقبوها .

(٣) المجانيق : جمع منجنيق (يفتح الميم وكسرهما) : وهى آلات الحصار يقذف بها المحاربون النار والحجارة ونحوها .

(٤) الضبور قال فى كتاب العين : جلود يغشى بها خشب يتقى بها فى الحرب وهى تشبه الدبابات المعدة لنقب الأسوار .

فقال : بل هي اليسرى ، ثم خرج منها على نخب ، حتى نزل سدره يقال لها : الصادرة قريباً من مال رجل من ثقيف ، فأرسل إليه رسول الله ﷺ : إما أن تخرج ، وإما أن نخرب عليك حائطك ، فأبى أن يخرج فأمر رسول الله ﷺ بإخراجه (١) .

بداية حصار الطائف

ثم واصل الرسول ﷺ التحرك بجيشه نحو الطائف بعد أن بلغه أن ثقيفاً قد اعتصموا به ، وكانوا محاربين أشداء شديدي التعصب لإلههم (اللات) التي جاء ذكرها في القرآن الكريم .

وقد عسكر الرسول ﷺ بجيشه تمهيداً لاقتحام قلاع الطائف في مكان مكشوف غير استراتيجي وقرب من الحصون الثقفية ، وكانت ثقيف يجيدون الرمي بالسهم والقذف بالحرب من على الأبراج ، فما كاد الجيش الإسلامي يحيط أنقاله في معسكره الأول حتى تعرض لقصف شديد من النبال التي انهالت على الجيش الإسلامي كأنها الجراد ، وقد أصيب من المسلمين (نتيجة هذا القصف) أناس كثير ، الأمر الذي حمل الرسول ﷺ على أن يبدل معسكره ، حيث عسكر في مكان بحيث يكون جنده في مأمن من سهام العدو .

وكان هذا التحول بمشورة المحارب المجرب الأنصاري الشهير (الحباب بن المنذر) (٢) صاحب الفكرة يوم بدر والتي بموجبها غير الرسول ﷺ موقعه الأول بعد أن عمل بمشورة (الحباب بن المنذر) فعسكر في أرض استراتيجية منها أدار الرسول ﷺ معركة بدر الكبرى وتم له الانتصار فيها . كما كان كذلك (الحباب بن المنذر) المشير على الرسول ﷺ في حصار اليهود بخيبر ، بتغير موقعه الذي كان قد عسكر فيه لمحاصرة اليهود وأصيب من أصحابه بسهام اليهود التي قصفوهم بها من أبراج القلاع ، خلق كثير ، وكذلك فعل الحباب في حصار الطائف ، حين رأى الرسول ﷺ يعسكر في مكان كان من

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٢٣ / ٩٢٤ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٢١ و ١٢٥ .

(٢) انظر ترجمة الحباب بن المنذر في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

وجهة الخبير العسكري الحباب بن المنذر ، غير مناسب لأن يكون معسكراً
لفرض الحصار على حصون ثقيف .

قال الواقدي : ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل قريباً من حصن الطائف ،
فيضرب عسكره هناك ، فساعة حل رسول الله ﷺ وأصحابه جاءه الحباب
ابن المنذر . فقال : يا رسول الله : إنا قد دنونا من الحصن ، فإن كان عن أمر
سلمنا ، وإن كان عن الرأي فالتأخر عن حصنهم ، فأسكت رسول الله ﷺ^(١) .

ولكن الرسول ﷺ عمل في النهاية برأى الحباب بن المنذر ، حيث
استدعاه وطلب منه (بصفته خبير مجرب) أن يختار مكاناً صالحاً لأن يعسكر
فيه الجيش في مأمن ، من سهام العدو . وذلك بعد أن أصيب عدد من جند
الإسلام بجراح من جراء قصف النبال الثقفية .

ولترك أحد الصحابة الكبار ممن حضر حصار الطائف وهو (عمرو بن
أمية الضمري)^(٢) يصف لنا بداية الحصار وتحويل موقع العسكر بمشورة
الحباب بن المنذر . قال عمرو : لقد طلع علينا نبلهم ساعة نزلنا شيء الله به
عليم . كأنه رجل^(٣) من جراد ، وترسنا لهم ، حتى أصيب ناس من
المسلمين بجراحة ، ودعا رسول الله ﷺ الحباب فقال : انظر مكاناً مرتفعاً
مستأخراً عن القوم . فخرج الحباب حتى انتهى إلى موضع مسجد الطائف
خارج من القرية . فجاء إلى النبي ﷺ فأخبره فأمر رسول الله ﷺ
أصحابه أن يتحولوا . قال عمرو بن أمية : إني لأنظر إلى أئى محجن يرمى من
فوق الحصن بعشرته^(٤) بمعايل^(٥) كأنها الرماح ، ما يسقط له سهم .

قالوا : وارتفع رسول الله ﷺ عند مسجد الطائف اليوم ، ويصفون خرافة
جاهلية قبيحة لجأت إليها ثقيف ضمن الدفاع عن حصنها . قالوا : وأخرجت
ثقيف امرأة ساحرة فاستقبلت الجيش بعورتها — وذلك حين نزل الرسول

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٢٥ .

(٢) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة أحد) .

(٣) الرجل (بكسر الراء) : الشيء الكثير جداً ويختص بالجراد فقط .

(٤) العشرة (بكسر العين) : الصلبة .

(٥) المعايل : جمع معبل : وهي نصال طوال عراض ، يرمى بها المتحصنون في القلاع عادة .

ﷺ — يدفعون بتلك الخرافة عن حصنهم .

فلما تحول الرسول ﷺ إلى الأكمة التي اختارها الحباب بن المنذر ، وسار المسلمون إلى الحصن ، فخرج قدام الناس يزيد بن زعمة بن الأسود^(١) على فرسه ، فسأل ثقيفاً الأمان يريد أن يكلمهم ، فأعطوه الأمان ، ولكنهم غدروا به ، ذلك أنه لما دنا من حصنهم رموه بالنبل فقتلوه . فكان أول شهيد من المسلمين في حصار الطائف .

مصرع قاتل يزيد بن زعمة

وقد أوقع الله بالذى غدر بالشهيد يزيد بن زعمة (وهو هذيل بن أئى الصلت) أخو الحكيم والشاعر المشهور (أمية بن أئى الصلت) ، فقد خرج هذيل هذا من الحصن خلسة ، لقضاء حاجة له ، وهو يظن أن المسلمين لا يراه منهم أحد ، غير أن يعقوب بن زعمة^(٢) ، أخو الشهيد (يزيد بن زعمة) كان له بالمرصاد ، حيث كمن له عند باب الحصن ، وعندما خرج هذيل بن أئى الصلت ، قبض زعمة عليه وأسره ، ثم أتى به رسول الله ﷺ وقال : هذا قاتل أخى يا رسول الله ، فأمكنه الرسول ﷺ منه ، فضرب عنقه .

محاولة المسلمين اقتحام حصن الطائف

وقد بذل الجيش الإسلامى جهوداً مضنية لاقتحام حصن الطائف وفتحه ، ولكن مقاومة ثقيف كانت عنيفة ومركزة .

وللمحاولة التأثير على الثقيفين وإضعافهم بغية إجبارهم على التسليم . استخدم الجيش النبوى المنجنيق فضرب به قلاع الطائف وتهديم ما يمكن تهديمه منها .

(١) هو يزيد بن زعمة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى القرشى الأسدى ، أمه قريبة بنت أئى أمية المخزومية أخت أم سلمة زوج النبى ﷺ . أسلم قديماً ، وكان ممن هاجر إلى الحبشة ، وصحب النبى وروى عنه الحديث كانت إليه المشورة فى الجاهلية ، وذلك أن قريشاً لا يتون فى أمر إلا عرضوه عليه . فإن رضيه سكت ، وإن لم يرضه كانوا له أعواناً حتى يرجع إلى مكان من أشراف قريش .

(٢) هو يعقوب بن زعمة بن الأسود . قال ابن الأثير فى أسد الغابة أورده جعفر فى الصحابة . وروى عن عبد الرزاق عن ابن جريج عن عمرو بن شعيب عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ خرج حمار من شعب أئى دب فأمسك النبى ولم يكبر ، وأحاز إليه يعقوب ابن زعمة أخو بنى أسد حتى رده .

بغية فتح الطريق من ثغرات في الأسوار ليقترحم الجيش الإسلامى الحصون .
ولكن يظهر أن سلاح المنجنيق لم يؤثر التأثير المطلوب في قلاع الطائف .
فظل الثقفون ومن معهم من هوازن صامدين في حصونهم ، وكانوا رماة نبل مشهورين بإصابة الهدف .

وقد قامت عناصر من الجيش بمحاولة جريئة ، بغية إيجاد السبيل لجمهرة الجيش كى يقتحموا الحصن فيختصروا متاعب الحرب .

وهذه المحاولة الجريئة هي أن مجموعة (يمكن تسميتهم بالفدائيين) زحفوا (مستترين وراء الدبابات) على الحصن حتى وصلوا إلى أسواره ، محاولين (تحت حماية الدبابات) إحداث فتحات في السور عن طريق نقبه ، حتى يتمكن العسكر الإسلامى من الدخول إلى الحصن ، وهناك يضعون حداً للحرب ، لأن المسلمين على ثقة بأنهم سيتغلبون على المشركين إذا ما تمكنوا من اقتحام الحصن والتحموا معهم في معركة فاصلة .

زرع الحسك حول قلاع الطائف

ومن جهة أخرى (ولكى تعطل تحركات الثقفين) قامت قيادة الجيش الإسلامى ببيت الحسك حول قلاع الطائف . (والحسك — بفتح أوله وثانيه —: قطع من الحديد صغيرة على هيئة شوك الحسك النباقي ذوى الإبر الحادة المتعددة ، وهو من أدوات الحرب يلقي به حول المعسكرات والحصون ليعيق تحركات العدو ، فيؤذى المشاة ويعطل حركات الخيل ، لأنه يعلق بجوارفها فيؤلمها فلا تقوى على الجرى) .

وقد لجأ المسلمون إلى استخدام الحسك كوسيلة من وسائل تعويق تحركات العدو ، بإيقاعه في حقول الحسك إذا ما حاول رجاله الهجوم على الفدائيين الذين تحركوا — تحت حمايات الدبابات — لنقب أسوار الحصن الرئيسى لثقيف .

فشل الهجوم الفدائى على حصن ثقيف

غير أن محاولة الفدائيين المسلمين لفتح الثغرات في جدار الحصن قد فشلت . فقد تنبه الثقفون للمحاولة (وكانوا مسلحين بأسلحة دفاعية ثقيلة

من قاذفات للهب وغيرها) فأحبطوها ، حيث سلطوا آلاتهم الراجمة بالنار على دبابات الفدائيين الذين وصلوا أسوار الحصن ، فأحرقوا الدبابات التي كان يتستر بها الفدائيون . فأنكشف هؤلاء الفدائيون ، فقصفهم الثقفيون بسهامهم وأحراهم ، وأحدثوا بينهم بعض الإصابات ما بين قتل وجريح ، وهنا اضطر الفدائيون إلى التراجع إلى معسكر الإسلام .

قال أصحاب السير : فنصب رسول الله ﷺ المنجنيق . وشاور رسول الله ﷺ أصحابه . فقال له سلمان الفارسي^(١) يا رسول الله أرى أن تنصب المنجنيق على حصنهم ، فإننا كنا بأرض فارس ننصب المنجنيقات على الحصون وتنصب علينا ، فنصيب من عدونا ويصيب منا بالمنجنيق ، طال الثواء ، فأمره رسول الله ﷺ بعمل منجنيقاً بيده ، فنصبه على حصن الطائف . وذلك بالإضافة إلى منجنيق ودبابتين قدم بهما الطفيل بن عمرو الدوسي . ونشر رسول الله ﷺ الحسك حول حصنهم ، ودخل المسلمون تحت الدبابة وهي جلود من جلود البقر ، وذلك يوم يقال له : الشدخة قيل : وما الشدخة ؟ قالوا : ما قتل من المسلمين — دخلوا تحت الدبابات ، ثم زحفوا بها إلى جدار الحصن ليحفروه ، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار فحرقت الدبابات ، فخرج المسلمون من تحتها ، وقد أصيب منهم من أصيب ، فرمتهم ثقيف بالنبل فقتل منهم رجال^(٢) .

(١) هو سلمان الفارسي ، ويكنى أبو عبد الله ، ويعرف بسلمان الخير ، مولى رسول الله ﷺ ، وسئل سلمان عن نسيه ، فقال : أنا سلمان بن الإسلام . أصله من فارس رام هرمز وكان اسمه قبل الإسلام (مابه ابن يوذخشان بن مورسلان بن يهودان بن فيروز بن سهرك من ولد آب الملك ، وكان ببلاد فارس مجوسياً سادن النار . ثم هداه الله للإسلام فجاء من بلاد الفرس يبحث عن دين التوحيد حتى وصل المدينة فأسلم في قصة شيقة مطولة (انظرها في أسد الغابة والإصابة والاستيعاب والحلية لأبي نعيم) . كان سلمان من عظماء الصحابة ، وكان في مقدمة الزهاد بينهم . وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ (سلمان منا أهل البيت) . كان سلمان صاحب فكرة حفر الخندق لحماية المدينة من هجوم الأحزاب (انظر كتابنا غزوة الأحزاب) ، كان عطاؤه من بيت المال خمسة آلاف ، فإذا استلمه فرقه على المحتاجين . وكان لا يأكل إلا من كسب يده حيث كان (وهو أمير بالعراق) يسف الخوص به ويبيعه ويأكل من ثمنه . توفي سلمان في آخر خلافة عثمان سنة خمس وثلاثين ، وفي أسد الغابة عن أهل العلم : أن سلمان عاش ثلاثمائة وخمسين سنة ، وقال أبو نعيم في الحلية : كان سلمان الفارسي من المعمرين .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٢٦ ، ومعازي الواقدي ج ٣ ص ٩٢٧ — ٩٢٨

خروج بعض مقاتلي ثقيف من الحصن وإسلامهم :

وأثناء حصار الطائف خرج من الحصن من ثقيف (من مواليهم) بضعة عشر رجلاً وانضموا إلى معسكر المسلمين وأسلموا ، وذلك بعد أن نادى منادى رسول الله ﷺ بأن أى عبد نزل من الحصن ووصل إلى معسكر المسلمين فهو حر .

قال الواقدي : ونادى منادى رسول الله ﷺ أيما عبد نزل من الحصن فهو حر ، فخرج من الحصن بضعة عشر رجلاً .

أبو بكر^(١) والمنبعث^(٢) — وكان اسمه المضطجع فسماه رسول الله ﷺ المنبعث حين أسلم ، وكان عبد العثمان بن عمار بن معتب .. كما خرج الأزرق ابن عقبة بن الأزرق ، وكان عبداً للكلدة الثقفي من بنى مالك ، ثم صار حليفاً في بنى أمية فنكحوا إليه وأنكحوه . ووردان عبد لعبد الله بن ربيعة الثقفي ، وهو جد الفرات بن زيد بن وردان .. ويخمس النبال وكان عبداً ليسار ابن مالك فأسلم سيده بعد ، فرد النبي ﷺ إليه ولأه — فهم أعبد الطائف .. وإبراهيم بن جابر ، كان عبداً لخرشة الثقفي .. ويسار ، عبد لعثمان ابن عبد الله لم يعقب ، وأبو بكر بفتح أوله وثانيه نفع بن مسروح ، وكان للحارث بن كلدة ، وإنما كنى بابى بكر لأنه نزل في بكر^(٣) من الحصن .. ونافع أبو السائب ، عبد لغيلان بن سلمة فأسلم غيلان بعد ، فرد النبي ﷺ إليه ولأه .. ومرزوق غلام لعثمان ، لا عقب له .

كل هؤلاء أعتقهم رسول الله ﷺ كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين

(١) أبو بكر اسمه نفع بن الحارث بن كلدة ، هو مولى الحارث بن كلدة . أسلم أبو بكر أثناء حصار الطائف ، وكان من خيار الصحابة ومشاهيرهم . كان أبو بكر كثير العبادة . وكان من رواة الحديث عن رسول الله ﷺ وهو الذي روى عن رسول الله ﷺ حديث : إذا التقى المسلمان فقتل أحدهما صاحبه ، فالقاتل والمقتول في النار . قال الحسن البصري : لم ينزل البصرة من الصحابة ممن سكنها أفضل من عمران بن حصين وأبى بكر . توفي أبو بكر سنة إحدى وقيل اثنين وخمسين وأوصى أن يصلى عليه أبو برة الأسلمي .

(٢) كان اسمه المضطجع ، فسماه النبي ﷺ منبعثاً . وقد أسلم وحسن إسلامه .

(٣) البكرة (بفتح أوله وثانيه : هي ما يستقى عليها من البئر . وهي خشبة مستديرة في وسطها محز للحبل وفي جوفها محور تدور عليه ، قاله في لسان العرب .

يمونه ويحمّله . فكان أبو بكر إلى عمرو بن سعيد بن العاص وكان الأزرق إلى خالد بن سعيد ، وكان وردان إلى إبان بن سعيد ، وكان يحنس النبال إلى عثمان ابن عفان رضي الله عنه ، وكان يسار بن مالك ، إلى سعد بن عباد . . وإبراهيم بن جابر إلى أسيد بن الحضير ، وأمرهم رسول الله ﷺ أن يقرئوهم القرآن ويعلموهم السنن ، فلما أسلمت ثقيف تكلمت أشرافهم في هؤلاء المعتقين ، فيهم الحارث بن كلدة ، يردّوهم في الرق ، فقال رسول الله ﷺ : أولئك عتقاء الله ، لا سبيل إليهم ، وبلغ ذلك من أهل الطائف مشقة شديدة واغتاظوا على غلمانهم (١) .

ولكن هيات هيات ، فقد أصبح هؤلاء العتقاء ، أبناء الإسلام ، وفي كنفه ، وقد رباهم أشرف تربية ، فأخرج منهم (بعد أن ساوى بينهم وبين مالكيهم في الحقوق) رجالاً كانوا مشاعل هداية ومصابيح إرشاد إلى دروب الخير ، ومنهم أبو بكر الصحابي المحدث الشهير والزاهد المعروف في تاريخ الإسلام .

تصرفات سيد غطفان السيئة بالطائف

ويذكر المؤرخون أن الأحمق المطاع (وهذا لقب عيينة بن حصن الفزاري (٢) سيد غطفان) كان ضمن الجيش النبوي الذي تولى حصار الطائف . وكان عيينة قد أعلن إسلامه وشهد مع الرسول ﷺ فتح مكة . إلا أن الأحداث أثبتت (حسبما يروى المؤرخون) أن هذا السيد البدوي كان (وحتى حصار الطائف) من الذين أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم . وأنه إنما أعلن إسلامه وانضم إلى المسلمين ، طمعاً (فقط) في أن يحصل على حظه من الغنائم والسبي ، بعد أن تأكد لديه أن كفة المسلمين هي الراجحة ، وأن لا أمل لمن يبقى على الشرك من العرب في التغلب عليهم .

ويؤيد ما ذكرنا أن الأحمق المطاع عيينة بن حصن هذا كان أحد قادة الفتنة العارمة عندما ارتد العرب في أواخر حياة الرسول ﷺ وأوائل خلافة أبي بكر

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٢٧ - ١٢٨ ومغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٣١ - ٩٣٢ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٤٧ .

(٢) أنظر ترجمة عيينة بن حصن هذا في كتابنا (غزوة بدر) .

الصدى . فقد خاض عينة بن حصن الفزارى هذا ، المارك الطاحنة إلى جانب طليحة بن خويلد الأسدى ضد المسلمين فى معركة براخة الحاسمة .. هذا الزعم الغطفانى الذى تألفه الرسول ﷺ وجعله ضمن هيئة أركان حربى لكونه سيداً مطاعاً تتبعه عشرة آلاف ربح فى نجد . فدخل النبى ﷺ مكة يوم الفتح ، وعينة هذا عن يمينه والأقرع بن حابس سيد بنى تميم عن شماله ، عينة هذا الذى أعطاه الرسول ﷺ من غنائم حنين مائة من الإبل — تصرف أثناء حصار الطائف تصرفاً شائناً إذ قام بدور الجاسوس ضد الإسلام وجيشه الذى كان يفرض الحصار على الطائف ، وأثبت أن ظاهره مع المسلمين وباطنه مع المشركين .

فقد جاء فى كتب السير والمغازى ، أن عينة بن حصن هذا لما طال الحصار على الطائف دون جدوى ، وعرف (كعنصر محارب فى جيش الإسلام) أن هذا الجيش لا يمكنه اقتحام معاقل الطائف لشدة تحصينها ، استأذن من الرسول ﷺ فى أن يفاوض ثقيفاً ، متظاهراً بأنه سيفاوض لصالح المسلمين ، فقال : يا رسول الله ائذن لى حتى آتى حصن الطائف ، فأكلمهم ، فأذن له الرسول ﷺ ، فجاءهم فقال : أأذنوا منكم وأنا آمن ؟ قالوا : نعم ، وعرفه أبو محجن . فقال : أذن ، فدنا ثم استأذن ثقيفاً فى أن يدخل إليهم الحصن فأذنوا له .

فلما اجتمع بهم فى الحصن (وبدلاً من أن يدعوهم إلى الإسلام وينصحهم بالاستسلام) حثهم على الاستمرار فى مقاومة المسلمين شارحاً لهم حقيقة ما عليه المسلمون من أنهم غير قادرين على الاستمرار فى فرض الحصار عليهم . مظهراً سروره واعتباطه بما أبدته ثقيف من مقاومة عنيدة جعلت الجيش الإسلامى عاجزاً عن اختصار الحرب بفتح الحصن .

فقد قال عينة لثقيف : فداءكم أبى وأمى ، والله لقد سرتنى ما رأيت منكم ، والله لو أن فى العرب أحداً غيركم ، والله ما لاقى محمد مثلكم قط ، ولقد ملّ المقام ، فائتبتوا فى حصنكم ، فإن حصنكم حصين ، وسلاحكم كثير ، وماءكم واتن ، لا تخافون قطعه . ثم خرج ، فلما خرج قالت ثقيف لأبى محجن : فإننا كرهنا دخوله وخشيننا أن يخبر محمداً بخلل إن رآه فىنا أو فى حصننا . قال أبو

محجن : أنا كنت أعرف له ، ليس أحد أشد على محمد منه وإن كان معه (١) .

وعندما عاد عيينة بن حصن إلى معسكر المسلمين حاول تضليلهم والكذب عليهم ، حيث أراد أن يوهمهم بأنه قدم النصيحة لثقيف بأن يأخذوا الأمان لأنفسهم لأن الرسول لن ينصرف عنهم حتى يقتحم عليهم معاقلهم .. ولكن الرسول ﷺ فضح عيينة وبين أنه قد كذب بعد أن أطلع الله نبيه على خبية عيينة هذا .

فقد سأل الرسول ﷺ عيينة : ما قلت لهم ؟ قال : قلت : ادخلوا في الإسلام ، والله لا يرح محمد عقر داركم حتى تنزلوا ، فخذوا لأنفسكم أماناً ، قد نزل بساحة أهل الحصون قبلكم . قينقاع ، والنضير ، وقریظة ، وخيبر أهل الحلقة والعدة والآطام . فخذلتهم ما استطعت — ورسول الله ﷺ ساكت عنه — حتى إذا فرغ من حديثه قال له رسول الله ﷺ : كذبت ، قلت لهم كذا وكذا ، للذي قال عيينة . فأسقط في يده ، ولم ينكر . وقال : استغفر الله ، فطالب عمر بن الخطاب الرسول ﷺ بأن ينفذ الإعدام في عيينة لارتكابه الخيانة العظمى . فقد قال عمر يا رسول الله ، دعني أقدمه فأضرب عنقه . ولكن الرسول ﷺ لم يجب عمر إلى طلبه حين قال : لا يتحدث الناس أني أقتل أصحابي .

وقد أغلظ أبو بكر الصديق يومئذ في القول لعيينة بن حصن للذي صنع . فقال له : ويحك يا عيينة إنما أنت توضع في الباطل ، كم لنا منك من يوم بنى النضير ، وقریظة ، وخيبر ، تجلب علينا وتقاتلنا بسيفك ، ثم أسلمت كما زعمت ، فتحرض علينا عدونا ، قال : أستغفر الله يا أبا بكر وأتوب إليه لا أعود أبداً (٢) .

وهذا الخبر عن عيينة بن حصن تؤكد تصرفات سيد غطفان هذا المنكرة ، عقب وفاة النبي ﷺ حيث أعلن عيينة هذا ، الردة وقاد أول جيش

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٣٢ — ٩٣٣ والسير الحلية ج ٢ ص ٢٤٢ والبدایة والنهاية ج ٤ ص ٣٤٩ .

(٢) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٣٣ والبدایة والنهاية ج ٤ ص ٣٤٨ .

متمرد مرتد لمحاربة الإسلام ، محاولاً (وهو يقود قومه فزارة وبنى أسد) أن يحتل المدينة وينهى حكم الإسلام فيها ، وذلك أثناء غياب أكتية العسكر الإسلامى الذين كانوا قد غزوا الشام بقيادة أسامة بن زيد الكلبي .

ولكن الخليفة الأول بمساندة قبيلة مزينة الباسلة صدّ ذلك الهجوم ودحر عيينة بن حصن والعصاة المرتدين الذين كان يقودهم .

وعندما نشبت معركة بزاحة الرهبة بين المسلمين من جهة بقيادة خالد بن الوليد ، وبين طليحة بن خويلد الأسدى . كان عيينة هذا قائداً عاماً لجيوش غطفان المرتدة ونائباً عن طليحة فى قيادة الجيوش المرتدة كلها . فى بزاحة .

وعندما وقع عيينة فى الأسر وجرى به إلى المدينة ، وانطلق صبيان المدينة يجرون خلفه ويعيرونه قائلين : هذا المرتد عن الإسلام فيقول لهم : والله ما لامس الإسلام قلبى حتى أخرج منه . وقد اختلف المؤرخون فى أمر عيينة ابن حصن ، فمنهم من يقول : أنه جرى إعدامه كزعيم من زعماء الردة ، ومنهم من يقول : إنه أسلم وتاب وحسن إسلامه بعد أن عفى عنه الخليفة الصديق . والله أعلم بالصواب .

خالد بن الوليد يطلب المبارزة

وذكر المؤرخون أنه أثناء حصار المسلمين للطائف برز قائد سلاح الفرسان خالد بن الوليد متحدياً شجعان ثقيف طالباً منهم المبارزة ولكنهم أحجموا ولم يخرج منهم أحد من الحصن فقد نادى خالد : من يبارز فلم يطلع إليه أحد من ثقيف وظلوا مختلفين وراء أسوار وأبراج حصنهم ، وكرر ذلك النداء طالباً البراز فلم يبرز إليه أحد .

ثم (أخيراً) قام سيد ثقيف وزعيمها عبد ياليل فنادى خالداً وأبلغه أن أحداً من ثقيف لن يبرز إليه . وأنهم يفضلون الاعتصام بحصنهم قائلاً : لا ينزل إليك منا أحد ، ولكن نقيم فى حصننا فإن به من الطعام ما يكفينا سنين ، فإن أقمت حتى يذهب هذا الطعام ، خرجنا إليك بأسياقنا جميعاً حتى نموت عن آخرنا^(١) .

(١) السيرة الحلبية

الرسول يأمر بإتلاف بساتين ثقيف ثم يعدل عن ذلك :

لقد بذل المسمون مجهودات كبيرة واتبعوا وسائل شتى لاختصار متاعب الحرب باقتحام أسوار الطائف وفتح قلاعها . فقدفوها بالآلات الراجمة بالحجارة الضخمة وبالنيران ، كما زحف الفدائيون منهم في حماية الدبابات لنقب الأسوار وفتح ثغرات فيها يدخل منها جند الإسلام ، ولكنهم لم ينجحوا ، وظلت قلاع الطائف صامدة في وجه المسلمين . لا يخرج منهم أحد من الحصن ، بل يكتفون بقذف المسلمين المحاصرين بمختلف المقذوفات من سهام ومعايل ونيران لإحراق ما يستخدمه المسلمون من سلاح ثقيل للهجوم على الأسوار . كما فعلوا حين صبوا نيرانهم على الدبابات التي استخدمها الفدائيون المسلمون للهجوم على أسوار الحصن فأحرقوها وجرحوا بعض العناصر من الفدائيين .

ويذكر بعض المؤرخين أن الرسول ﷺ لما استعصى عليهم حصن الطائف أمر بإتلاف مزروعات ثقيف بغية إزعاجهم وإجبارهم على الخروج من قلاعهم . ولكن ثقيفاً ناشدوا الرسول ﷺ الله والرحم أن لا يفعل فعدل عن إتلاف مزروعاتهم ، وبعضهم يذكر أنه أتلف بعض مزروعات ثقيف ثم أمر بإيقاف الإتلاف .

فقد ذكر ابن كثير في البداية والنهاية . أن الرسول ﷺ لما طال الحصار . وقتل عدة من أصحابه . أمر بقطع أعناب ثقيف فوقع الناس فيها يقطعون^(١) .

وذكر بعض المؤرخين أن النبي ﷺ لما أمر بقطع مزروعات ثقيف نادى عمر بن الخطاب سفيان بن عبد الله الثقفي : والله لنقطعن أبا عيالك ، فقال سفيان : إذا لا تذهبون بالماء والتراب ، فلما رأى نادى سفيان : يا محمد ، لم تقطع أموالنا ؟ إما أن تأخذها إن ظهرت علينا ، وإما أن تدعها لله وللرحم^(٢) ، كما زعمت ، قال رسول الله ﷺ : فإني أدعها لله وللرحم .

(١) السورة الحلبية

(٢) قال في المواهب اللدنية : أي للرحم التي بينهم وبين النبي ﷺ ، وذلك أن أمه آمنة ، أمها برة بنت عبد الغزي بن قصي ، وأم برة هذه أم حبيب بنت أسعد ، وأمها برة بنت عوف ، وأمها قلابة بنت =

كما ذكر أيضاً أن اثنين من الجيش الإسلامي وهما (أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة الثقفي) ، تقدما إلى ثقيف فقالا : آمنا حتى نتكلم ، فأمنتهما ثقيف . فدنيا من الحصن ثم ناديا نساءً من قريش وكن في الحصن ، وكانوا يخافون عليهن أن يقعن في السبي — منهم ابنة أبي سفيان بن حرب ، كانت تحت عروة بن مسعود ، لها منه ولد ، اسمه داود بن عروة ، والفراسة بنت سويد بن ثعلبة — كانت تحت قارب بن الأسود^(١) ، لها منه عبد الرحمن ابن قارب ، وامرأة أخرى ، فأبين أن يخرجن .

فلما أبين عليهما ، قال لهما بنو الأسود بن مسعود : يا أبا سفيان ويا مغيرة ، ألا ندلكما على خير مما جئتما له ، إن مال بني الأسود حيث قد علمتما — وكان النبي ﷺ نازلاً بينهم وبين الطائف بواد يقال له العمق (بفتح العين وسكون الميم) — ليس بالطائف مال أبعد رشاءً ، ولا أشد مؤنة منه ولا أبعد عمارة — وأن محمداً إن قطعه لم يعمر أبداً ، فكلماه ليأخذه لنفسه أو ليدعه لله وللرحم ، فإن بيننا وبينه من القرابة ما لا يجهل فكلماه فتركه رسول الله ﷺ^(٢) .

فك الحصار عن الطائف :

لقد بذل الجيش الإسلامي مجهودات عظيمة لاقتحام قلاع الطائف وفتحها ، وكن الحصون كانت منيعة ، وكان الثقفيون مصممين على الصمود ويدافعون عنها بعناد ، وكانوا قد استعدوا لطول الحصار بما خزنوا من مواد غذائية تكفيهم

= الحارث ، وأم قلابة هند بنت يربوع من ثقيف .

(١) هو قارب بن مسعود بن معتب مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف الثقفي ، وهو ابن أخي سيد ثقيف (عروة بن مسعود) . كان قارب من وجوه ثقيف وقادة الحرب فيها . كانت معه راية الأحلاف يوم حاربوا النبي ﷺ في حنين . قال في أسد الغابة : والأحلاف أحد قبيلتي ثقيف ، فإن ثقيفاً قسمان أحدهما بنو مالك والثاني الأحلاف .. كان قارب هذا من عقلاء ثقيف وذوى البصائر .. هاجر إلى النبي ﷺ وأسلم قبل أن ترسل ثقيف وفدها . وكانت ثقيف قتل عروة بن مسعود عندما دعاها إلى الإسلام ، ففارقها قارب وأبو مليح بن عروة غاضبين وقدموا على الرسول ﷺ فأسلما . فقال لهما الرسول ﷺ توليا من شئتما فقالا : نتولى الله ورسوله : وقد اشترك قارب بن الأسود في هدم اللات صنم ثقيف .

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٤٨ ومغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٢٨ — ٩٢٩ .

لسنوات ، كما أن الماء من العيون والآبار متوفرة لديهم بكثرة .

وكان المسلمون في العراق مكشوفين ومعرضين لسهام الثقفين ومعايهم . الأمر الذى يجعل المسلمين أكثر تعرضاً للخطر بينما الثقفيون فى بلادهم ومعتصمون بحصونهم عندهم أهلهم وأبناءهم . ولم تُجِدِ المحاولات الجديدة المضنية التى بذلها جيش الإسلام لاقتحام أسوار الطائف ، حيث كانت قوية وعالية ومنيعة ، يحميها مقاتلون ورماة ماهرون فى القصف بالنبل والمعايل . واستخدام الأسلحة الثقيلة من راجمات بالهلب وغيرها .

استمر المسلمون فى محاولاتهم فتح الطائف خمسة عشر يوماً^(١) وبعض المؤرخين يقول إن الحصار استمر أكثر من عشرين يوماً^(٢) .

وقد فقد المسلمون (وهم يجاهدون لفتح الطائف) اثنى عشر شهيداً^(٣) مقابل رجلين من مشركى ثقيف قتلها المسلمون أثناء الحصار . وجميع شهداء المسلمين ، قتلوا رمياً بسهام ثقيف التى كانوا يقصفون بها المسلمين من الأبراج والأسوار .

الرسول يستشير الخبراء بشأن استمرار الحصار أو فكه

وبعد مضى خمسة عشر ليلة أو عشرين على محاصرة الطائف دونما أية نتيجة إيجابية لصالح الجيش الإسلامى تدارس الرسول ﷺ الموقف مع بعض كبار مستشاريه والخبراء فى الجيش حول ما إذا كان من المفيد استمرار الحصار أم فكه عن الطائف .

وقد انتهت المشاورات إلى اقتناع النبى ﷺ بأنه ليس من مصلحة الجيش الإسلامى الاستمرار فى الحصار . ولذلك قرر أن يفك الحصار عن الطائف ويعود إلى مكة تاركاً ثقيفاً وشأنها حتى يأتى الله بها فتدخل فى الإسلام طائعة بعد أن تجد نفسها معزولة ومحاطة بعناصر عربية كلها دخلت فى الإسلام . كما جاء فى بعض الآثار عن النبى ﷺ أنه لم يأذن الله فى ثقيف (أى

(١) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٩٣٦ .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٨٣ .

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥١ .

باقترامهم بقوة السلاح) .

فقد جاء في الأثر : أن خولة بنت حكيم بن أمية السلمية (وهى امرأة عثمان) قالت : يا رسول الله أعطني — إن فتح الله عليك الطائف — حلى بادية بنت غيلان بن مظعون بن سلمة ، أو حلى الفارعة بنت عقيل — وكانت من أحلى نساء ثقيف . فقال لها رسول الله ﷺ : وإن كان لم يؤذن لى فى ثقيف يا خويلة ؟ .

فذكرت خويلة ذلك لعمر بن الخطاب ، فدخل على رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، ما حديث حدثتني خويلة ، زعمت أنك قلته ؟ قال : قد قلته ، قال : أو ما أذن لك فيهم يا رسول الله ؟ قال : (لا) قال عمر : أفلا أؤذن بالرحيل ؟ قال بلى فأذن عمر بالرحيل ^(١) .

كذلك ذكر أهل السير أن الرسول ﷺ رأى رؤيا فسرت بأن الرسول ﷺ لن ينال من ثقيف فى حصاره لهم ما يريد . وخلاصة هذه الرؤيا أن النبى ﷺ قال لأبى بكر الصديق : إني رأيت أنى أهديت لى قعبة ^(٢) مملوءة زبداً ، فنقرها ديك فأهرق ما فيها . قال أبو بكر : ما أظن أن تدرك منهم يا رسول الله يومك هذا ما تريد . قال رسول الله ﷺ : وأنا لا أرى ذلك ^(٣) .

وذكر أصحاب المغازى أن الرسول ﷺ استشار الخبير المجرب نوفل بن معاوية الديلى ^(٤) بشأن حصار الطائف بعد أن استعصى على المسلمين فتحها . فقال رسول الله ﷺ لنوفل بن معاوية : ما تقول أو ما ترى فى المقام عليهم ؟ فقال نوفل : يا رسول الله ، ثعلب فى جحر إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك شيئاً ^(٥) .

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٢٧ ومغازى الواقدي ج ٣ ص ٩٣٥ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥٠ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٢ .

(٢) القعبة (بفتح القاف) : القدح .

(٣) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٩٣٦ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٢٧ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥٠ .

(٤) انظر ترجمة نوفل بن معاوية فى كتابنا (فتح مكة) .

(٥) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥٠ وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ٨٤ ومغازى الواقدي ج ٣ ص والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٢ .

ملاحاة أنى محجن وابن الخطاب

وذكر المؤرخون أن الفاروق عمر بن الخطاب جرت بينه وبين أنى محجن الثقفى (وكان يومها مشركاً) مشادة . فقد طلع أبو محجن من على سور الطائف ونادى المسلمين : يا عبيد محمد ، إنكم والله ما لقيتم أحداً يحسن قتالكم غيرنا ، تقيمون ما أقمت بشر محبس ، ثم تنصرفون لم تدركوا شيئاً مما تريدون ، نحن قسى وأبونا قسا^(١) والله لا نسلم ما حيينا وقد بنينا طائفاً حصيناً ، فناداه عمر بن الخطاب : يا ابن حبيب ، والله لنقطعن عليك معاشك حتى تخرج من جحرك هذا ، إنما أنت ثعلب فى جحر يوشك أن يخرج . فقال أبو محجن : إن قطعتم يا ابن الخطاب حبلات عنب ، فإن فى الماء والتراب ما يعيد ذلك . فقال عمر : لا تقدر أن تخرج إلى ماء ولا تراب ، لن نبرح عن باب جحرك حتى تموت . فقال أبو بكر الصديق : يا عمر لا تقل هذا ، فإن رسول الله ﷺ لم يؤذن له فى فتح الطائف . فقال عمر : وهل قال لك هذا رسول الله ؟ فقال : نعم ، . فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال : لم يؤذن لك يا رسول الله فى فتحها ؟ قال : (لا)^(٢) .

تذمر الجيش النبوى لفك الحصار عن الطائف

وبعد مراجعات دقيقة واستشارات قام بها الرسول ﷺ بين بعض أصحابه بشأن الاستمرار أو عدم الاستمرار فى حصار الطائف ، بل وبعد تلقى الرسول الوحى بعدم الإذن فى الاستمرار فى الحصار لفتح الطائف ، قرر الرسول ﷺ فك الحصار وأمر الجيش بالرحيل إلى مكة تاركاً ثقيفاً فى حصونها على أمل أن يأتى بها الله لتدخل فى الإسلام طائفة مختارة .

وقد أمر الرسول ﷺ وزيره الثانى عمر بن الخطاب أن يعلم الجيش بأنه تقرر فك الحصار عن الطائف وأن يؤذن فى الناس بالرحيل ، وقد فعل عمر ما أمره الرسول ﷺ به .

وعندما سمعت جمهرة الجيش النبوى وتلفت الأوامر بالرحيل وترك ثقيف فى

(١) قسى (بفتح أوله وكسر ثانيه) : لقب ثقيف . قال فى لسان العرب : لأنه مر على رغال ، وكان مصداقاً ، فقتله فقيل : قسا قلبه فسمى قسيا .

(٢) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٣٥ .

حصونها جرى بين صفوف الجيش شيء من التذمر الواضح ، فقد أظهرت بعض وحدات الجيش معارضة صريحة وأبدى بعض عناصر هذه الوحدات امتعاضاً واضحاً .. وقالوا : كيف ننصرف عن ثقيف وهي أضعف من جيوش هزمنها وأخضعناها .. ومشت بعض عناصر من الجيش مبدئين اعتراضهم على الانسحاب .. مشت إلى أبى بكر وعمر وصارحتهما بهذه المعارضة وطلبت هذه العناصر من وزيرى رسول الله ﷺ أن يراجعه كي يستمر فى محاصرة ثقيف حتى تستسلم وهي صاغرة .

وحاول أبو بكر وعمر إقناع عناصر المعارضة للانسحاب وفك الحصار ، ولكن هذه العناصر أصرت على أن يستمر الرسول ﷺ فى محاربة ثقيف . ولم يغضب الرسول ﷺ هذه المعارضة بل استمع إليها ، وأمر بمعاودة الهجوم على ثقيف (بعد إصداره الأمر بالانسحاب) ونشب القتال من جديد بين الجيش الإسلامى وبين ثقيف وكانت ثقيف (كما هو معلوم) معتصمين بقلاعهم والمسلمون مكشوفين . فرمتهم ثقيف بالنبال من على الأسوار . فأصابت عناصر من الجيش الإسلامى جراحات كثيرة دون أن يستطيعوا إحراز أى تقدم لاقتحام الطائف . وعندها اقتنع المعارضون بأن الصواب فيما قرره الرسول ﷺ من الأمر بفك الحصار عن حصون الطائف .

قال الواقدي متحدثاً عن قرار الانسحاب وظهور المعارضة فى الجيش ، ثم رجوع المعارضة وقبولها بقرار الانسحاب وفك الحصار : دخل عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ فقال : أو لم يؤذن لك فيهم (أى ثقيف) قال : (لا) ، قال : أفلا تؤذن فى الناس بالرحيل ، قال رسول الله ﷺ : بلى .

فأذن عمر بالرحيل فجعل المسلمون يتكلمون ، يمشى بعضهم إلى بعض ، فقالوا : ننصرف ولا نفتح الطائف ، لا نبرح حتى يفتح الله علينا ، والله إنهم لأذل وأقل من لاقينا جمع مكة وجمع هوازن ، ففرق الله تلك الجموع ، وإنما هؤلاء ثعلب فى جحر ، لو حصرناهم لماتوا فى حصنهم هذا .

وكثر القول بينهم والاختلاف فمشوا إلى أبى بكر فتكلموا فقال أبو بكر (رضى الله عنه) : الله ورسوله أعلم ، والأمر ينزل عليه من السماء ، فكلموا عمر فأبى

وقال : قد رأينا الحديدية ، ودخلني من الشك ما لا يعلمه إلا الله ، وراجعت رسول الله ﷺ يومئذ بكلام ليت أني لم أفعل^(١) ، وأن أهلي ومالي ذهباً ، ثم كانت الخيرة لما من الله فيما صنع ، فلم يكن فتح كان خيراً للناس من صلح الحديدية — بلا سيف ، دخل فيه من أهل الإسلام مثل من كان دخل — من يوم بعث رسول الله ﷺ إلى يوم كتب الكتاب . فاتهموا الرأي ، والخيرة فيما صنع رسول الله ﷺ ، ولن أراجعه في شيء من ذلك الأمر أبداً ، والأمر أمر الله ، وهو يوحى إلى نبيه ما يشاء .

وقال الواقدي في موضع آخر عن استجابة الرسول ﷺ لعناصر المعارضة من جيشه بمعاودة ثقيف للقتال ، وإذعان عناصر المعارضة لقرار فك الحصار بعد أن أصابهم جراح كثيرة من سهام الثقيفيين : (حدثني كثير بن زيد ، عن الوليد بن رباح ، عن أبي هريرة ، قال : لما مضت خمس عشرة ليلة من حصارهم استشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلي فقال : يا نوفل ما تقول أو ترى ؟ فقال نوفل : يا رسول الله ، ثعلب في جحر ، إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك شيئاً . قال أبو هريرة : ولم يؤذن لرسول الله ﷺ في فتحها . قال : فأمر رسول الله ﷺ عمر وأذن في الناس بالرحيل . قال : فجعل الناس يضحجون من ذلك قال رسول الله ﷺ فاغدوا على القتال ، فغدوا فأصابوا المسلمين جراحات . فقال رسول الله ﷺ إنا قافلون إن شاء الله ، فسروا بذلك وأذعنوا ، وجعلوا يرحلون والنبي ﷺ يضحك^(٢) .

عينه بن حصن يفخر بثقيف فيزجره عمرو بن العاص

وعندما أخذ المسلمون يفكون الحصار عن الطائف ويرحلون ، نادى سعد ابن عبيد بن أسيد بن عمرو بن علاج الثقفي قال : ألا إن الحَيَّ مقيم ، فقال عينه بن حصن (معجباً بمقاومة ثقيف) أجل والله مَجْدَةٌ كرام .

فقال له عمرو بن العاص : قاتلك الله ، تمدح قومًا مشركين بالامتناع من

(١) انظر تفاصيل قصة معارضة ابن الخطاب المثيرة لصلح الحديدية في كتابنا الخامس (صلح الحديدية) .

(٢) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٣٧

رسول الله ﷺ وقد جئت تنصره ؟ فقال عيينة : إني والله ما جئت معكم أقاتل ثقيفاً ، ولكن أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب جارية من ثقيف فأطأها لعلها تلد لي رجلاً ، فإن ثقيفاً قوم مباركون ، وفي رواية (مناكير) (١) ، فأخبر عمرو النبي ﷺ بمقالة عيينة فتبسم ﷺ ، ولم يتخذ ضد عيينة بن حصن أى إجراء تأديبي على قوله المنكر ذاك . بل قال (فقط) رداً على ما فاه به عيينة بن حصن : (هذا الأحمق المطاع) (٢) .

وهكذا فك الرسول ﷺ الحصار عن الطائف دون أن ينال من ثقيف شيئاً ، وظلوا على شركهم حتى أسلم كل من حولهم من قبائل المناطق المجاورة . فوجدوا أنفسهم في حالة تشبه الحصار ، يعيشون وحولهم جو معاد يحوطهم من كل مكان ، فاضطروا إلى الدخول في الإسلام ، فذهب منهم وفد إلى المدينة فأعلن إسلامهم وذلك عام تسع للهجرة .

دعاء الرسول ﷺ لثقيف

وعندما فك الحصار الرسول ﷺ عن الطائف وشرع في مغادرتها ، طلب إليه بعض أصحابه أن يدعو على ثقيف ، ففعل العكس ، حيث دعا الله أن يهديهم .

فقد روى الترمذى من حديث عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الزبير عن جابر . أن بعض أصحاب الرسول ﷺ قالوا : يا رسول الله أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم ، فقال اللهم اهد ثقيفاً (٣) وعند بعضهم أنه ﷺ قال اللهم اهد ثقيفاً وأنت بهم (٤) وقد أتى الله بهم إلى المدينة مدعين مسلمين استجابة لدعوة نبيه ﷺ .

وذكر أصحاب السير أن الرسول ﷺ حين أراد أن يرتحل بالجيش ويفك الحصار عن الطائف ، قال لأصحابه قولوا : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلما ارتحلوا واستقلوا قال : آيئون إن

(١) مناكير : ذوو دهاء وقطنة .

(٢) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٩٣٧ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٢٧ .

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥٠ .

(٤) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٩٣٧ .

شاء الله عابدون ، لربنا حامدون^(١) وروى ابن كثير أن الرسول ﷺ قال في حق ثقيف وهو يرحل عنهم : اللهم اهدهم واكفنا مؤنتهم^(٢) .

الشهداء في حصار الطائف :

وأثناء حصار الطائف ، لم يفقد المشركون سوى رجلين اثنين فقط . أما المسلمون فقد استشهد منهم أثناء الحصار اثنا عشر رجلاً قتلوا جميعاً بنبال ثقيف تسعة من المهاجرين وثلاثة من الأنصار والأسماء كالاتي :

- | | |
|--|-------------|
| ١ — سعيد بن سعيد بن أمية | أموى |
| ٢ — حبيب بن عبد مناف الكنانى | أموى بالحلف |
| ٣ — يزيد بن زعمة بن الأسود | أسدى |
| ٤ — عبد الله بن أبى بكر الصديق أصابه سهم فمات متأثراً بجرحه فى المدينة | |
| ٥ — عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة | تيمى |
| ٦ — عبد الله بن عامر بن ربيعة العنزى | مخزومى |
| ٧ — السائب بن الحارث بن قيس | عدوى بالحلف |
| ٨ — عبد الله بن الحارث | سهمى |
| ٩ — جليحة بن عبد الله | سهمى |
| ١٠ — ثابت بن الجذع | سعدى ليثى |
| ١١ — الحارث بن سهل | أنصارى |
| ١٢ — المنذر بن عبد الله | أنصارى |

طريق الرسول إلى مكة :

وبعد أن فك الرسول ﷺ الحصار عن الطائف عاد إلى الجعرانة ، حيث توجد غنائم حنين والسبي الذى وقع فى أيدي المسلمين يوم حنين .

وقد سلك الرسول ﷺ فى عودته من الطائف نفس الطريق الذى جاءها

(١) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٩٣٧ .

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥٠ .

منه ، فقد سلك على دحنا^(١) ثم على قرن المنازل^(٢) ثم على نخلة وهو المسمى اليوم (بوادى اليمانية) .

وأثناء عودة الرسول من الطائف وفي أثناء الطريق ، حدثت من الرسول ﷺ تصرفات ، كانت دروساً عملية رائعة في شرف السلوك والعدل والإنصاف والتواضع ، ينبغي لكل قائد أو زعيم مسلم مسؤول عن فئة أو أمة أن يجعلها نصب عينيه كي تكون له نبراساً يستضيء به في معاملة مرؤوسيه ، ليكون محل احترامهم وموضع ثقتهم ومحبتهم وتقديرهم .

فقد رأينا (أولاً) كيف أن أكثر وحدات الجيش تضجرت ولم ترض أن يفك الرسول ﷺ الحصار عن الطائف ، بل طالبت باستمرار القتال ، رغم أن الرسول ﷺ — وهو القائد الأعلى — قد أذن مؤذنه ونادى بالرحيل عن ثقيف .

ورأينا كيف أن الرسول ﷺ لم يصبر على الانسحاب الفوري من الميدان بل لكى يقطع العناصر المتدمرة في الجيش والغير الراضية بالانسحاب ، لم يفرض عليهم إرادته ويأمر بالانسحاب بدون مراجعة ، بل أمر بمعاودة الهجوم على المشركين الثقفيين ، وعندما فشل الهجوم وتعرض الجيش لجراحات كثيرة من سهام ثقيف ، اقتنعت العناصر المتدمرة بعدم جدوى استمرار الحصار فانسحب الرسول ﷺ بالجيش وكل عناصره مقتنعة بوجاهة الانسحاب ، وهذا من الرسول درس عسكري في التمعن فيه فائدة كبرى لمن هم في مراكز القيادة على أى مستوى كانوا .

مثالية الرسول ﷺ

وحدث أبو رهم^(٣) الغفارى بأنه كان (وهم عائدون من الطائف) إلى جنب رسول الله ﷺ على ناقة له ، وفي رجله نعلان غليظتان ، إذ زحمت ناقته ناقة رسول الله ﷺ ووقع حرف نعله على ساق رسول الله ﷺ فأوجعه . فقال الرسول : أوجعتنى آخر رجلك ، وقرع رجله بالسوط . قال :

(١) دحنا (بفتح أوله وسكون ثانيه) : مخلاف من مخاليف الطائف .

(٢) قرن المنازل جبل صغير يحرم منه حجاج نجد وهو السيل الكبير .

(٣) انظر ترجمة أبى رهم في كتابنا (غزوة خيبر) .

فأخذني من أمرى ما تقدم وما تأخر ، وخشيت أن ينزل في القرآن العظيم لعظيم ما صنعت ، فلما أصبحنا بالجعرانة خرجت أرعى الظهر^(١) وما هو يومى ، فرقاً أن يأتى النبى ﷺ وحى ، ورسول الله يطلبنى ، فلما رَوَّحت الركاب سألت ، فقالوا طلبك رسول الله ﷺ . فجئته وأنا أترقب فقال : إنك أوجعتنى برجلك فقرعتك بالسوط ، فخذ هذه الغنم عوضاً من ضربتى . قال أبو رهم : فرضاه عنى كان أحب إلى من الدنيا وما فيها .

وكان عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى^(٢) يقول : كنت مع النبى ﷺ فى مسيره (أى من الطائف) وهو يحادثنى ، فجعلت ناقتى تلتصق بناقته ، وكانت ناقتى شهمة^(٣) فجعلت أريد أن أنحيا فلا تطاوعنى ، فلصقت بناقة النبى ﷺ وأصيبت رجله فقال : (أخ) أوجعتنى ، فرفع رجله من الغرز كأنها جمارة^(٤) ، ودفع رجلى بمحجن فى يده ، فمكث ساعة لا يتحدث ، فوالله ما نزلت حتى ظننت أن سينزل فى عذاب ، قال : فلما نزلت قلت لأصحابى : إني أرعى لكم ، ولم يكن ذلك يوم رعيتى ، فلما أرحت الظهر عليهم قلت : هل جاء أحد يبغينى ؟ فقالوا : رسول الله ﷺ جاء يبغيك . فقلت فى نفسى : هى والله هى ، قلت : من جاء ؟ قالوا . رجل من الأنصار . قال : فكان أكره إلى ، وذلك أن الأنصار كانت فيهم علينا غلظة . قال : ثم جاء بعده رجل من قريش يبغينى . قال : فخرجت خائفاً حتى واجهت رسول الله ﷺ فجعل يبتسم فى وجهى . وقال : أوجعتك بمحجنى البارحة . ثم قال : خذ هذه القطعة من الغنم فأخذتها فوجدتها ثمانين شاة ضائنة^(٥) .

كذلك حدث أبو زرعة الجهنى^(٦) فقال : لما أراد رسول الله ﷺ أن

(١) الظهر (بفتح أوله وسكون ثانيه) : الإبل المعدة للركوب .

(٢) انظر ترجمته فى كتابنا (غزوة خيبر) .

(٣) ناقة شهمة : أى جلدة .

(٤) الجمارة (بضم الجيم) قلب النخلة وشحمتها ، شبه ساقه ببياضها .

(٥) الضأن من الغنم : ذو الصوف ، والأنثى ضائنة .

(٦) قال فى أسد الغابة : هو أبو زرعة القرعى الرمالى أخرجه ابن طرخان فى وحدان الصحابة ، روى عن يحيى بن الإصبع بن مهران القرعى من خثعم ، حدثنى خزام بن عبد الرحمن عن أبى زرعة القرعى =

يركب من قرن المنازل راحلته القصوى وطئت له على يديها ، والزمام في يدي مطوى ، فركب على الرحل وناولته الزمام ، ودرت من خلفه فخلف^(١) الناقة بالسوط ، كل ذلك يصيبني ، فالتفت إلى فقال : أصابك السوط ؟ قلت نعم بأني وأمي ، قال : فلما نزل الجعرانة إذا ربضة^(٢) من الغنم ناحية من الغنائم . فسأل عنها صاحب الغنائم فخبرو عنها بشيء لا أحفظه ، ثم صاح : أين أبو زرعة ؟ قال : قلت : ها أنا ذا ، قال : خذ هذه الغنم بالذى أصابك من السوط أمس . قال : فعددتها فوجدتها عشرين ومائة رأس . قال : فتأملت^(٣) بها مالاً .

قصة سراقه بن جعشم المثيرة

كان سراقه بن جعشم^(٤) المدلجي فارساً ممتازاً . وعندما أعلنت قريش منح جائزة مالية قدرها مائة ناقة ، لمن يأتي بالرسول ﷺ حياً أو ميتاً ، وذلك عندما نجح في الإفلات من قبضتهم وهاجر إلى المدينة .. عند ذلك الإعلان الغاشم ركب سراقه فرسه وأخذ سلاحه (بعد أن علم بالمكان الذي فيه الرسول ﷺ سائراً نحو المدينة) قاصداً قتله أو إلقاء القبض عليه ففشل ولم يمكنه الله مما أراد . فأيقن أن الله مانع رسوله من شر قريش . فاعترف للرسول بأنه جاء لاعتقاله أو قتله ، ولكن كل ما طلبه من الرسول أن يكتب له أماناً يبرزه عند اللزوم ، فأمر الرسول (يومها) أبا بكر فكتب له ما طلب في كتف بعير . فاحتفظ سراقه بهذه الوثيقة وثيقة الأمان المكتوبة في كتف البعير^(٥) . ومرت السنون وعلا شأن النبي ﷺ حتى توجت انتصاراته بتغلبه على هوازن في أعظم معركة حربية وهي معركة حنين .

= أن النبي ﷺ عقد له راية رقعة بيضاء ذراعاً في ذراع أخرجه أبو موسى .. قلت ذكر الواقدي أن أبا زرعة هذا كان حامل إحدى رايات جبهة يوم الفتح (انظر كتابنا فتح مكة ص ١٦١) .

(١) خلفها : أى ضربها بسوطه على خلفها .

(٢) الربضة (بكسر الراء) : الجماعة .

(٣) تأملت مالاً : اكتسبه واتخذته وثراً .

(٤) انظر ترجمة سراقه في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٥) انظر تفاصيل هذه المطاردة المثيرة في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(م - ١١ * غزوة حنين)

وجاء دور إظهار سراقاة وثيقة الأمان كى ينجو من أى سوء قد يعترض له من الجيش المنتصر ، فأبرز سراقاة تلك الوثيقة للرسول ﷺ وهو عائد من الطائف فوفى له بما فيها ، ولترك الصحابى سراقاة بن مالك نفسه يحدثنا حديثه الشيق . قال سراقاة : لقيت رسول الله ﷺ ، وهو منحدر من الطائف إلى الجعرانة ، فتحصلت^(١) ، والناس يمضون أمامه أرسالاً^(٢) فوقعت فى مقنب^(٣) من خيل الأنصار ، فجعلوا يقرعونى بالرماح ويقولون : إليك ، إليك ، ما أنت ؟ وأنكرونى حتى إذا دنوت وعرفت أن الرسول ﷺ يسمع صوتى ، أخذت الكتاب الذى كتبه أبو بكر ، فجعلته بين إصبعين من أصابعى ، ثم رفعت يدى وناديت : أنا سراقاة بن مالك بن جعشم ، وهذا كتابى ، فقال رسول الله ﷺ : يوم وفاء ، أدنوه ، فأدנית منه ، فكأنى أنظر إلى ساق رسول الله ﷺ فى غرزه كأنها جمارة ، فلما انتهيت إليه سلمت ، وسقت إليه الصدقة ، فما ذكرت شيئاً أسأله عنه إلا أنى قلت : يا رسول الله ، أ رأيت الضالة من الإبل ترد حياضى وقد ملأتها لإبلى ، هل لى من أجر إن أسقيتها ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم فى كل ذات كبد حررى^(٤) أجر^(٥) .

وقفه فقهية

وأثناء عودة النبى ﷺ من حصار الطائف ، اعترض رجل من أسلم معه غنم ، ورسول الله ﷺ على راحلته ، فقال : يا رسول الله : هذه هدية قد أهديتها لك ، قال : ومن أنت ؟ قال : رجل من أسلم . قال : إني لا أقبل هدية من مشرك ، قال : يا رسول الله إني مؤمن بالله وبرسوله ، قد سقت الصدقة إلى بريدة بن الحصيب^(٦) لمالى بعينه مصداقاً .

قال : وأقبل بريدة فلحق بالنبى ﷺ فقال : صدق ، هذا من قومى

(١) تحصلت . أى تجمعت وتثبت .

(٢) أرسالاً : أى أفواجاً متقطعة يتبع بعضهم بعضاً ، وأحدهم ، رسل .

(٣) المقنب (بكسر الميم) : قال فى الصحاح : ما بين الثلاثين إلى الأربعين من الخيل .

(٤) قال فى النهاية : الحرى . فعل من الحر ، والمعنى أن تسقى كل ذى كبد حرى أجراً .

(٥) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٩٣٩ - ٩٤٠ .

(٦) انظر ترجمة بريدة بن الحصيب فى كتابنا (فتح مكة) .

شريف ، ينزل بالصفاح^(١) . قال : فما أقدمك إلى نخلة ؟ قال : هي أمرع^(٢) من الصفاح اليوم ، ثم قال : نحن على ظهر كما ترى ، فالحقنا بالجعرانة ، قال فخرج يعدو عراض^(٣) ناقة رسول الله ﷺ وهو يقول : يا رسول الله ، فأسوق الغنم معي إلى الجعرانة ؟ فقال رسول الله ﷺ : لا تسفها ، ولكن تقدم علينا الجعرانة فنعطيك غنماً أخرى إن شاء الله . ثم سأل الأسلمي رسول الله ﷺ عن شيء مما يهمه في دينه فقال : يا رسول الله ، تدركني الصلاة وأنا في عطن^(٤) الإبل ، أفأصلي فيه ؟ قال : لا . قال فتدركني وأنا في مراح الغنم ، أفأصلي فيه ؟ قال : نعم . قال : يا رسول الله ، ربما تباعد منا الماء ومع الرجل زوجته فيدون منها ؟ قال : نعم ، ويتيمم . قال : يا رسول الله ، وتكون فينا الحائض قال : تتيمم . قال : فلحق النبي ﷺ بالجعرانة فأعطاه مائة شاة^(٥) .

هل استسلمت ثقيف لوحدات من جيش الرسول بعد انصرافه عنها ؟

هكذا انتهى حصار الطائف . فانصرف الرسول ﷺ عنها دون أن يتمكن جيشه من فتحها . هذا بإجماع المؤرخين وأهل السير .

غير أن هناك روايات تذكر أن وحدات من جيش الإسلام فرضت الحصار على الطائف من جديد بعد انصراف الرسول ﷺ عنها ، وأن هذه الوحدات التي جاءت (في شكل نجدات للجيش النبوي بعد انصرافه) قد ضيقت الحصار على ثقيف حتى استسلمت لهذه الوحدات ، ونزلت على حكم رسول الله ﷺ . وأن ذلك قد تم بقيادة صخر^(٦) أي العيلة الأحمسي الذي جاء إلى الطائف بقومه (أحمس^(٧) ، وكانوا من الفرسان) .

(١) الصفاح . قال في الصحاح : موضع بين حنين وأنصاب الحرم على يسرة الداخل إلى مكة من مشاش .

(٢) أمرع : أي أخصب ، والمرع : الخصب .

(٣) أي يسير حذاه معارضاً له .

(٤) العطن (بفتح العين والطاء) : مترك الإبل حول الخوض .

(٥) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٤٢ .

(٦) هو صخر بن العيلة بن عبد الله بن ربيعة بن عمرو بن علي بن أسلم بن أحبس البجلي عداة في أهل الكوفة . وروى عنه عثمان بن أبي حازم عن أبيه عن جده صخر بن العيلة .

(٧) أحمس . قال في معجم قبائل العرب : بطن من أنمار بن أراش من القحطانية وهؤلاء هم قوم صخر بن العيلة ، وأحمس أيضاً : بطن من ضبيعة بن ربيعة بن نزار من العدنانية .

فقد روى أبو داود فقال : حدثنا عمر بن الخطاب أبو حفص حدثنا
 الفرياني حدثنا أبان حدثنا عمرو — هو ابن عبد الله بن أبي حازم — عن أبيه
 عن جده صخر — هو أبي العيلة الأحمسي — أن رسول الله ﷺ غزا
 ثقيفاً ، فلما أن سمع ذلك صخر ، ركب في خيل يمد رسول الله ﷺ ،
 فوجده قد انصرف ولم يفتح ، فجعل صخر حينئذ عهداً وذمة ، لا يفارق هذا
 القصر (يعنى الطائف) حتى ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، ولم يفارقهم
 حتى نزلوا على حكم رسول الله ﷺ .

وكتب إليه صخر : أما بعد فإن ثقيفاً قد نزلت على حكمك يا رسول
 الله ، وأنا مقبل بهم في خيلى ، فأمر رسول الله ﷺ بالصلاة جامعة ، فدعا
 لأحمس عشر دعوات (اللهم بارك لأحمس في خيلها ورجالها) .

وأقى القوم فتكلم المغيرة بن شعبة (الثقفى) فقال : يا رسول الله إن
 صخرأ أخذ عمتى ودخلت فيما دخل فيه المسلمون ، فدعاه فقال : يا صخر
 إن القوم إذا أسلموا أحرزوا دماءهم وأموالهم ، فادفع إلى المغيرة عمته . فدفعها
 إليه ، وسأل رسول الله ﷺ ماء لبنى سليم قد هربوا عن الإسلام وتركوا ذلك
 الماء . فقال : يا رسول الله أنزله أنا وقومى ؟ قال : نعم .

فأنزله وأسلم الأسلميون ، فأتوا صخرأ فسألوه أن يدفع إليهم الماء فأبى ،
 فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله أسلمنا وأتينا صخرأ ليدفع إلينا ماءنا فأبى
 علينا ، فقال رسول الله ﷺ : يا صخر إن القوم إذا أسلموا أحرزوا أموالهم
 ودماءهم فادفع إليهم ماءهم . قال : نعم يابنى الله ، فرأيت وجه رسول الله
 ﷺ يتغير عند ذلك حمرة حياء من أخذ الجارية وأخذه الماء ، تفرد به أبو
 داود (١) .

قال الإمام ابن كثير في البداية والنهاية (معقباً على قصة ثقيف وصخر أبى
 العيلة) : قلت : وكانت الحكمة الإلهية تقتضى أن يؤخر الفتح عامئذ لئلا
 يستأصلوا قتلاً ، لأنه قد تقدم أنه ﷺ لما كان خرج إلى الطائف فدعاهم
 إلى الله تعالى وإلى أن يؤووه حتى يبلغ رسالة ربه عز وجل ، وذلك بعد موت

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥١ — ٣٥٢ .

عمه أئى طالب فردوا عليه قوله وكذبوه ، فرجع مهموماً ، فلم يستفق إلا عند قرن الثعالب^(١) فإذا هو بغمامة فيها جبريل ، فناده ملك الجبال . فقال : يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام ، وقد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ؟ فقال رسول الله ﷺ : بل استأنى بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده وحده لا يشرك به شيئاً .

فناسب قوله : بل استأنى بهم أن لا يفتح حصنهم لئلا يقتلوا عن آخرهم وأن يؤخر الفتح ليقدموا بعد ذلك مسلمين فى رمضان من العام المقبل (أى عام تسع للهجرة) . وهو العام الذى وفد فيه سادات ثقيف إلى المدينة فأعلنوا إسلامهم وإسلام ثقيف . وسياق الإمام أئى داود فى صحيحه يدل على أنهم إنما وفدوا بعد أن حل بساحتهم صخر أبو العيلة وقومه الأحس من بجيلة ولم يفك الحصار عنهم حتى نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فأئى بهم المدينة فأسلموا ، فأحرزوا دماءهم وأموالهم وصاروا قوة للإسلام والله أعلم .

الغنائم والسبى فى الجعرانة

كان المسلمون قد غنموا بعد انتصارهم فى موقعة حنين غنائم عظيمة بلغت من الماشية وحدها (وهى أعلى ما يملك العرب فى ذلك العصر) خمسة وعشرين ألف بعير وأربعين ألف شاة وشيئاً عظيماً من الفضة ، كما وقع فى يد الجيش الإسلامى ستة آلاف من السبى نساءً وأطفالاً .

وكان هؤلاء السبى الذين أصبحوا ممالك الجيش الإسلامى كما هى شرعة الحرب فى الإسلام ، والتى لم ير هذا الدين مناصاً من العمل بها كإجراء حرى مقابل ، لأن رقيق الحرب عملة عالمية يتعامل بها كل المحاربين فى العالم آن ذاك^(٢) كان كل هؤلاء السبى من هوازن وهم أخوال الرسول ﷺ من الرضاعة ، وقد حررهم جميعاً كما سأتى تفصيله فيما يلى فى هذا البحث . وكان رسول الله ﷺ بعد انتصاره فى معركة حنين . وحين قرر أن يطارد أهم أجنحة هوازن المنهزمة الطائف وهى ثقيف — أمر بالتحفظ على الغنائم

(١) قرن الثعالب هو قرن المنازل .

(٢) انظر تفاصيل موقف الإسلام من الرق فى كتابنا (غزوة بنى قريظة) .

والسبي في الجعرانة حتى يعود من مطاردة الثقيفين . وكان الرسول القائد ﷺ قد أسند أمر التحفظ على الغنائم والسبي إلى بديل بن ورقاء (وهو أحد زعماء خزاعة حلفاء النبي التقليديين) . كما أسند أمر العناية بالسبي من النساء والأطفال المحتجزين في الحظائر إلى بسر بن سفيان الخزاعي (١) .

بناء المساكن للسبي بالجعرانة

ولما كان السبي (بعد انتصار الجيش الإسلامي) لا يملك من أمره شيئاً بعد انهزام هوازن ، وأصبح أمانة في عنق الجيش الإسلامي . ولما كانت تعاليم الإسلام تعاليم شفقة ورحمة وخاصة بالنسبة للأسير والمسكين ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً ﴾ (٢) . فقد أمر الرسول القائد ﷺ أن تبنى لهم منازل يستظلون فيها من الشمس في الجعرانة ، حتى يعود من الطائف ، فبيت في أمرهم .

كما أمر الرسول ﷺ المشرف على شئون مالية الجيش والإعاشة (وهو بسر ابن سفيان) أن يشتري للسبي جميعاً ثياباً فيكسوها ، فاشتراها سفيان وكساهم كلهم .

وقال الواقدي : كان سبي هوازن من حنين ستة آلاف ، وكانت الإبل أربعة وعشرين ألفاً ، وكانت : الغنم لا يدرى عددها ، وقد قال بعضهم : إنها أربعين ألف شاة .

فلما قدم رسول الله ﷺ أمر بسر بن سفيان الخزاعي يقدم مكة فيشتري للسبي ثياباً يكسوها من برود هجر (٣) فلا يخرج المرء منهم إلا كاسياً ، فاشتري بسر كسوة فكسى بها السبي كلهم (٤) .

الأعراب يلحون في تقسيم السبي والغنائم

كان السبي من النساء والأطفال من هوازن حوالي ستة آلاف . وكانت

(١) انظر ترجمة بسر في كتابنا (صلح الحديبية) .

(٢) الإنسان آية ٨ .

(٣) هجر : مدينة في البحرين يستورد منها البرود .

(٤) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٤٣ .

هوازن أحوال الرسول ﷺ . كانت حليلة السعدية الهوازنية أمه من الرضاعة . وكان الرسول ﷺ قد أخرج تقسيم الغنائم والسبي حوالى شهر (٣) ، على أمل أن يتقدم الهوازيون باسترخام ويطلبون تحرير ذراريهم فيحررهم الرسول ﷺ قبل أن تجرى عليهم القسمة بين الجيش . ولكن أحداً من هوازن طوال شهر (والسبي متحفظ عليه) لم يتقدم بأى طلب مع أن المدة كافية للتقدم بمثل هذا الاسترخام .

وكان السبي والغنائم (بموجب قانون الحرب فى الإسلام) ملكا للجيش (بعد الخمس الذى نص القرآن على أن يكون تحت تصرف الرسول ﷺ لينفقه حسب مقتضيات المصلحة العامة) .

وقد اضطر الرسول ﷺ إلى توزيع غنائم المعركة بمن فيهم السبي . وبعد تقسيم الغنائم وتوزيع السبايا جاء وفد من هوازن يطلب من رسول الله ﷺ أن يحرر السبي ولكن بعد تقسيمه على أفراد القوات المسلحة التى شاركت فى معركة حنين . غير أن الرسول ﷺ حقق رغبة هوازن فحرر السبي وكل رقيق الحرب منهم كما سيأتى تفصيله إن شاء الله .

لقد ألح الأعراب الذين ساهموا فى معركة حنين وكانوا كثيرين .. ألحوا على الرسول ﷺ بعد عودته من الطائف يسألونه الإسراع بتوزيع الأسلاب والغنائم حتى ضايقوه وضربوا حوله شبه دائرة حتى سقط رداؤه من على عاتقه لشدة الزحام .

قال أصحاب المغازى والسير : وجعلت الأعراب فى طريقه يسألونه وكثروا عليه ، يقولون : أقسم علينا فيئنا حتى اضطره إلى سمره فخطفت رداؤه . فقال : ردوا على رداى . أعطونى رداى أيها الناس ، فوالذى نفسى بيده لو كان لكم عدد هذه العضاة نعماً لقسمته فيكم ثم ما ألفتيمونى بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً ، ثم قام رسول الله ﷺ إلى جنب بغير فأخذ من سنامه وبرة فجعلها بين إصبعيه ثم رفعها فقال : أيها الناس والله مالى من فيكم ولا هذه

(١) انظر معازى الواقدى ج ٣ ص ٩٥٠ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥٤ والكامل ج ٢ ص ١٨٢ والسير الحلبية ج ٢ ص ٢٤٥ وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ٨٩ - ٩٠ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٣٤ - ١٣٥ .

الويرة . وعند بعضهم : (والله ما يحل لكم مما أفاء الله عليكم ولا مثل هذه الويرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم^(١)) . فأدوا الخياط والمحيط فإن الغلول عار وشنار يوم القيامة) .

أمانة وشرف الجندى المسلم

قالوا ونادى منادى رسول الله ﷺ يحذر الجند من أخذ أى شىء من الغنائم (قبل القسمة مهما قل) . فقال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يغل ، وجعل الناس غنائمهم فى موضع حتى استعمل رسول الله ﷺ عليهما .

وكان عقيل بن أبى طالب (قبل أن ينادى منادى رسول الله ﷺ) قد دخل على زوجته وسيفه متلطح دماً ، فقالت : إني قد علمت أنك قد قاتلت المشركين ، فماذا أصبت من غنائمهم ؟ قال : هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك ، فدفعتها إليها ، وهى فاطمة بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة . ثم سمع منادى رسول الله ﷺ يقول : من أصاب شيئاً من المغنم فليرده ، فرجع عقيل إلى زوجته وقال لها : والله ما أرى إبرتك إلا قد ذهبت ، ثم أخذ الإبرة منها وألقاها فى الغنائم^(٢) .

وهذا رجل آخر هو عبد الله بن زيد المازنى^(٣) أخذ أثناء القتال قوساً من أقواس المشركين فرماهم بها ، فلما سمع منادى الرسول ﷺ ردها إلى المغنم . وعقب مناداة الرسول ﷺ بأن يرد كل من أخذ شيئاً من المغنم ، جاء

(١) يقصد الرسول ﷺ أن الخمس الذى يأخذه لا يستعمله فى مصالحه الخاصة وإنما ينفقه فى مصالح المسلمين فحسب فهو (فعلاً) مردود عليهم .

(٢) انظر رحمك الله كيف تكون الأمانة وازرع الإهانة ، جندى عرض حياته للموت لا يستحل لنفسه محيطاً من مال المسلمين الذى هو فيه شريك . بمثل هؤلاء والله تبنى الأجداد وترفع رايات الحق عالية وتنكس رايات الباطل فى الوحل .. إنه الإيمان والتربية الإسلامية الجذرية المكنية التى تعمر القلوب .

(٣) هو عبد الله بن زيد بن عاصم بن كعب بن عمرو النجارى الأخرجى الأنصارى . شهد أحداً مع رسول الله ﷺ وكل المشاهد بعدها . وكان (كما يقول ابن الأثير) هو الذى بالاشتراك مع وحشى الحبشى ، قتل مسيلمة الكذاب ، كان مسيلمة قد قتل أخاه حبیباً بن زيد وقطعه عضواً عضواً . كان عبد الله بن زيد من رواة الحديث عن رسول الله ﷺ . وقتل عبد الله بن زيد يوم الحرة أيام يزيد بن معاوية سنة ثلاث وستين .

رجل إلى النبي ﷺ بكبة^(١) شعر ، فقال : يا رسول الله ، أضرب بهذه ، أى دعها لى . فقال رسول الله ﷺ أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لك . فردها الرجل فى المغنم . وجاء رجل آخر بحبل فقال : يا رسول الله هذا الحبل وجدته حيث انهم العدو فأشدد به على رحلى ؟ قال : نصيبى منه لك ، وكيف تصنع بأنصبا المسلمين ؟ .

ووجد رسول الله ﷺ فى بردعة^(٢) رجل (حين نزل قبيلته) عقداً من جزع غلولا ، فأتاهم رسول الله ﷺ فكبر عليهم كما يكبر على الميت^(٣) .

قسمة غنائم حنين بين الجيش

وبعد أن استقر الرسول ﷺ فى الجعرانة بالقرب من مكة (وحيث توجد الغنائم والسبى) أمر ﷺ أحد كبار الأنصار وهو زيد بن ثابت^(٤) بإحصاء الغنائم ثم إعطاء كل جندي ما يستحق حسب تعاليم الشريعة فى الغنائم . فقام زيد بإحصاء الغنم ، ثم قسمها على الجند ، فكانت سهامهم ، لكل رجل أربع من الإبل أو أربعون شاة . هذا بالنسبة للمشاة ، أما الفرسان فقد كان نصيب كل فارس من الغنيمة اثنتى عشرة من الإبل أو عشرون ومائة شاة ، وتلك قوانين التوزيع على المحاربين فى شرعة الإسلام ، لأن للجندي غير الفارس سهم واحد . أما الفارس ، فله ثلاثة أسهم ، سهم له كجندي وسهمان لفارسه . والإسلام بهذا يأخذ بعين الاعتبار الفارق الكبير بين المشاة والفرسان . فالفرسان أكثر تأثيراً على العدو فى الحرب من الجندي غير الفارس . فراكب الفرس المقاتل يشبه من وجوه كثيرة كقائد الدبابة التى هى ملكه . وهو دونما شك أعظم نكاية فى العدو من الراجل الذى لا يملك فرساً . أما من كان معه أكثر من فرس واحد فلم يسهم له الرسول ﷺ فى الغنيمة . أى أنه لم يسهم إلا للفارس الذى قاتل عليه^(٥) .

(١) كبة الغزل ما جمع منه .

(٢) البردعة : المجلس الذى يلقى تحت الرحل .

(٣) صحيح البخارى ج ٥ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥٤ ومغازى الواقدي ج ٣ ص ٩١٨ ٩٤٢

وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٣٤ - ١٣٥ .

(٤) انظر ترجمة زيد بن ثابت فى كتابنا (غزوة أحد) .

(٥) انظر مغازى الواقدي ج ٣ ص ٩٤٩ .

الرسول يصدق العطايا على المؤلفه قلوبهم

يقضى التشريع الإسلامى والذى نزل به القرآن الكريم بشأن غنائم الحرب التى يغنمها جيش الإسلام ، بأن يعزل الخمس من الغنائم ليكون فى متناول يد الرسول ﷺ وتحت تصرفه الخاص ليتصرف فيه وفق مصلحة الإسلام التى هو أدرى الناس بها لأنه رسول الإسلام .

وهذا التشريع صريح واضح فى قوله تعالى : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ (١) .

وبإلقاء نظرة على ما غنمه جيش الإسلام المنتصر من أموال العدو فى حنين ، نجد أن من الغنائم أربعة وعشرين ألف بعير وحوالى أربعين ألف شاة وكمية هائلة من الفضة .

وعلى أساس أن خمس هذه الغنائم يكون تحت تصرف الرسول القائد ﷺ ، فإن خمس الأربعة والعشرين ألف بعير (أربعة آلاف وثمانمائة بعيراً) وخمس من الغنم ثمانية آلاف شاة وهذه كميات كبيرة . بالإضافة إلى خمس عشرات الآلاف من أواق الفضة التى عزلت ضمن خمس من الغنائم للرسول ﷺ .

وقد تصرف الرسول ﷺ فى خمس الغنائم فى حدود مصلحة الإسلام ، فأنفق شيئاً عظيماً من هذا الخمس لجذب قلوب زعماء العرب الحديثى العهد بالإسلام ، ليكون لهذا الدين بهم قوة ، وليسخ فى قلوبهم . وهؤلاء الذين أعطاهم الرسول ﷺ من الخمس أكثرهم ممن أسلم بمكة قبل معركة حنين بحوالى نصف شهر . والبعض الآخر من غير أهل مكة .

أسماء المؤلفه قلوبهم الذين أعطوا من الغنائم :

وهذا جدول بأسماء المؤلفه قلوبهم الذين أعطاهم الرسول ﷺ من الغنيمة على قدر مراتبهم . ومقدار الكميات التى أعطيت لهم من الإبل والفضة .

الاسم	عدد الإبل	الفضة عدد أوقية
أبو سفيان بن حرب	١٠٠	٤٠

(١) الأنفال ٤١ .

الاسم	عدد الإبل	الفضة عدد أوقية
معاوية بن أنى سفيان	١٠٠	٤٠
يزيد بن أنى سفيان	١٠٠	٤٠
حكيم بن حزام	١٠٠	
النضير بن الحارث بن كلدة ^(١)	١٠٠	
أسيد بن حارثة الزهري ^(٢)	١٠٠	
العلاء بن حارثة ^(٣)	٥٠	
مخرمة بن نوفل ^(٤)	٥٠	
الحارث بن هشام ^(٥)	١٠٠	
سعيد بن يربوع ^(٦)	٥٠	
صفوان بن أمية ^(٧)	١٠٠	
قيس بن عدى ^(٨)	١٠٠	
عثمان بن وهب ^(٩)	٥٠	
سهيل بن عمرو ^(١٠)	١٠٠	
حويطب بن عبد العزى ^(١١)	١٠٠	

(١) هو النضير وسماه في أسد الغابة (النضير) وهو تصحيف . ابن الحارث بن كلدة العبدي أخو النضر بن الحارث الذى أعدم بعد معركة بدر . كان النضير من المؤلفات قلوبهم .

(٢) لم أقف له على ترجمة فيما بين يدي من كتب التراجم .

(٣) هو العلاء بن حارثة بن عبد الله بن أنى سلمة الثقفى أحد المؤلفات قلوبهم وهو من حلفاء بنى زهرة .

(٤) انظر ترجمة مخرمة بن نوفل في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٥) انظر ترجمة الحارث بن هشام في كتابنا (غزوة مؤتة) .

(٦) هو سعيد بن يربوع بن عنكة بن عامر بن مخزوم القرشى المخزومى . أسلم عام الفتح وكان اسمه (صرماً فسماه رسول الله ﷺ سعيداً . سكن المدينة . وذهب بصره . فجاءه عمر بن الخطاب يعزبه في بصره ، فقال له : لا تدع الجمعة ولا الجماعة في مسجد رسول الله ﷺ ، فقال : ليس لى قائد فبعث إليه بقائد من السبي ، توفى سعيد هذا بالمدينة وعمره مائة وعشرون سنة .

(٧) انظر ترجمة صفوان في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٨) لم أجده ترجمته فيما بين يدي من مصادر .

(٩) لم أجده ترجمته فيما بين يدي من مصادر .

(١٠) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(١١) انظر ترجمة حويطب في كتابنا (صلح الحديبية) .

الاسم	الإبل	الفضة عدد أوقية
هشام بن عمرو ^(١)	٥٠	
الأقرع بن حابس التميمي ^(٢)	١٠٠	
عيننة بن حصن الفزاري ^(٣)	١٠٠	
مالك بن عوف النصرى	١٠٠	
العباس بن مرداس ^(٤)	١٠٠	
علقمة بن علاثة الثقفي ^(٥)	١٠٠	

أول السائلين من الغنيمة أبو سفيان^(٦) :

ويذكر المؤرخون أن أبا سفيان بن حرب . كان أول من سأل رسول الله ﷺ منحه من الغنائم ، فقد دخل على رسول الله ﷺ وبين يديه الفضة فقال : يا رسول الله ، أصبحت أكثر قريشاً مالاً ، فتبسم رسول الله ﷺ ، وقال أبو سفيان : أعطني من هذا المال يا رسول الله . قال : يا بلال ، زن لأبي سفيان أربعين أوقية وأعطوه مائة من الإبل . قال أبو سفيان : ابني يزيد أعطه ، قال رسول الله ﷺ زنوا ليزيد أربعين أوقية ، وأعطوه مائة من الإبل ، قال أبو سفيان : ابني معاوية يا رسول الله ، قال : زن له يا بلال أربعين أوقية وأعطوه مائة من الإبل . قال أبو سفيان : إنك لكريم فذاك أئى وأمى ، ولقد

(١) قال في أسد الغابة : هشام بن عمرو بن الحارث بن ربيعة بن الحارث بن جذيمة بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى . كان من المؤلفات قلوبهم . كان هشام من النبلاء الخمسة الذين كان لهم أثر كبير في نقص الصحيفة . كذا قاله ابن الأثير .

(٢) انظر ترجمة الأقرع بن حابس في كتابنا (فتح مكة) .

(٣) انظر ترجمة عيننة بن حصن في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٤) انظر ترجمة العباس بن مرداس في كتابنا (فتح مكة) .

(٥) هو علقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . كان من أشرف ربيعة بن عامر . وكان من المؤلفات قلوبهم . وكان في قومه سيداً كليماً عاقلاً ، وهو الذى نافر عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب (وكلاهما كلابي) ، وفاخره ، ارتد علقمة بعد عودة حطار الطائف ولحق بالشام . فلما توفي النبي ﷺ عاد مسرعاً حتى عسكر في بنى كلاب بن ربيعة ، فأرسل إليه أبو بكر الصديق كتيبة فهرب ، وغنم رجال الكتيبة أهله وحملوهم إلى المدينة . فتهربوا مما صحح علقمة وقالوا : إنهم لم يوافقوه على الردة فصدهم أبو بكر وأطلقهم .. أما علقمة فقد تاب فقبل منه أبو بكر . وحسن إسلامه ، وكان من خيار الصحابة .. استعمله الخليفة عمر على حوزان بالشام فمات بها .

(٦) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٤٥ — ٩٤٦ — ٩٤٧ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٣٥ —

١٣٦ .

حاربتك فنعم المحارب كنت ، ثم سألته فنعمة المسالم أنت ، جزاك الله خيراً ، وأعطى في بنى أسد^(١) .

حكيم بن حزام الزاهد :

وحدث الواقدي قال : قال الحكيم بن حزام : سألت رسول الله ﷺ بخين مائة من الإبل ، فأعطانيها ، ثم سألت مائة فأعطانيها ، ثم سألت مائة فأعطانيها ، ثم قال رسول الله ﷺ : يا حكيم بن حزام ، إن هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وأبدأ بمن تعمل ، قال : فكان حكيم يقول : والذي بعثك بالحق ، لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً ، فكان عمر بن الخطاب يدعوه حكيم إلى عطائه فيأبى يأخذه فيقول عمر : أيها الناس ، إني أشهدكم على حكيم أني أدعوه إلى عطائه فيأبى أن يأخذه . وحدث ابن أبي الزناد أن حكيم بن حزام لم يأخذ من الرسول ﷺ سوى المائة الأولى من الإبل^(٢) .

معاقبة العباس بن مرداس للرسول ﷺ

ويذكر أصحاب السير والمغازي أن الرسول ﷺ أعطى أولاً العباس بن مرداس السلمي^(٣) (وهو سيد بنى سليم) أربعاً من الإبل فقط . فعاتب الرسول ﷺ في شعر قال فيه .

كانت نهاباً^(٤) تلافيتها بكري على القوم في الأجرع^(٥)
وحثي الجنود لكي يدلجوا إذا هجع القوم لم أهجع
فأصبح نهبي ونهب العبيد^(٦) بين عينة والأقرع

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٤٥ .

(٢) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٤٥ .

(٣) أنظر ترجمة العباس بن مرداس في كتابنا (فتح مكة) نهاباً : جمع نهب وهو ما ينغم ، يبرد الماشية والإبل ، والأجرع المكان السهل .

(٤) تقدم تفسيره .

(٥) تقدم تفسيره .

(٦) العبيد (بضم العين) فرس عباس بن مرداس .

إلا أفائل^(١) أعطيتها عديد قائمها الأربع
وقد كنت في الحرب ذا تدرأ فلم أعط شيئاً ولم أمنع
وما كان حصن^(٢) ولا حابس يفوقنا مرداس في المجمع
وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فلما بلغ الرسول ﷺ عتاب عباس بن مرداس الشعري لم يغضب ولم
يحاسبه على ما فاه به من عتاب . وكل ما فعله الرسول ﷺ أنه أمر بأن يعطى
العباس بن مرداس مائة من الإبل بدلاً من الأربع حيث قال ﷺ اقطعوا لسانه
عنى . وقطع اللسان تعبير تعبّر به العرب عندما تريد إسكات إنسان بما يحرص
على الحصول عليه بمثل الأسلوب الذى سلكه العباس بن مرداس وقد أعطوه
مائة من الإبل^(٣) .

ما قاله بعض المنافقين أثناء تقسيم الغنائم

وأثناء تقسيم غنائم حنين وإعطاء المؤلفة قلوبهم كميات خاصة من الإبل تأليفاً
لهم ، تحركت أفاعى النفاق الكامنة في بعض نفوس العناصر الموجودة في
الجيش النبوى . فقالوا في رسول الله ﷺ قولاً منكراً حيث اتهموه بعدم العدل
وعدم إرادة وجه الله فيما صنع . فتألم لما سمع ولكنه لم يتخذ أى إجراء تأديبى
أساءوا إليه بأقوالهم المنكرة تلك .

فقد روى أهل الحديث في الصحاح أن رسول الله ﷺ لما قسم الغنائم في
حنين قال رجل (هو في عداد الأنصار) : ما أراد بها وجه الله فبلغ النبى
ﷺ هذا القول فتغير وجهه ألماً . ثم قال : رحمة الله على موسى لقد أودى
بأكثر من هذا .

(١) الأفائل جمع أفيل ، وهى من صغار الإبل . قاله أبو ذر في شرحه ص ٤١٣ .

(٢) يعنى به عينة بن حصن الذى أعطى مائة من الإبل .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٣٧ ومغازى الواقدي ج ٣ ص ٩٤٧ وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ٩١
وجاء في سيرة ابن هشام والواقدي أن الرسول ﷺ قال لعباس بن مرداس : أنت القاتل : (فأصبح
نهب العبيد بين الأفرع وعينة ؟) فقال أبو بكر : بين عينة والأفرع . فقال رسول الله ﷺ :
هما واحد ، سواء ما يضرك بدأت بالأفرع أم عينة . فقال أبو بكر : أشهد أنك رسول الله (وما علمناه
الشعر وما ينفعى له) .

وفي رواية صحيحة أخرى عن أبي وائل : قال : لما كان يوم حنين أثر النبي ﷺ ناساً ، أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وأعطى عيينة مثل ذلك وأعطى ناساً ، فقال رجل : ما أريد بهذه القسمة وجه الله . فلما بلغ الرسول ﷺ قول ذلك المنحرف . قال ﷺ : رحم الله موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر^(١) .

وفي روايات أخرى صحيحة ، يدعم بعضها بعضاً أن رجلاً من بنى تميم يقال له ذو الخويصرة ، وقف على النبي ﷺ وهو يعطى الناس (من الغنائم) فقال له : يا محمد قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم فقال رسول الله ﷺ : أجل فكيف رأيت ؟ قال لم أرك عدلت . قال : فغضب النبي ﷺ فقال : ويحك إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون ؟ قال عمر بن الخطاب : ألا نقتله ؟ فقال ﷺ : دعوه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية^(٢) ، ينظر في النصل^(٣) فلا يوجد شيء ، ثم في القدح^(٤) فلا يوجد شيء سبق الفرث والدم^(٥) .

ومن طريق آخر عن جابر بن عبد الله . قال : أتى رجل بالجعرانة النبي ﷺ منصرفه من حنين وفي ثوب بلال فضة ، ورسول الله ﷺ يقبض منها ويعطى الناس ، فقال (الرجل) : يا محمد إعدل ، قال : ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أععدل ، لقد خبت وخسرت إذا لم أكن أععدل . فقال عمر بن الخطاب : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : معاذ الله أن تتحدث الناس ' أنى أقتل أصحابي ، إن هذا وأصحابه يقرأون القرآن لا يتجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية . وفي رواية أخرى في الصحيحين من حديث الزهري عن أبي سعيد عن أبي سلمة . قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً (أى بالجعرانة) إذ أتاه ذو الخويصرة ، رجل من بنى تميم . فقال : يا رسول الله إعدل ، فقال رسول الله

(١) صحيح البخاري ج ٥ ص ٢٠٢ .

(٢) الرمية بكسر الراء : الشيء الذي يرمى به .

(٣) النصل : حديد السهم .

(٤) القدح : بكسر القاف وسكون الدال : السهم .

(٥) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٣٩ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٦٢ .

ﷺ : ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل لقد خبت وخسرت ، إذ لم أعدل فمن يعدل ؟ فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله إيدن لي فأضرب عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدهم صلواته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء ثم إلى رصافه^(١) فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر إلى نصله (وهو قدحه) فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى قذذه^(٢) فلا يوجد فيه شيء ، قد سبق الفرث والدم آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدى المرأة أو مثل البضعة ، تدردر ، ويخرجون على حين فرقة من الناس . قال أبو سعيد : فأشهد أنى سمعت هذا من رسول الله ﷺ ، وأشهد أن على بن أبى طالب قاتلهم وأنا معه ، وأمر بذلك الرجل فالتمس فأتى به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله ﷺ الذى نعت . قال ابن كثير : ورواه مسلم أيضاً من حديث القاسم بن الفضل عن أبى نضرة عن أبى سعيد به نحوه^(٣) .

عتاب الأنصار للرسول بشأن الغنائم

كان الأنصار (الأوس والخزرج) منذ بيعة العقبة الكبرى وهى (حسب التعبير العصرى) المعاهدة العسكرية التى أبرمت بين الرسول ﷺ والأنصار . وتعهدوا فيها بحماية الرسول ﷺ كما يحمون نساءهم وأنفسهم وأطفالهم .. كان هؤلاء الأنصار (دائماً وأبداً) العمود الفقرى للجيش النبوى فى أية معركة ضد أعداء الإسلام ، وكانوا هم الذين آووا الرسول ﷺ وتحملوا مسؤولية حمايته بعد أن هاجر إليهم ، مع علمهم بأنهم بذلك يعادون الجزيرة العربية كلها التى كان سكانها يوم ذاك مشركين معادين للتوحيد . وعلى موقف الأنصار النبيل هذا إزاء رسول الله ﷺ ومن هاجر معه من

(١) الرصاف (بكسر الراء) : عقب يلقى على مدخل النصل ، كذا قال فى النهاية فى غريب الحديث .

(٢) القذذ (بضم القاف وفتح الذال) : ريش السهم .

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ، ص ٣٦٣ ومغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٤٨ — ٩٤٩ وتاريخ الطبرى ج ٣

ص ٩٢ .

أهل مكة ، أنشئ الله تعالى بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوْقْ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ (٢) .

فكان الأنصار (كما سماهم الله تعالى) أنصار رسوله الرئيسيين في كل موقف ، وكانوا لكثرة عددهم وشدة بأسهم في الحرب — مركز الثقل في أى جيش يقوده الرسول ﷺ .. ففى معركة بدر الكبرى التى دخل المسلمون بعدها التاريخ من أوسع أبوابه ، كان جيش الإسلام كله ثلاثمائة وثمانية عشر مقاتلاً ، بينهم من الأنصار وحدهم ، حوالى مائتين وثلاثين محارباً .

وفى جيش الفتح الذى فتح الله به مكة المكرمة والذى هو عشرة آلاف مقاتل والمكوّن من أكثر من عشرين قبيلة . كانت قبيلة الأنصار وحدها تشكل نصف هذا الجيش (تقريباً) حيث كان عددهم وحدهم فيه أربعة آلاف مقاتل .

وفى معركة حنين الحاسمة وعندما انهزم الجيش فى المرحلة الأولى من القتال . إنما ناشد الرسول ﷺ — حينما ناشد المسلمين الرجوع إلى ساحة الشرف — أول ما ناشد الأنصار فعادوا إلى الميدان وصاروا القطب الذى دارت رحى هذه المعركة الفاصلة التى انتهت بنصر المسلمين الساحق على مشركى هوازن .

الأنصار الكرام هؤلاء قد عبّروا عن استيائهم للعطايا الجزيلة التى أعطيت من غنائم حنين لبعض زعماء القبائل الحديثى العهد بالإسلام والذين لم يميّض على إسلام بعضهم (كأهل مكة) أكثر من شهر . والذين أعطى كل واحد منهم مائة من الإبل وذلك من الرسول الهادى الذى لا مكان لحب الدنيا فى قلبه — بدافع الحرص على تأليف قلوبهم وجذبهم نحو الإسلام كما بيّن هذا الدافع فيما بعد للأنصار عندما قالوا ما قالوا حول هذا الموضوع .

فقد ذكر المؤرخون وأصحاب الحديث كالبخارى ومسلم . أن الأنصار لما

(١) الحشر ٩ .

(٢) الأنفال ٧٤

(م - ١٢ * غزوة حنين)

أجزل الرسول ﷺ العطاء من الغنائم لزعماء القبائل من الأعراب ومن أهل مكة . صدر عنهم ما يمكن تسميته عتاباً للرسول الأعظم ﷺ .

ولما بلغ هذا العتاب إلى مسامع الرسول ﷺ تأثر له كثيراً حتى بدا عليه الغضب واضحاً . وكان الرسول ﷺ يحب الأنصار كثيراً . لذلك استدعى زعماءهم وأجرى بينه وبينهم حواراً مفتوحاً صريحاً حول ما قالوه ، وحول ما كان السبب في عتابهم للذي صنع الرسول ﷺ من إجزاله العطاء للمؤلفة قلوبهم .

وقد شرح الرسول ﷺ لأحبابه الأنصار وجهة نظره والأسباب التي يجزل العطاء لهؤلاء المؤلفة قلوبهم من زعماء مكة وزعماء القبائل الأخرى . فاقتنع الأنصار في تأثر بلغ حد البكاء — بشرح وإيضاح الرسول ﷺ ، حتى أعلنوا رضاهم بما صنع .

فقد ذكر رواة الحديث وأصحاب المغازي والسير تفاصيل قصة العتاب هذه ، فذكروا أن الأنصار الذين لم تكن حصّة جندي المشاة منهم من غنائم حنين أكثر من أربع من الإبل ، بينما حصل مثل عيينة بن حصن وأبي سفيان ابن حرب وصفوان بن أمية والأقرع بن حابس ، كل واحد منهم على مائة من الإبل ولم تكن لهم أية سابقة في نصر الإسلام .

ذكر رواة الحديث وأصحاب السير أن مما قاله الأنصار في عتابهم للرسول ﷺ بهذا الصدد : (لقي رسول الله ﷺ قومه أما حين القتال فنحن أصحابه ، وأما حين القسم (أى قسم الغنائم) .. فقومه وعشيرته .. ودنا أن نعلم ممن كان هذا .. إن كان هذا من الله صبرنا ، وإن كان هذا من رسول الله ﷺ استعبتناه (١) .

وقال آخرون من الأنصار حين طفق الرسول ﷺ يعطى رجالاً المائة من الإبل : يغفر الله لرسول الله ﷺ ، يعطى قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم (٢) .

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٥٦ — ٩٥٧ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٧ .

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥٦ من حديث صحيح البخاري .

وقال آخرون من الأنصار : والله إن هذا هو العجب إن سيوفنا لتقطر من دمائهم والغنائم تقسم فيهم^(١) وفي رواية للإمام البخارى : قال الأنصار : إذا كانت شديدة فنحن ندعى ويعطى الغنيمة غيرنا^(٢) .

سيد الخزرج يبلغ الرسول عتاب قومه الأنصار

ودخل سعد بن عبادة^(٣) سيد الخزرج على رسول الله ﷺ وأبلغه ما يجد الأنصار في نفوسهم بسبب ما أعطى من غنائم لسادات قريش وزعماء القبائل الأخرى . فقال سعد : إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفىء الذى أصبت . قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ، ولم يكن في هذا الحى من الأنصار شيء ، قال رسول الله ﷺ : فأين أنت من ذلك يا سعد ، قال : يا رسول الله ما أنا إلا من قومي^(٤) .

وفي بعض المصادر قال رسول الله ﷺ : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ فقال سعد : ما أنا إلا كأحدهم ، وإنا لنحب أن نعلم من أين هذا ؟^(٥) .

الرسول يناقش الأنصار حين عاتبوه بشأن الغنائم

قال رواة الحديث وأصحاب السير أن الرسول ﷺ لما بلغه مقالات الأنصار التى تتضمن عتابهم له حين أجزل العطاء من الخمس لبعض سادات العرب ، غضب حتى انعكس فعل الغضب على وجهه الشريف . قالوا : وأمر سيد الخزرج سعد بن عبادة أن يجمع له الأنصار ليتحدث إليهم ويشرح لهم الأسباب التى دعت به إلى أن يصنع ما صنع من الذى أغضبهم فقالوا ما قالوا .. وأمر الرسول ﷺ سعد بن عبادة بأن لا يحضر هذا الاجتماع أحد من غير الأنصار .

وصدع سعد بن عبادة بالأمر فجمع الأنصار (أى ساداتهم) في خيمة

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥٧ عن الصحيحين من حديث شعبة .

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٧ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥٧ نقلاً عن صحيح البخارى .

(٣) انظر ترجمة سعد بن عبادة في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٤) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٩٣ .

(٥) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٩٥٧ .

كبيرة . وأبلغ سعد رسول الله ﷺ باجتماع الأنصار . فحضر إليهم . وجاء رجال من المهاجرين فردّهم لأنه يريد الاجتماع خاصة بالأنصار .

وقد دخل رسول الله ﷺ على الأنصار المجتمعين والغضب يعرف في وجهه ، ثم ألقى فيهم كلمة قال فيها (بعد أن حمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله) : يا معشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم وجدة^(١) وجدتموها في أنفسكم ، ألم آتكم ضللاً فهداكم الله ، وعالة^(٢) فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ، الله ورسوله أمنٌ وأفضل ، قال : ألا تحيوني يا معشر الأنصار ؟ قالوا : وماذا نحْييك يا رسول الله ؟ ولرسول الله المَنُ والفضل ؟.

قال : والله لو شئتم قلتم فصدقتم : أتيتنا مكذباً فصدّقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك^(٣) ، وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار لشيء ، وفي بعض الروايات (لعاهة)^(٤) من الدنيا تألفت به قوماً أسلموا ، ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام ، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله ﷺ ، إلى رجالكم ، فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأة من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار . الأنصار شعار والناس دثار^(٥) .

وفي رواية في الصحيحين أن الرسول ﷺ قال للأنصار : (إن قریشاً حديثو عهد بجاهلية ومصيبة ، وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم ، أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله إلى بيوتكم ؟ قالوا بلى . قال : لو سلك الناس وادياً وسلك الأنصار شعباً لسلكت وادي

(١) المجدة : بكسر الجيم : والموجدة الغضب .

(٢) العالة : الفقر

(٣) آسيناك : أعطيناك حتى جعلناك كأحدنا .

(٤) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥٨ .

(٥) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٤٢ ومغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٥٧ — ٩٥٨ والبداية والنهاية ج

٤ ص ٣٥٨ وتاريخ الطبري ج ٣ ص ٩٣ — ٩٤ صحيح البخاري ج ٥ ص ٢٠٣ والسيرة الحلبية ج

٢ ص ٢٤٧ — ٢٤٨ .

الأنصار أو شعب الأنصار^(١)

وفي بعض المصادر أن الرسول ﷺ — بعد أن أجرى الحوار هذا مع أنصاره وشرح لهم وجهة نظره والسبب الذي جعله يخص بعض القرشيين بالعتاء الجزيل من خمس الغنائم — قال لهم : (أكتب لكم بالبحرين كتاباً من بعدى تكون لكم خاصة دون الناس ، فهو يومئذ أفضل ما فتح الله عليه من الأنصار ، قالوا : وما حاجتنا بالدنيا بعدك يا رسول الله ؟ قال : أما (لا) فسترون بعدى أثره فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ، فإن موعدكم الخوض ، وهو كما بين صنعاء وعمان ، وأنيته أكثر من عدد النجوم . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ، فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم ، وقالوا : رضينا يا رسول الله حظاً وقسماً . وانصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا^(٢) .

وذكر أصحاب الحديث والمغازي أن الرسول ﷺ لما أعطى عيينة بن حصن والأقرع بن حابس . كل واحد مائة من الإبل ، قال له سعد بن أبي وقاص : يا رسول الله أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة وتركك جعيل بن سراقة الضمري^(٣) فقال : والذي نفسي بيده ، لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض^(٤) كلها مثل عيينة والأقرع ، ولكني تألفتها ليسلما ، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه^(٥) .

وروى البخاري عن عمرو بن تغلب قال : أعطى رسول الله ﷺ قوماً

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥٧ .

(٢) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٥٨ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢٤٢ — ٢٤٣ والبدية والنهاية ج

٤ ص ٣٥٨ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٨ .

(٣) قال في أسد الغابة : جعال : وقيل جعيل بن سراقة الغفاري وقيل الضمري ، ويقال الثعلبي . وقيل : إنه في عداد بني سواد من بني سلمة . كان جعيل من أهل الصفة وقرءاء المسلمين . كان من السابقين الأولين في الإسلام . شهد مع الرسول ﷺ أحداً وأصيبت عينه في حصار بني قريظة . وكان جعيل دميماً بشع المنظر . وهكذا فالعبوة بالخير لا بالمنظر .. فالرسول ﷺ قد أغدق هذا الثناء على جعيل لقوة إيمانه وشدة يقينه ولا عليه إن كان بشع المنظر .

(٤) طلاع الأرض : أى ما يملؤها حتى يطلع عنها ويسيل .

(٥) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٩١ ومغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٤٨ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص

ومنع آخرين فكأنهم عتبوا عليه فقال : إني أعطى قوماً أخاف هلعهم وجزعهم ، وأكل قوماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى منهم ، عمرو بن تغلب^(١) قال عمرو : فما أحب أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم .

أخت الرسول التي كانت بين السبايا

قضت ظروف الهزيمة التي نزلت بهوازن في حنين والتي حملت معها كل أموالها ونسائها وأطفالها إلى حيث المعركة .. قضت ظروف الهزيمة (وكما هي شرعة الحرب في الإسلام وفي كل الأعراف والقوانين السائدة في العالم آن ذاك^(٢)) أن يقع كل نساء وأطفال هوازن في الأسر وأن يعتبروا جزءاً من الغنيمة التي تقسم بين المحاربين المنتصرين .

وكان من البديهي أن يقع كل نساء سعد بن بكر بن هوازن (أحوال الرسول ﷺ من الرضاعة) ضمن السبايا في أيدي المسلمين .

وكان من ضمن أولئك السبايا ، الشيماء بنت الحارث^(٣) التي أسماها حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية أم الرسول ﷺ من الرضاعة . وكانت الشيماء تحمل الرسول ﷺ مع أمها حليلة وتقوم عليه وترعاه عندما كان طفلاً رضيعاً في بني سعد بديار هوازن .. الشيماء هذه التي هي أخت الرسول ﷺ من الرضاعة وقعت سبيّة في أيدي الجيش الإسلامي يوم حنين ضمن سبي هوازن .

(١) هو عمرو بن تغلب العنبري من عبد القيس ، وقيل من بكر وائل وقيل من النمر بن قاسط . وقيل غير ذلك . قال في أسد الغابة : وجميع ما ذكر في نسبه يرجع إلى أسد بن ربيعة ، فهو ربيعي على الاختلاف الذي فيه . سكن عمرو بن تغلب البصرة ، وروى عنه الحسن البصري . وعن عمرو بن تغلب روى الحديث الخطير (كما في أسد الغابة) وهو أن من أشراط الساعة أن تكثر التجار . ويظهر القلم ، يعني أن التجار يكثرون لكثرة المال ، ويكثر الذين يكتبون ، فإن الكتابة كانت قليلة في العرب . شهد عمرو أحداً مع رسول الله ﷺ والمشاهد بعدها .

(٢) انظر أوسع التفاصيل عن موقف الإسلام من الرق الحربي ومنه السبايا وذلك في كتابنا الرابع (غزوة بني قريظة) تحت عنوان (الإسلام والرق) ، وأن الرق الحربي في الإسلام هو من باب العمل الحربي المقابل .

(٣) الشيماء لقب لها . أما اسمها فهو حذافة بنت الحارث السعدية . أسلمت الشيماء ورجعت إلى ديار قومها هوازن بعد أن حررها الرسول ﷺ وأكرمها وخيرها بين أن تقيم عنده أو تعود إلى ديارها .

وكان بعض الذين سبوا من المسلمين قد عَنَفُوا عليها في السياق . فكانت تقول لهم : إني والله أخت صاحبكم ، ولا يصدقونها ، وكان الذين أخذوها طائفة من الأنصار وكانوا أشد الناس على هوازن . فلما أتوا بها الرسول ﷺ قالت : إني أختك من الرضاعة . قال : وعلامة ذلك ؟ قالت : عضه عضضتها في ظهري وأنا حاملتك على وركي بوادي السر ونحن يومئذ برعائهم ، أبوك أُمِّي وأُمك أُمِّي ، قد نازعتك الثدى ، وتذكر يا رسول الله .

فعرف رسول الله العلامة فوثب قائماً ، ثم بسط لها رداءه وقال لها : اجلسي عليه ، ورحب بها ودمعت عيناه وسألها عن أمه وأبيه من الرضاعة فأخبرته موتها في الزمان ، فخيرها رسول الله ﷺ بين أن تقيم عنده وبين أن تعود إلى قومها قائلاً : إن أحببت فأقيمى عندنا محبة مكرمة ، وإن أحببت أن ترجعي إلى قومك وصلتك رجعت إلى قومك . قالت : أرجع إلى قومي ، ثم أسلمت فأكرمها رسول الله ﷺ فأعطاه نِعْماً وشاء ، ومما أعطاه عبد وجارية زوّجت أحدهما الآخر .

وجاء في بعض المصادر أن الرسول ﷺ لما بسط رداءه لأخته الشيماء قال لها : سلى تعطى . واشفعى تشفعى .

وقالوا : إن الشيماء شفعت عند رسول الله ﷺ في رجل من قومها بنى سعد اسمه بجاد . هذا الرجل قد استحق عقوبة الإعدام ، لأنه قتل رجل من المسلمين ومثل به ، حيث حرقه بالنار بعد أن قتله . فأمر الرسول ﷺ خيله بطلبه ، وقال : إن قدرتم على بجاد فلا يفلتن منكم .

قال الواقدي : وكان بجاد من بنى سعد وكان قد أتاه رجل من المسلمين فأخذه بجاد فقطعه عضواً عضواً ، ثم حرقه بالنار ، فكان قد هرب ، فأخذته الخيل فضمّوه إلى الشيماء بنت الحارث ، وقال عبد الصمد : لما رجعت الشيماء إلى منزلها بالجعرانة بعد أن عرفها رسول الله ﷺ وأكرمها كلمها النسوة من هوازن في بجاد ، فرجعت إلى أخيها الرسول ﷺ وطلبت منه أن يهب لها بجاداً ويعفو عنه ففعل^(١) .

(١) مغازي الواقدي ج ٣ .

الرسول ﷺ يحرر سبائا هوازن

قلنا كان رسول الله ﷺ عقب عودته من حصار الطائف انتظر حوالى شهر فى الجعرانة ، لم يقسم السبائا من هوازن على الجيش الإسلامى ، على أمل أن يتقدم وجوه هوازن وزعمائها بطلب يلتمسون فيه تحرير نسائهم وأطفالهم ، ولكن هوازن توانت فى التقدم بمثل هذا الطلب إلى الرسول القائد ﷺ ، وألح عامة الجيش الإسلامى المنتصر على رسول الله ﷺ طالبين منه تقسيم الغنائم بما فى ذلك السبى فقسم الرسول ﷺ على الجند لأن ذلك حق من حقوقهم كما تقتضى بذلك قوانين الحرب فى الإسلام . ففساء العدو المحارب وأبناءؤه وأمواله يكونون ملكاً للجيش المنتصر ، ومن السبى يتكوّن الرقيق .

وقد ذكرنا فى كتابنا الرابع (غزوة بنى قريظة) بالتفصيل موقف الإسلام من الرق ، وأن هذا الدين قد جاء لتحرير البشرية فردم جميع منابع الرق المتعارف عليها فى العالم آن ذاك ، ولم يبق إلا على الرق الحربى كعملية عسكرية مقابلة . ومع ذلك فقد رغب الإسلام ترغيباً كبيراً فى تحرير هذا النوع من الرقيق الذى أقره^(١) ، وكان الرسول ﷺ يحرص دائماً على تحرير الرقيق بدليل أنه (كما سيأتى فى هذا البحث) حرر ستة آلاف من سبى هوازن بعد أن شفع لأهاليهم عند جند الجيش الإسلامى .

وفد هوازن بين يدى الرسول ﷺ

وكما كان الرسول ﷺ يتوقع ، فقد بعثت هوازن بوفد من كبار زعمائها لمقابلة الرسول ﷺ ليقدم التماساً إلى الرسول ﷺ يطلب فيه المنّ على السبى وتحريرهم .

ولكن وفد هوازن جاء بعد أن جرت قسمة السبى بين عامة الجيش ، فكانت إعادتهم إلى أهاليهم وتحريرهم فيها شىء من الصعوبة والتعقيد . ولكن الرسول ﷺ تغلب على هذه الصعوبة واتخذ الإجراءات الكفيلة بإعادة السبى إلى ذويه من هوازن .

(١) أنظر البحث الواسع الفصل عن مواقف الإسلام من الرق وتنفيذ شبه أعداء الإسلام التى يثرونها بسبب موقفه من الرق الحربى .. انظر ذلك فى كتابنا (غزوة بنى قريظة) فى الفصل بعنوان (الإسلام والرق) .

كان وفد هوازن إلى الرسول ﷺ مكوّناً من أربعة عشر رجلاً . وكان رئيسهم ، أبو صرد زهير بن صرد^(١) وكان في الوفد عم الرسول ﷺ وكان أحد المتكلمين . وكان وفد هوازن قد جاء مسلماً كما جاء بإسلام من وراءه من هوازن .

استقبل الرسول ﷺ الوفد وأكرمهم وأحسن استقبالهم ، ثم تكلم رجال الوفد في المهمة التي من أجلها جاءوا ، فأخبرهم الرسول ﷺ أنه قد تأنى في قسمة السبي وانتظرهم كثيراً حتى ظن أنهم لن يأتوا ، فأجرى السهمين على السبي وجرت قسمته بين عامة الجيش ، غير أنه ﷺ وعدهم بأنه سيسعى لتحرير السبي رغم أنه قد توزع وقسم على الجند كجزء من الغنائم . وفعلاً بذل الرسول ﷺ مساعيه لدى عامة الجيش كي يحرر كل منهم ما في يده من سبي هوازن ، ومن تمسك بحقه في السبي دفع له الرسول ﷺ تعويضاً من بيت مال المسلمين حتى حرر جميع سبي هوازن وعددهم ستة آلاف رأس .

قال الواقدي : فقدم وفد هوازن ، وكان في الوفد عم الرسول ﷺ من الرضاة ، قال يومئذ : يا رسول الله ، إنما في هذه الحظائر من كان يكفلك من عمّاتك وخالاتك وحواضنك وقد حضنّك في حجورنا ، وأرضعنك بشدنا ، ولقد رأيتك مرضعاً فما رأيت مرضعاً خيراً منك ، ثم رأيتك شاباً فما رأيت شاباً خيراً منك ، وقد تكاملت فيك خلال الخير ، ونحن مع ذلك أهلك وعشيرتك ، فامن علينا من الله عليك .

فقال رسول الله ﷺ : قد استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون وقد قُسم السبي وجرت فيهم السهمان .

ويؤكد الواقدي إسلام الوفد وإسلام من خلفهم من هوازن وإنهم جاءوا بإسلام الجميع فيقول : وقدم على رسول الله ﷺ أربعة عشر رجلاً من هوازن مسلمين ، وجاءوا بإسلام من وراءهم من قومهم ، فكان رأس القوم والمتكلم أبو صرد زهير بن صرد ، فقال : يا رسول الله ، إنا أهلك وعشيرتك ، وقد

(١) هو زهير بن صرد (بضم الصاد وفتح الراء) أبو صرد وقيل : أبو جرد ، الجشمي : السعدي ، من بني سعد بن بكر (فهو خال رسول الله ﷺ سكن زهير المذكور الشام . ذكر ذلك ابن الأثير في أسد الغابة ثم ساق قصة خطبة زهير وغيره بين يدي رسول الله ﷺ .

أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك . يا رسول الله ، إنما في هذه الحظائر
عمّاتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك ، ولو ملحناً^(١) للحازن
ابن أبي شمر وللنعمان بن المنذر ، ثم نزلاً منا بمثل الذي نزلت به ، رجونا
عطفهما وعائدتهما^(٢) ، وأنت خير المكفولين . ويقال إنه قال يومئذ — أبو
صرد —: إنما في هذه الحظائر أخواتك وعمّاتك وبنات عمّاتك وخالاتك
وبنات خالاتك ، وأبعدهنّ قريب منك يا رسول الله ، بأني أنت وأمي ، إنهن
حضنّك في حجورهن ، وأرضعنك بشديهن ، وتورككنك على أوراكنهن وأنت خير
المكفولين ثم أنشد :

أمنن علينا رسول الله في كرم فإنك المرء نرجوه ونذخرُ
أمنن على نسوة قد عاقها قدرٌ ممزق شملها في دهرها غيرُ
أمنن على نسوة قد كنت ترضعها إذ فوك مملوءة من محضها الدرر^(٣)
اللاتي إذا كنت طفلاً كنت ترضعها وإذ يزينك ما تأتى وما تذُرُ
ألا تداركها نعماء تنشرها يا أرجح الناس حتى حين يختبرُ
لا تجعلنا كمن شامت نعامته^(٤) واستبق منا فإنّا معشر زهرُ
إنا لنشكر آلاء وإن قدمت وعندنا بعد هذا اليوم مدخرُ

قالوا : وبعد أن تكلم رجال وفد هوازن في أسراهم وطالبوا بتحريرهم والمن
عليهم تكلم الرسول الأعظم ﷺ فقال : إن أحسن الحديث أصدقه وعندى
من ترون من المسلمين ، فأبناءكم ونساءكم أحب إليكم من أموالكم^(٥) قالوا :
يا رسول الله خيرتنا بين أحسابنا وبين أموالنا ، وما كنا نعدل بالأحساب
شيئاً ، فرد إلينا أبناءنا ونساءنا ، فقال النبي ﷺ : أما مالى ولبنى عبد

(١) قال في النهاية لابن الأثير : ملحن ، أرضعنا لها .

(٢) العائد : الفضل ، قاله أبو ذر في شرحه ص ٤١١ .

(٣) الدرر (بكسر الدال) : الدفعات الكثيرة من اللبن قاله في السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٥٠ .

(٤) شالت نعامتهم قال في القاموس المحيط : تفرقت كلمتهم أو ذهب عزمهم .

(٥) وفي السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٥٠ جاء أن النبي ﷺ قال لو فد هوازن : قد وقعت المقاسم
مواقعها ، فأى الأيمن أحب إليكم ، أطلب لكم السبي أم الأموال ، وإنما قال ﷺ لهم : قد وقعت
المقاسم ، أى لأنه لا يجوز للإمام أن يمين على الأسرى بعد القسم ، وإنما يمين عليهم قبله ، كما وقع له ﷺ
في يهود خيبر ولا يخفى أن هذا في الرجال دون الذراري .

المطلب فهو لكم ، وأسأل لكم الناس ، وإذا صليت الظهر بالناس فقولوا :
إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين . وبالمسلمين إلى رسول الله ، فأني
سأقول لكم : ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وسأطلب لكم إلى
الناس ، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر بالناس قام الهوازيون فتكلموا بالذي
أمرهم به ، فقالوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى
رسول الله ، فقال رسول الله أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم ،
فقال المهاجرون : فما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، وقالت الأنصار : ما كان
لنا فهو لرسول الله ﷺ ، وامتنع الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن وعباس بن
مرداس والسلمي عن التصديق بتحريض ما في أيديهم من سبايا .

فقد قال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال عيينة : أما أنا
وفزارة فلا ، وقال عباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا .

إلا أن بنى سليم خالفوا سيدهم عباس بن مرداس ، وقالوا : أما ما كان لنا
فهو لرسول الله ﷺ فقال عباس : وهنتموني (أى أضعفتموني) .

وبعد الأخذ والرد وقف الرسول ﷺ خطيباً وأعلن أن جميع السبي من
هوازن سيحرر وأن كلاً من هذا السبي سيعود إلى أهله ، وأعلن النبي ﷺ أن من لم
تطب نفسه بالتصدق بالعتق ، فإن بيت مال المسلمين سيدفع له التعويض
اللازم عما في يده من سبي لا يرغب في التصديق بعتقه .

فقد قال الرسول ﷺ لقادة الجيش وزعماء القبائل المشتركين في معركة
حنين : إن هؤلاء القوم (يعنى هوازن) جاءوا مسلمين ، وقد كنت
استأنيت بهم فخيرتهم بين النساء والأبناء والأموال ، فلم يعدلوا بالنساء
والأبناء ، فمن كان عنده منهن شيء فطابت نفسه فليرسل (أى يطلق) ومن
أبى منكم وتمسك بحقه فليرد عليهم ، وليكن فرضاً علينا ست فرائض (أى
ست من الإبل) من أول ما يفى الله به علينا .

وقد حدد الرسول ﷺ نوع التعويض للمتمسكين بحقوقهم في السبي فجعل

فداء الفرد من السبي (من بيت المال) ثلاث حقا^(١) وثلاث جذاع^(٢)

وقد قبل الممتنعون بالتعويض الذى حدده الرسول ﷺ .

أما الأغلبية الساحقة من الجيش الإسلامى المنتصر فى حنين وهم المهاجرون والأنصار وبنو سليم فقد تصدقوا بعق ما فى أيديهم من سبي .

أما المتمسكون بحقهم فى السبي (وهم أقلية قليلة من الأعراب) فقد قبلوا بالتعويض الذى حدده الرسول ﷺ : وقالوا رضينا وسلمنا . فقال لهم رسول الله ﷺ : فمروا عرفاءكم أن يدفعوا ذلك إلينا حتى نعلم ففعلوا .

وهكذا حرر الرسول ﷺ ستة آلاف من سبي هوازن فى حنين فأعتقهم جميعاً ومنع أن يجرى عليهم الرق . وهذه المناسبة روى أن معاذ بن جبل كان يقول : قال رسول الله ﷺ يومئذ : لو كان ثابتاً على أحد من العرب ولاء أو رق لثبت اليوم ، ولكن إنما هو إसार وفدية .

ثم إن الرسول ﷺ لكى يستوثق أكثر من المهاجرين والأنصار (وهم الأغلبية الساحقة بين الجند الذين شاركوا فى تحقيق النصر يوم حنين) بعث مندوبين ليطوفوا عليهم فيستوثق بأنهم راضون بعق ما فى أيديهم من سبايا هوازن .

فإلى المهاجرين بعث عمر بن الخطاب ، وإلى الأنصار بعث زيد بن ثابت ، فكان زيد بن ثابت يطوف على الأنصار يسألهم : هل سلموا ورضوا ؟ فخبروه أنهم سلموا ورضوا . ولم يتخلف رجل واحد ، وبعث عمر بن الخطاب إلى المهاجرين يسألهم عن ذلك ، فلم يتخلف رجل واحد ، وكان أبو رهم الغفارى يطوف على قبائل العرب ، ثم جمعوا العرفاء ، واجتمع الأمناء الذين أرسلهم رسول الله ﷺ فاتفقوا على قول واحد ، تسليمهم ورضاهم ودفع ما كان فى أيديهم من السبي^(٣) .

(١) الحقاق (بكسر الحاء) : جمع الحق والحق من الإبل الداخلة فى السنة الرابعة ، القاموس المحيط ج ٢ ص ٢٢١ .

(٢) الجذاع : جمع الجذع ، وهو من الإبل ما دخل فى السنة الخامسة .

(٣) طبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ١٥٣ - ١٥٤ وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ٨٦ - ٨٧ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٣١ - ١٣٢ ومغازى الواقدي ج ٣ ص ٩٥٠ - ٩٥١ - ٩٥٢ -

إسلام ملك هوازن وقائدها مالك بن عوف^(١) :

كان مالك بن عوف قائد هوازن وملكها قد قاتل قتالاً مريراً يوم حنين هو وقبيلته بنو نصر حتى استحر القتل بينهم وكادوا أن يفنوا .

غير أن القائد مالكا لما رأى أن هوازن قد خسرت المعركة ، وأن الاستمرار في مقاتلة المسلمين لم يعد نافعا ولا مجدياً لهوازن قرر الانسحاب مع هيئة أركان حربه من مكان المعركة لينجو من سيوف المسلمين .

فانسحب إلى بلاده عن طريق نخلة (وهو المسمى اليوم باليمانية) ، ثم استمر في الهرب حتى وصل وادي لية بالقرب من الطائف ، وهناك تحصن في حصن له . ثم ترك وادي لية والتحق بالطائف حيث تحصن مع ثقيف في حصنها . وكانت ثقيف من أهم بطون هوازن .

وكان رسول الله ﷺ — وهو في طريقه لمحاصرة الطائف — قد هدم حصن مالك بن عوف وحرقه بالنار عندما مرّ عليه بهذا الوادي .

النبي يعلن العفو عن مالك بن عوف

ويذكر أصحاب المغازي والسير أن الرسول ﷺ بعد أن فرغ من تقسيم الغنائم في الجعران وأعاد السبي إلى هوازن سأل وفد هوازن عن ملكهم وقائدهم

= ٩٥٤ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٥٠ — ٢٥٢ وأسد الغابة ج ٢ ص ٢٠٨ — ٢٠٩ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٤٢ — ٣٥٣ — والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٣٢ — ١٣٣ .

(١) هو مالك بن عوف بن سعد بن ربيعة بن يربوع بن وائلة بن دهمان بن نصر بن معاوية بن بكر ابن هوازن النضري ، قال في أسد الغابة : يكنى أبو علي ، كان مالك شجاعاً مقداماً إلى حد التهور . وهو الذي كان يرأس المشركين يوم حنين لما انتهم المسلمون وعادت الهزيمة على المشركين ، وكان مالك ملكاً متوجاً على هوازن .. ويذكر أصحاب السير والتراجم أن مالكا حمل بنفسه يوم حنين على النبي ﷺ قاصداً قتله ، وكان مالك على فرس له يقال له : مجاج ، فأحجم الفرس ولم يتقدم ، ثم أراده ليحمل على الرسول ﷺ فلم يتقدم أيضاً فقال مالك :

أقدم مجاج إنه يوم نكر مثل على مثلك يحمى ويكر
ويطعن الطعنة تهري وتهر لها من الجوف نحيب منهمر
ويقلب العامل فيها منكسر إذا اخزألت زمراً بعد ومر
أسلم مالك بن عوف وحسن إسلامه ، وقد جعله النبي ﷺ أميراً على من أسلم من قومه قيس عيلان .. وقد شهد مالك بعد رسول الله ﷺ فتح الشام وشهد القادسية أيضاً بالعراق مع سعد بن أبي وقاص . ولم نجد فيما بين أيدينا من تراجم متى وأين توفي مالك بن عوف .

مالك بن عوف النصرى . قالوا : يا رسول الله ، هرب فلحق بحصن الطائف مع ثقيف قال رسول الله ﷺ : أخبروه أنه إن كان يأتي مسلماً رددت عليه أهله وماله ، وأعطيته مائة من الإبل . وكان النبی ﷺ قد أمر بالحجز التحفظى على أموال مالك بن عوف وأهله ، وأن لا تجرى عليهم قسمة الغنائم كغيرهم .

فحفظت أموال القائد مالك بن عوف وأهله بمكة عند عمتهم ، أم عبد الله بنت أوى أمية . فلما أمر الرسول ﷺ بالحجز التحفظى على أموال القائد مالك وأهله . قال وقد من هوازن : يا رسول الله أولئك سادتنا وأحبتنا إلينا . فقال الرسول ﷺ : إنما أريد بهم الخير .

فلما بلغ ملك هوازن وقائدها ما قاله النبی ﷺ بشأنه ، وما وعده به من خير إن هو دخل فى الإسلام ، وأن أهله وماله موقوف لم يجر عليه سهم القسمة ، قرر أن يلتحق بالرسول ﷺ ويعلن إسلامه ، ولكنه خاف أن تعلم ثقيف أن الرسول ﷺ قال ما قال بشأن مالك وماله وأهله فيحبسونه منعاً له من اللحاق بالنبي ﷺ .

لذلك تكتم على الخبر وقرر أن يغادر الطائف سراً ، فطلب ممن يثق به أن يهيه له راحلة فيضعها له جاهزة فى مكان يقال له : دحنا^(١) ثم أمر بفرسه فجاءه به أحد أتباعه ليلاً فخرج من حصن الطائف (خلصة) ثم امتطى صهوة جواده ، فركضه حتى أتى دحنا ، ومن هناك ركب على بعيره فلحق برسول الله ﷺ ، فلما جاء ، رد عليه النبی ﷺ أهله وماله ، ثم أعطاه مائة من الإبل . وهنا أسلم مالك فحسن إسلامه^(٢) .

قائد المشركين يتحول إلى قائد المسلمين .

وبعد أن أسلم القائد مالك بن النصرى الذى قاد معركة حنين الفاصلة ضد الجيش النبوى ، وبعد أن اطمأن الرسول ﷺ إلى إسلامه ، ولأه الرسول ﷺ على من أسلم من قومه من هوازن وفهم ، وجعله قائداً عسكرياً يجاهد

(١) دحنا : مخلاف من مخاليف الطائف

(٢) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٩٥٤ - ٩٥٥ .

بهم المشركين في سبيل الله .

وقد انضم إلى القائد مالك (وكان زعيماً شجاعاً مشهوراً) انضم إليه كل الذين دانوا بالإسلام في المناطق القريبة من الطائف ، فعقد له الرسول ﷺ عليهم لواءاً ، فكوّن مالك من هؤلاء المسلمين جيشاً صار يغير بهم على من كان على الشرك .

وهكذا وبعد أن كان هذا الشاب الشجاع مصدر قلق وإزعاج للإسلام والمسلمين حين جيش الجيوش لمحاربة المسلمين وهزمهم في حنين (أول الأمر) . تحول الى عامل توطيد لدعائم الإسلام ، ومصدر إزعاج لمن بقي على الشرك من قبائل تلك النواحي التي يجاورها .

فبعد أن جعله الرسول ﷺ أميراً وقائداً على المسلمين من قومه وسكان النواحي المجاورة صار يشن بهم الغارات على أهل الشرك وخاصة قومه ثقيف الذين هم أقوى قوة بقيت من هوازن بعد الهزيمة في حنين تناوى الإسلام .

كيف يصنع الإسلام إذا لامس القلب

وهكذا هو الإسلام إذا لامس قلب الإنسان وخالطه ، أزال من الإنسان كل عوامل الشر ، وغرس مكانها عناصر الخير .

فهذا مالك بن عوف النصري ، عندما كان على شركه — غاية في العناد والمكابرة والمضى في مضمار الشيطان . فقد رأينا كيف جمع مالك عشرين ألف مقاتل من هوازن وأحلام تدمير الإسلام والاستيلاء على مكة تداعب خياله ، فخرج بهذه القوات غازياً ، ومصمماً على إخراج المسلمين من مكة انتصاراً للشرك والوثنية ، ورأينا كيف بذل مالك جهده لإنزال الهزيمة المدمرة بالمسلمين ، وكيف أنه (عناداً منه) عندما عارض بعض عقلاء قومه حمله النساء والذرية والأموال مع الجيش فعارضوا بعض مخططاته للمعركة ، هددهم بأنه سينتحر إذا لم يوافقوه على الخطة التي رسمها لمحاربة المسلمين ، ورأينا كيف كان جهده وصبره في القتال لتوطيد دعائم الشرك في حنين .

ولكن ها هو اليوم مالك بنفسه — وبعد أن جعل الإسلام منه إنساناً آخر ، إنساناً أديب القرآن وهذب طباعه النافرة بالإسلام — ها هو يتحول إلى

سيف باتر سله الله على المشركين ، فصار يشن عليهم الغارات صادقاً مخلصاً للإسلام ، حتى دوحهم ، وخاصة قومه ثقيف ، فصار جهاده من أكبر العوامل التي مهدت الطريق لسلطان الإسلام كى ييسط ظله على ثقيف التي ظلت حتى السنة التاسعة للهجرة مستعصية تقاوم الدعوة الإسلامية وتحاربها بكل شراسة وعناد .

قال الواقدي : واستعمل رسول الله ﷺ مالك بن عوف على من أسلم من قومه ومن تلك القبائل حول الطائف من هوازن وفهم ، فكان قد ضوى إليه قوم مسلمون ، وعقد له لواء ، فكان يقاتل بهم ، ولا يخرج لثقيف سرح^(١) إلا أغار عليه ، وقد رجع حين رجع وقد سرح الناس مواشيهم ، وأمنوا فيما يرون حيث انصرف عنهم رسول الله ﷺ ، فكان لا يقدر على سرح إلا أخذه ، ولا على رجل إلا قتله ، فكان قد بعث إلى النبي ﷺ بالخمس مما يغير به ، مرة مائة بعير ومرة ألف شاة ، ولقد أغار على سرح لأهل الطائف فاستاق ألف شاة في غداة واحدة . فقال أبو محجن بن حبيب .

تهاب الأعداء جانبنا ثم تغزونا بنو سبه
وأنا مالک بهمو ناقضاً للعهد والحرمه
وأتوننا في منازلنا ولقد كانوا أولى نقمه

وقال مالك بن عوف شعراً يمتدح الرسول ﷺ وهو :

ما إن رأيت ولا سمعتُ بمثله في الناس كلهمو بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدي ومتى تشأ يُخبرك عما في غد
وإذا الكتيبة عرّدت أنيابها بالمشرفي^(٢) وضرب كل مهنّد^(٣)

(١) السرح (بفتح السين وسكون الراء) : ما يسرح من الماشية في المراعى من الإبل والشاء والخيل وغير ذلك .

(٢) المشرفى السيف . قال أبو غبيدة : نسبت السيوف المشرفية إلى مشارف ، وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، وقيل : هى فى جنوب الشام قرب حدود الجزيرة العربية .

(٣) المهنّد : السيف المطبوع من حديد الهند .

فكانه ليثٌ على أشباله وسط الهباء^(١) خادِر^(٢) في مرصد^(٣)

إسلام صفوان بن أمية^(٤)

كان صفوان بن أمية الجمحي سيداً من سادات قريش وذوى العقول الراجحة ، وكان من زعماء قريش الذين أولاهم النبي ﷺ اهتماماً خاصاً وقال : إنه يربأ بهم عن أن يظلموا على الشرك . وعندما حرر الجيش النبوى مكة أعطى الرسول ﷺ الأمان ، ثم منحه مهلة أربعة أشهر ليقرر بمحض إرادته ما إذا كان يريد الدخول فى الإسلام .

وقد خرج صفوان (وهو مشرك ضمن الجيش النبوى إلى حنين ، ورغم بقائه على شركه فقد كان موالياً للجيش النبوى يتمنى له النصر على مشركى هوازن ، بدليل أنه لما بشره بعض المنحرفين القرشيين بانهزام المسلمين ، انتهره صفوان وزجره وقال له : اسكت فض الله فاك ، لأن يربنى (أى يكون ملكاً على) رجل من قريش أحب إليّ من أن يربتنى رجل من هوازن^(٥) .

وظل صفوان (على شركه) ضمن الجيش النبوى ، لم يأت أى عمل مشين ضد المسلمين ، بل كان كثيراً (بعد النصر) ما يتجول مع الرسول ﷺ لتفقد الغنائم وأحوال السبى ، وقد أعطاه النبي ﷺ — وهو على شركه — من الخمس مائة من الإبل .

وذكر بعض المؤرخين أن النبي ﷺ بينما كان يطوف على الغنائم بالجرعانة ، ومعه صفوان بن أمية ، إذ مر بشعب مما أفاء الله على المسلمين ، فيه غنم وإبل ورغاؤها مملوء ، فأعجب صفوان وجعل ينظر إليه ، فقال له رسول الله ﷺ أعجبك أبا وهب ؟ قال : نعم . قال : هو لك وما فيه ، فقال صفوان : أشهد ما طابت بهذا نفس أحد قط إلا نبى ، وأشهد أنك رسول الله ، وأسلم

(١) الهباء . قال فى شرح أبى در : الغبرة .

(٢) الخادى : الداخل فى خدره ، والخدر هنا غابة الأسد .

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٦١ ومغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٥٥ — ٩٥٦ وسيرة ابن هشام ج

٤ ص ١٣٣ — ١٣٤ وأسد الغابة ج ٤ ص ٢٨٩ — ٢٩٠ .

(٤) أنظر ترجمة صفوان بن أمية فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٥) أسد الغابة ج ٣ ص ٢٣ .

وحسن إسلامه^(١). وعن صفوان نفسه قال : مازال رسول الله يعطيني من غنائم حنين وهو أبغض الخلق حتى ما خلق الله شيئاً أحب إليّ منه^(٢).

عودة الرسول ﷺ إلى المدينة.

وبعد أن انتهى الرسول من توزيع الغنائم على الجيش المنتصر ، فأعطى كل ذى حق حقه ، بموجب قانون تقسيم الغنائم الذى نزل به القرآن ، وأعطى المؤلفه قلوبهم من الخمس مئآت من الإبل . وبعد أن أقام بالجرعانة (وهى من الضواحي القريبة من مكة) ثلاثة عشر ليلة ، من الخامس ذى القعدة حتى الثامن عشر منه سنة ثمان للهجرة ، قرر العودة بأصحابه إلى المدينة .

ولكنه قبل أن ينصرف إلى المدينة دخل مكة المكرمة وأدى وأصحابه نسك العمرة حيث أحرم بالعمرة من الجعرانة التى تقع خارج حدود الحرم .

وبعد أن أكمل وأصحابه مناسك العمرة ، تفقد أحوال العاصمة المقدسة ومسقط رأسه ، وأقام فيها السلطات المدنية حيث عين عليها حاكماً يدير شئونها ، وهو عتاب بن أسيد . كما أسند إلى فئة الفقهاء والقراء . من خيرة أصحابه مهمة تعليم أهل مكة الحديثى العهد بالإسلام — أمور دينهم ، فيفقهونهم فى الدين ، ويقرؤونهم القرآن ، ليعرفوا الدين الجديد الذى دخلوا فيه حديثاً — على حقيقته .

ورغم المعاملة السيئة التى كان أهل مكة يعاملون بها الرسول ﷺ طوال إقامته بين أظهرهم قبل الهجرة ، فقد أبدى عطفاً ملحوظاً عليهم ، فأوصى عامله الجديد على مكة . أوصاه بأهلها الذين سماهم أهل الله^(٣) . وبعد أن أقام وجيشه بمكة ليلتين غادرها إلى المدينة ، وذلك يوم الخميس لعشر بقين من شهر ذى القعدة سنة ثمان للهجرة . وقد استبقى ما تبقى من خمس غنائم حنين وهى آلاف من الجمال والغنم . استبقى هذا المتبقى من الخمس حيث حبسه (عند دخوله مكة للعمرة) بمجئته بناحية مر الظهران^(٤) وذلك لكى

(١) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٩٤٦ وأسد الغابة ج ٣ ص ٢٣ .

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٦٠ وأسد الغابة ج ٣ ص ٢٣ .

(٣) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٩٥٩ .

(٤) مر الظهران (بفتح الميم) هو المسمى اليوم : وادى فاطمة .

يصطحبه معه ليقسمه على الأعراب المنتشرين ما بين مكة والمدينة تأليفاً لقلوبهم كي يثبت منهم من دخل في الإسلام ويرغب فيه من لم يكن قد دخل فيه^(١).

قال الإمام الواقدي يصف عملية رحيل الرسول ﷺ وأصحابه من مكة إلى المدينة بعد انتهاء معركة حنين وحصار الطائف : (وانتهى رسول الله ﷺ إلى الجعرانة ليلة الخميس لخمس ليال خلون من ذي القعدة فأقام بالجعرانة ثلاث عشرة ، فلما أراد الانصراف إلى المدينة ، خرج من الجعرانة ليلة الأربعاء لاثني عشر بقيت من ذي القعدة ليلاً ، فأحرم من المسجد الأقصى الذي تحت الوادي بالعدوة القصوى ، وكان مصلى رسول الله ﷺ إذا كان بالجعرانة — فأما هذا المسجد الأدنى ، فبناه رجل من قريش واتخذ ذلك الحائط عنده — ولم يجز رسول الله ﷺ الوادي إلا محرماً ، فلم يزل يلبي حتى استلم الركن . ويقال : لما نظر إلى البيت قطع التلبية ، فلما أتى أناخ راحلته على باب بنى شيبه ، ودخل وطاف ثلاثة أشواط يرمل^(٢) من الحجر إلى الحجر ، ثم خرج فطاف بين الصفا والمروة على راحلته ، حتى إذا انتهى إلى المروة في الطواف السابع حلق رأسه عند المروة ، حلقه أبو هند^(٣) عبد بنى يياضة ، ويقال حلقه خراش بن أمية^(٤) .

ولم يسق رسول الله ﷺ منها هدياً ، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى الجعرانة فكان كبائب بها ، فلما رجع إلى الجعرانة خرج يوم الخميس فسلك في وادي الجعرانة ، وسلك معه حتى خرج على سرف^(٥) ، ثم أخذ الطريق حتى انتهى إلى مَرَّ الظهران .

(١) انظر البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٦٨ .

(٢) الرمل هو الإسراع في المشي .

(٣) هو أبو هند الحجاج البياضي ، مولى فروة بن عمرو البياضي ، اسمه عبد الله ، وقيل : يسار ، تخلف عن بدر ، وشهد ما بعدها من المشاهد ، حجج النبي ﷺ في يافوخه من وجع كان به ، وفي أبي هند هذا ، قال النبي ﷺ : إنما أبو هند امرؤ من الأنصار فأنكحوه وأنكحوا إليه يا بني يياضة (أسد الغابة ج ٥ ص ٣١٨) .

(٤) أنظر ترجمة خراش بن أمية في كتابنا (صلح الحديبية) .

(٥) سَرَف بفتح السين وكسر الراء (موضع على ستة أميال من مكة .

أمير مكة الشاب القوى الصالح

وبما أن مكة المكرمة مدينة كبيرة ، ولها منزلة عظيمة بين المسلمين حيث بها وحواليها توجد كل مقدسات الإسلام والمشاعر التي يحج إليها المسلمون فقد أصدر الرسول ﷺ قبل مغادرته لها — مرسوماً عين بموجبه حاكماً لها ، عتاب بن أسيد الزهري ، وكان شاباً في حوالى الثالثة والعشرين من عمره . وقد اختاره الرسول ﷺ — رغم صغر سنه ورغم أنه لم يسلم إلا يوم الفتح — إختاره من بين جميع سادات مكة وأشرفها ، لأنه راجح العقل حسن الإسلام وسيد مطاع بين قومه ويتمتع باحترام كبير بين القرشيين ، وقد ظل عتاب بن أسيد أميراً على مكة حتى التحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى .

وعندما هم أهل مكة بالارتداد عقب موت الرسول ﷺ وقف أمير مكة الشاب عتاب (وكان حازماً) وقف موقفاً مشرفاً ، دل على متانة دينه وشدة إخلاصه .

وكان أهل مكة أثناء حياة النبي ﷺ قد شكوا إليه شدة عتاب عليهم ، وكان عتاب صلب الإيمان شديداً على أهل الريبة . فقد جاء في الإصابة لابن حجر أن النبي ﷺ ولى عتاب إمارة مكة وهو ابن نيف وعشرين سنة ، وعن أنس بن مالك أن عتاباً كان شديداً على المريب ليناً على المؤمن ، وكان يقول : والله لا أعلم متخلفاً عن هذه الصلاة إلا ضربت عنقه . فإنه لا يتخلف عنها إلا منافق ، فقال أهل مكة : يا رسول الله ، استعملت على أهل الله أعرابياً جافياً ، فأجابهم النبي ﷺ (مزيكاً هذا الشاب الطيب المؤمن القوى) : إني رأيت فيما يرى النائم أنه (أى عتاب بن أسيد) أتى باب الجنة فأخذ بجلقة الباب ففققعها حتى فتح له ودخل ، وروى عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى : ﴿ وأجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾ أنه قال : هو عتاب بن أسيد^(١) .

وقال ابن هشام : وبلغنى عن زيد بن أسلم أنه قال : لما استعمل رسول الله

(١) الإصابة في تمييز أسماء الصحابة ج ٢ ص ٤٤٤ .

ﷺ عتاباً بن أسيد على مكة رزقه كل يوم درهماً ، فقام فخطب بالناس ، فقال : أيها الناس أجاج الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقني رسول الله ﷺ درهماً كل يوم ، فليست لي حاجة إلى أحد^(١) .

وكما عيّن الرسول ﷺ — قبل انصرافه إلى المدينة — عتاب بن أسيد أميراً على مكة (وهو أول أمير مسلم يتولى شئونها) خلف كذلك معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري في مكة يعلمان الناس القرآن والفقه في الدين^(٢) .

وقد قال رسول الله ﷺ للأمير الشاب عتاب بن أسيد يوصيه بأهل مكة : أتدرى على من استعملتك ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال : استعملتك على أهل الله ، بلغ عني أربعاً ، لا يصلح شرطان في بيع ، ولا بيع وسلف ، ولا بيع ما لم يضمن ، ولا تأكل ربح ما ليس عندك^(٣) .

تاريخ وصول الرسول المدينة

وجاء في كتب السيرة أن الرسول ﷺ أثناء عودته من مكة إلى المدينة .. قطع المسافة بينهما في تسعة أيام ، فقد خرج من مكة يوم الأربعاء في الثامن عشر من ذي القعدة سنة ثمان للهجرة ووصل المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من الشهر نفسه^(٤) .

إسلام ثقيف

الحديث عن ثقيف ذو ارتباط وثيق بالحديث عن معركة حنين الحاسمة . فقد كانت ثقيف (وقد تقدم في هذا البحث الحديث عن نسبها) تشكل جناحاً من أهم الأجنحة في الجيش الذي خاض معركة حنين ضد المسلمين . لأنها تشكل عدة عشائر ، كلها ينتسب إلى هوازن التي قادها مالك بن عوف في حنين ضد النبي ﷺ وأصحابه .

وباعتبار ثقيف جناحاً من أهم أجنحة الجيش الهوازي الذي خاض ملحمة

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٦٨ .

(٢) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٥٩ .

(٣) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٥٩ .

(٤) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٥٨ — ٩٦٠ .

حينئذ ضد المسلمين ، فقد طاردهم الجيش الإسلامي بقيادة الرسول ﷺ ، حتى ألجأهم إلى حصنهم المنيع بالطائف ، وعندما وجدهم متحصنين وراء الأسوار في الطائف ، ضرب عليهم الحصار ، على أمل أن يستسلموا ، أو أن يتمكن المسلمون من اقتحام حصون الطائف ، ولكن الثقفين صمدوا وقاوموا المسلمين أشد المقاومة .

ولما أدرك الرسول ﷺ أن لا فائدة من فرض الحصار على ثقيف فك عنها الحصار ، ورجع إلى مكة ثم إلى المدينة . على أمل أن يأتي الله بثقيف فتدخل في الإسلام طائفة ، وقد تقدم أن بعض الصحابة قال للرسول ﷺ — وهو يفك الحصار عن الطائف — ادع الله على ثقيف ، فأبى وفعل العكس حيث دعا الله تعالى أن يأتي بها .

ثقيف تقتل سيدها بعد إسلامه

وقد ظلت ثقيف على كفرها متشبثة بوثنيتها ، وكان مالك بن عوف النصرى الذى قاد معركة حنين الفاصلة ضد النبي ﷺ وأصحابه ، كان مالك — بعد أن هداه الله تعالى للإسلام — يتولى القيام بالغارات المسلحة على ثقيف ، باعتباره أحد قادة المجتمع الإسلامى ، غير أن غارات مالك بن عوف — رغم عنفها — لم تؤثر كثيراً على موقف ثقيف المعادى للإسلام ، لأن ثقيفاً كانت قوة كبيرة تتألف من عدة عشائر متهاسكة .

غير أن موقف ثقيف أخذ يتغير نحو الإسلام عندما عاد سيد ثقيف عروة ابن مسعود من جرش حيث كان قد ذهب إلى هناك لشراء معدات حربية ثقيلة وللتدرب على صنعها واستخدامها وتركيبها .

كان عروة بن مسعود من أعظم سادات ثقيف ومن أرجحهم عقلاً ، وكان المفروض أن يكون قائد ثقيف يوم أن خاضت هوازن حربها الخاسرة ضد المسلمين فى حنين .

ولكن عروة كان متغيباً عن ديار قومه عندما نشبت هذه المعركة ، لأن هوازن بعثوه مندوباً على رأس وفد من ساداتهم إلى جرش^(١) . لشراء أسلحة

(١) ذكر ياقوت فى معجمه أن جرش اسم لموضعين فقال : جرش (بضم أوله وفتح ثانيه) بخلاف =

ثقيلة (مثل المنجنيق والعرادات والدبابات) .

وكان عروة بن مسعود ووفده العسكري قد ذهبوا إلى جرش ، قبل أن يتحرك النبي ﷺ بجيوشه لفتح مكة ، أى قبل معركة حنين التى خسرتها هوازن بحوالى شهرين اثنين .

وقد مكث عروة بن مسعود وبعثته الحربية فى جرش حوالى ثلاثة أشهر ، تدريب البعثة أثناءها على صنع استخدام الأسلحة الثقيلة ، ولذلك فإن سيد ثقيف عروة بن مسعود ، لم يعد بهذه الأسلحة الثقيلة من جرش إلى الطائف إلا بعد أن انتهت معركة حنين وفك الرسول ﷺ الحصار عن الطائف .

كان عروة بن مسعود راجح العقل حليماً حكيماً نافذ البصيرة ، فعندما عاد من جرش جال بعينى بصيرته فيما دار ويدور فى جزيرة العرب من صراع بين الإسلام والوثنية ، فأدرك أن ظل الشرك والوثنية آخذ فى التقلص بسرعة كبيرة ، وخاصة بعد هزيمة قومه هوازن فى معركة حنين التاريخية : وهوازن كانت أقوى قوة وثنية ضاربة يمكنها أن تجابه المسلمين فى جزيرة العرب ، بدليل أن محاربيها الذين خاضوا معركة حنين كانوا عشرين ألفاً ، وهو عدد لم يسبق لجهة وثنية (فى الصراع الدائر بين الإسلام والوثنية) أن حشدت مثله لمحاربة الرسول ﷺ فى جزيرة العرب كلها .

من هنا وبإلهام من الله تعالى أدرك عروة بن مسعود أن الإسلام غالب لا محالة ، وأنه لم يبق سوى وقت قصير حتى تصبح الجزيرة العربية كلها قد شملها الإسلام ولفها تحت جناحيه . لذلك أضمر سيد ثقيف أن يعتنق الإسلام طائعاً مختاراً .

= من مخالف اليمن ، ولم يذكر أن بها تصنع المنجنقات والدبابات . ثم قال : وجرش . (بفتح أوله وثانيه) اسم مدينة عظيمة كانت (وهى الآن خراب) حدثنى من شاهدها وذكر لى أنها خراب ، وبها آبار عادية تدل على عظم ، قال : وفى وسطها نهر جار يدير عدة رحى عامرة إلى هذه الغاية ، وهى فى شرق جبل السواد من أرض البلقاء وحوران من عمل دمشق اهـ . قلت : خرائب جرش وآثارها الرومانية لا تزال قائمة فى المملكة الأردنية الهاشمية ، وآثارها تدل على أن بها كانت مدينة زاهرة ، ومن المحتمل جداً أن يكون عروة بن مسعود وبعثته قد ذهبوا إليها لشراء الأسلحة الثقيلة منها .

كان وصول عروة بن مسعود في أواخر السنة الثامنة الهجرية ، فقام بتركيب الأسلحة الثقيلة التي جلبها لقومه من جرش في الأردن ، وقد فعل ذلك أداءً للأمانة التي ائتمنه قومه عليها حين بعثوه إلى الأردن لشراء هذه الأسلحة وتسليمه إياها لقومه المشركين ، لم يُغَيِّر من عزمه عن اعتناق الإسلام ، بعد أن قذف الله نور هذا الدين في قلبه .

لذلك (ودون أن يستشير أحداً) غادر الطائف قاصداً المدينة ليعلم بين يدي الرسول ﷺ إسلامه .

وعندما وصل عروة المدينة استقبله الرسول ﷺ بالترحاب ، وكان يعرفه (مسبقاً) لأنه قد اجتمع به عندما جاء وسيطاً لقريش يوم الحديبية عندما كانت أزمة الحديبية بين النبي ﷺ وعشيرته على أشدها^(١) وكان عروة بن مسعود رغم كونه حليفاً لقريش قد حذرهما من مغبة عنادهما حين منعت المسلمين من دخول مكة وقد جاءوا معتمرين لا محاربين ، وقد توقع أن كارثة ستنزّل بقريش نتيجة بغياها يوم ذاك وتصلفها . ثم فارقها ورجع إلى بلاده الطائف . وقد اعتبر العقلاء تصرف عروة بن مسعود هذا دليلاً على رجاحة عقله وبعد نظره .

وعندما أسلم عروة بن مسعود وشهد شهادة الحق ، قرر أن يعود إلى الطائف فيدعو قومه ثقيفاً إلى الإسلام ، وطلب من الرسول ﷺ أن يأذن له بذلك ، ولكن النبي ﷺ حذرهم بأن قومه سيقتلونهم ، فقد قال عروة : يا رسول الله إني لأرى قومي فادعهم إلى الإسلام ، فوالله ما رأيت مثل هذا الدين ذهب عنه ذاهب ، فأقدم بخير قادم ، وما قدم وافد (قط) على قومه إلا من قدم بمثل ما قدمت به ، وقد سبقت يا رسول الله في مواطن كثيرة .

وكان عروة بن مسعود سيداً مطاعاً محبوباً بالفعل في قومه لشرف نفسه ودمائه أخلاقه وكرمه ، وكان يتوقع أنهم جميعاً سيجيبونه إلى الإسلام حينما يدعوهم إليه .

(١) انظر تفاصيل مقابلة الرسول ﷺ لعروة بن مسعود بالحديبية في كتابنا (صلح الحديبية) .

غير أن الرسول ﷺ كان قد اختبر نفسيات أولئك المشركين الثقفين العتاة الغلاظ القلوب مرتين .. مرة عندما لجأ إليهم أيام اشتداد محنته في مكة بعد وفاة عمه أوى طالب ، فأساءت إليه ثقيف بدلاً من أن تستضيفه وتكرمه وتخفف من آلامه ، بل وأغرت به السفهاء والعبيد حتى طاردوه في شوارع الطائف ورجموه بالحجارة ، الأمر الذى اضطره الى أن يترك الطائف ليعود إلى مكة حيث الكرب واشتداد المحنة .. ومرة حينما حاصرهم بعد أن تراجعت جيوشهم منهزمة من حين فقاوموه أشد المقاومة وأبدوا من العداوة الشيء الكثير .

ولذلك فإن الرسول ﷺ عندما استأذنه السيد عروة بن مسعود ليذهب إلى قومه ثقيف يدعوهم إلى الإسلام قال له الرسول ﷺ — عندما أصر على الذهاب إليهم —: أنهم إذن قاتلوك ، قالها ثلاثاً ، ولكن عروة كرر الاستئذان في الذهاب إليهم (مبدئاً ثقته بحب قومه له) قائلاً : يا رسول الله لأننا أحب إليهم من أبنائهم أولادهم ، يا رسول الله لو وجدوني نائماً ما أيقظوني ، فقال له الرسول ﷺ (عندئذ) : إن شئت فخرج إلى الطائف ، وكان الأمر كما حذرهم رسول الله ﷺ فقد قتله قومه أولئك الأشرار وهو يدعوه إلى الإسلام .

فلم تمض خمسة أيام حتى وصل عروة الطائف ، وعندما وصل سيد ثقيف بلده أنكرت ثقيف عليه أمراً كانوا يعرفونه منه ومن كل قادم من سفر إلى الطائف (ولم يكونوا قد علموا بإسلامه) وهذا الأمر هو أن يبدأ القادم إلى الطائف من سفر بتقديم فروض العبادة والتقديس لصنمهم الأكبر (اللات) .. ففى هذه المرة تجاهل عروة هذا الصنم لأنه كمسلم موحد — لم يعد مكان فى نفسه لهذا الصنم ، فقد ذهب من فوره إلى منزله ، وبعد أن توافد إليه أعيان قومه لاستطلاع حقيقة أمره ، حيوه بتحية الشرك ، فأنكرها عليهم ، ثم دعاهم إلى الإسلام ، وهنا كانت نهايته القتل حيث استشهد وهو يؤذن للصلاة فى منزله .

وقد كاد يؤدى قتل عروة بن مسعود إلى حرب أهلية طاحنة بين عشائر ثقيف ، فقد تحزبت عشائر عروة واستعدوا للقتال كى يأخذوا بثأره ، لولا أنه قبل أن يفرق الحياة تصدق بدمه على قاتله حقناً للدماء وإطفاء لنيران الحرب

الأهلية ، فطاب عروة حياً وميتاً .

ولترك الإمام الواقدى وأشهر من ألف في مغازى رسول الله ﷺ يحدثنا حديث إسلام عروة بن مسعود . قال الواقدى : كان عروة بن مسعود حين حاصر النبي ﷺ أهل الطائف بجرح ، يتعلم عمل الدبابات والمنجنيق ، ثم رجع إلى الطائف ، بعد أن ولى رسول الله ﷺ ، فعمل الدبابات والعرادات وأعد ذلك حتى قذف الله عز وجل في قلبه الإسلام ، فقدم المدينة على رسول الله ﷺ فأسلم ، ثم قال : يا رسول الله إيدن لى فأتى قومى فأدعوهم إلى الإسلام ، فوالله ما رأيت مثل هذا الدين ذهب عنه ذاهب ، فأقدم على أصحابى وقومى بخير قادم ، وما قدم وافد قط على قومه إلا من قدم بمثل ما قدمت به وقد سبقت يا رسول الله فى مواطن كثيرة .

فقال رسول الله ﷺ : إنهم إذن قاتلوك ، قال رسول الله ، لأننا أحب إليهم من أبنائهم وأولادهم ، ثم استأذنه الثانية فأعاد عليه الكلام الأول ، وقال رسول الله ﷺ : إنهم إذن قاتلوك ، قال : يا رسول الله ، لو وجدونى نائماً ما أيقظونى ، واستأذنه الثالثة ، فقال : : إن شئت فاخرج ، فخرج إلى الطائف ، فسار إليها خمساً ، فقدم على قومه عشاء فدخل منزله ، فأنكر قومه دخوله منزله قبل أن يأتى الرية^(١) ، ثم قالوا : السفر قد حصره^(٢) فجاءوا منزله فحيوه تحية الشرك ، فكان أول ما أنكر عليهم تحية الشرك ، فقال : عليكم تحية أهل الجنة . ثم دعاهم إلى الإسلام ، وقال يا قوم : أتتهدموننى ؟ ألسنتم تعلمون أننى أوسطكم نسباً ، وأكثركم مالاً ، وأعزكم نفراً ؟ فما حملنى على الإسلام إلا أنى رأيت أمراً لا يذهب عنه ذاهب ، فاقبلوا نصحتى ، ولا تستعصونى ، فوالله ما قدم وافد على قوم بأفضل مما قدمت به عليكم ، فاتَّهَمُوهُ واستغشَوْهُ ، وقالوا : قد واللات وقع فى أنفسنا حيث لم تقرب الرية ولم تخلق رأسك عندها إنك قد صبوت فأذوه ونالوا منه ، وحلم عليهم ، فخرجوا من عنده يأتمرون كيف يصنعون به ، حتى إذا طلع الفجر أوفى على غرفة له فأذن بالصلاة ، فرماه رجل من رهطه من الأحلاف يقال له : وهب بن جابر — ويقال رماه

(١) يعنى : اللات .

(٢) قال فى النهاية : حصره : أى منعه عن مقصده .

أوس بن عوف من بني مالك ، وهذا أثبت عندنا — وكان عروة رجلاً من الأحراف ، فأصاب أكحله^(١) فلم يرقأ دمه^(٢) وحشد قومه في السلاح ، وجمع الآخرون وتجايشوا ، فلما رأى عروة ما يصنعون قال : لا تقتتلوا فني فأني قد تصدقت بدمي على صاحبه ليصلح بذلك بينكم ، فهي كرامة أكرمني الله بها ، الشهادة ساقها الله إليّ ، أشهد أن محمداً رسول الله ، خبرني عنكم هذا أنكم تقتلونني ، ثم قال لرهطه : ادفنوني مع الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم ، قال : فدفنوه معهم ، وبلغ رسول الله ﷺ قتله فقال : مثل عروة مثل صاحب ياسين ، دعا قومه إلى الله عز وجل فقتلوه .

فلما قتل عروة ، قال ابنه أبو مليح^(٣) بن عروة بن مسعود ، وابن أخيه قارب بن الأسود بن مسعود^(٤) لأهل الطائف : لا نجتمعكم على شيء أبداً ، وقد قتلتم عروة ، ثم لحقا برسول الله ﷺ فأسلما ، فقال لهما رسول الله ﷺ : تولىا من شئنا ، قالوا نتولى الله ورسوله . قال النبي ﷺ : وخالكما أبو سفيان بن حرب ، خالفاه . ففعلا ، ونزلا على المغيرة بن شعبة ، وأقاما بالمدينة حتى قدم وفد ثقيف في رمضان سنة تسع الهجرية^(٥) .

ثقيف كلها تدخل الإسلام :

وعقب ارتكاب ثقيف جريمتها النكراء المتمثلة في قتل سيدها المسلم عروة ابن مسعود ، وبعد أن شعرت وأحست بما يشبه العزلة القاتلة بين العرب ، تنبه أحد دهاتها وعقلائها وهو عمرو بن أمية أحد بني علاج^(٦) . تنبه إلى

(١) الأكحل (بفتح الحاء) : عرق في اليد وهو الشريان .

(٢) رقا الدم . إذا سكن وانقطع عن الجريان .

(٣) ذكر ابن الأثير ترجمته في أسد الغابة فلم يزد على ما جاء في هذا السياق عن تاريخه .

(٤) هو قارب بن الأسود بن مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف الثقفى وهو ابن أخى عروة بن مسعود ، كان حامل راية الأحراف من ثقيف يوم حنين ضد المسلمين . كان سيداً من سادات ثقيف ، وروى له رواية الحديث حديث (رحم الله المحققين) . لم أر فيما بين يدي من تراجم عن تاريخ وفاته .

(٥) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٩٦٢ .

(٦) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من مصادر .

ما ستعرض له ثقيف من أخطار جسيمة قد يكون فيها هلاكها ، إذا لم تسارع إلى إعلان إسلامها أسوة بالقبائل المحيطة بها ، والتي أصبحت ثقيف (لبقائها على الشرك) بين هذه القبائل في عزلة تامة ، تغير عليها هذه القبائل وتحاربها أينما وجدتتها بمن في هذه القبائل سيد هوازن وملكها السابق مالك بن عوف النصرى قائد حشد الشرك في حنين ضد المسلمين . والذي أسلم قبل انصراف الرسول ﷺ إلى المدينة .

كان عمرو بن أمية هذا مغاضباً ومهاجراً لعبد ياليل^(١) سيد ثقيف الثاني ، ولكن عمرو تناسى ما بينه وما بين عبد ياليل ، وبعث إليه يطلب الاجتماع به ، بغية بحث الوضع الشاذ الذي صارت إليه ثقيف بعد أن انتشر الإسلام وغمر القبائل المحيطة بثقيف .

وقد أجاب عبد ياليل عمرو بن أمية فاجتمعوا ، فشرح لعبد ياليل خطورة الوضع الذي آلت إليه ثقيف ، وأن الحل الوحيد للمخرج من هذا المأزق الذي فيه ثقيف هو أن تدخل ثقيف في الإسلام ، فوافقه عبد ياليل على هذا الاقتراح ، فدعيا إلى اجتماع عام حضره وجوه ثقيف وأعيانها بالطائف ، وقد وقف فيهم عمرو بن أمية خطيباً شارحاً لهم خطورة الوضع الذي عليه ثقيف ، فوافقه على الرأي القائل بأن لا مخرج لثقيف إلا بأن تبعث بوفد منها إلى المدينة ليعلمن إسلامها بين يدي الرسول ﷺ .

فقد جاء في أمهات التاريخ أن عمرو بن أمية أخو بني علاج ، كان مهاجراً لعبد ياليل بن عمرو ، لشيء بينهما ، وكان عمرو من أدهى العرب ، فمشى إلى عبد ياليل بن عمرو حتى دخل داره ، ثم أرسل إليه أن عمرو بن أمية يقول : أخرج إلي . قالوا : فقال عبد ياليل للرسول : ويلك ، أعمرو أرسلك إلي ؟ قال : نعم وها هو ذا واقف في دارك ، وكان عبد ياليل يحب صلحه ،

(١) هو عبد ياليل بن عمرو بن عمير الثقفي ، كان سيداً من سادات بني مالك من ثقيف ، كان رئيس الوفد الذي ذهب إلى المدينة بإسلام ثقيف ، قال في أسد الغابة : أرادت ثقيف أن ترسله وحده إلى المدينة فامتنع وخاف أن يفعلوا به ما فعلوا بعروة بن مسعود فأرسلوا معه الخمسة ، وهم عثمان بن أبي العاص ، وأوس بن عوف ، ونعيم بن خرشة ، والحكم بن عمرو ، وشريحيل بن غيلان بن سلمة فأسلموا كلهم وحسن إسلامهم وانصرفوا إلى قومهم فأسلموا كلهم .

ويكره أن يمشی إليه ، فقال عبد ياليل : إن هذا لشيء ما كنت أظنه ، لعمرى
كان أمتع في نفسه من ذلك ، وما هو إلا عن أمر قد حدث وكان أمراً سوءاً ،
ما لم يكن من ناحية محمد . ثم خرج عبد ياليل إلى عمرو فلما رآه رَحَّب به ،
فقال عمرو : قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة إنه قد كان من أمر هذا الرجل
(يعنى النبي ﷺ) ما قد رأيت وقد أسلمت العرب كلها ، وليست لكم
بحرهم طاقة ، وإنما نحن في حصننا هذا ، ما بقاؤنا فيه وهذه أطرافنا تصاب ،
ولا نأمن من أحد منا يخرج شبراً واحداً من حصننا هذا ، فانظروا في أمركم .
قال عبد ياليل لعمرو : قد والله رأيت ما رأيت ، فما استطعت أن أتقدم
بالذى تقدمت به ، وإن الحزم والرأى الذى فى يدك .

قالوا : فدعا زعماء ثقيف إلى مؤتمر عام حضره عامة الثقيفين ، فأتهموا
فيما بينهم ، وقال بعضهم لبعض : ألا ترون أنه لا يأمن لكم سرب^(١) ،
ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع ، فأتهموا بينهم وتم الاتفاق على أن يدخلوا فى
الإسلام^(٢) .

وعلى أثر الاتفاق على أن لا نجاة ولا مخرج لثقيف من المأزق التى هى
فيه ، إلا بالإسلام ، قررت ثقيف أن تبعث إلى النبي ﷺ برسول خاص
ليفاوضه بشأن دخولها فى الإسلام ، فرشحوا لذلك عبد ياليل بن عمرو ،
وهو يومئذ فى منزلة عروة بن مسعود وفى مثل سنه .

وعبد ياليل هذا هو الذى أساء إلى الرسول ﷺ أبلغ الإساءة عندما جاء
ﷺ ملتجئاً إلى ثقيف عندما اشتد عليه أذى قريش بعد وفاة زوجته خديجة
وعمه أبى طالب .

وقد اعتذر عبد ياليل لثقيف أن يكون رسوله إلى النبي ﷺ ، ولم يكن
اعتذاره عن خوف من أن ينتقم منه النبي ﷺ لإساءته تلك .. كلا ، فهو
يعرف وكل العرب والعجم تعرف أن النبي ﷺ لا ينتقم لنفسه من أحد ،
فمن أخلاقه ﷺ أن يقابل الإساءة بالإحسان ، ولكن اعتذار عبد ياليل لقومه

(١) السرب (بكسر السين) : المسلك

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٨٣ ومغازى الواقدي ج ٣ ص ٩٦٣ — ٩٦٤

ثقيف عن القيام بمهمة القيام بإبلاغ الرسول ﷺ إسلام ثقيف ، هو أن عبد ياليل يعرف شراسة قومه ثقيف وجرأتهم على سفك الدماء وتقلبهم ، فقد رأى العبرة في أحب الناس إلى ثقيف (عروة بن مسعود) حيث قتلوه بمجرد أن دعاهم إلى الإسلام ، فهو إذن يخشى أن يكون مصيره مصير عروة بن مسعود إن هو قبل المهمة منفرداً حيث من المحتمل جداً أن يقتلوه إن هو عاد من المدينة يدعوههم إلى الإسلام ، لذلك اعتذر عن أن يكون رسول ثقيف إلى النبي ﷺ ، غير أن عبد ياليل — لما رأى إلحاح قومه عليه لكي يكون مبعوثهم إلى النبي ﷺ — وافق ولكن بشرط أن يبعثوا معه من كل فخذة من ثقيف رجلاً .

فوافقت كل القبائل الثقفية على اقتراح السيد عبد ياليل بن عمرو .
فبعث كل من القبيلتين الرئيسيتين في ثقيف (وهما الأحلاف وبنو مالك) بعث كل منهما بصحبة عبد ياليل ممثل عنه في وفد إلى المدينة مكوّن من ثلاثة من الأحلاف ، وثلاثة من بنى مالك على أن يكون رئيسهم عبد ياليل بن عمرو (وهو من بنى مالك) .

وكان هدف عبد ياليل من اشتراك كل عشائر ثقيف ممثلة في جناحيها الرئيسين (الأحلاف وبنى مالك) في الوفد الذهاب إلى المدينة ، واضحاً ، وهو أن يكف كل رجل في الوفد رهطه عن عبد ياليل إذا ما أرادوا به سوءاً عندما يعود من المدينة إلى الطائف وقد بايع النبي ﷺ على الإسلام نيابة عنهم .

وهكذا تقرر أن تبعث ثقيف وفدها برئاسة عبد ياليل ، الذى يسمونه (لشدة شكيمته) ناب القوم ، وقد غادر الوفد الطائف قاصداً المدينة في أواخر السنة التاسعة للهجرة ، فوصل الوفد إلى المدينة ، وقابل الرسول ﷺ وأبلغه رغبة ثقيف في الدخول في الإسلام ، فرحب بهم الرسول ﷺ وعم المسلمين الفرح لدخول ثقيف في الإسلام ، لأن ثقيفاً قبيلة عظيمة ذات قوة وشوكة ، وكانت آخر قوة مسلحة في جزيرة العرب ، يمكنها مصادمة المسلمين وبدخول ثقيف في الإسلام لم يبق للشرك والوثنية أى أثر في منطقة الحجاز كلها .
قال الواقدي وابن إسحاق : وأجمعت ثقيف أن ترسل إلى المدينة رجلاً ،

كما أرسلوا عروة ، فكلموا عبد ياليل بن عمرو بن عمرو ، وكان في سن عروة ابن مسعود وعرضوا ذلك عليه فأبى أن يفعل ، وخشى إن رجع إلى قومه مسلماً أن يصنع به إذا رجع من عند النبي ﷺ ما صنع بعروة ، فقال : لست فاعلاً حتى ترسلوا معي رجالاً فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بني مالك فيكونوا ستة .

فبعثوا مع عبد ياليل ، الحكم بن عمرو بن وهب بن معتب^(١) ، وشرحبيل بن غيلان بن سلمة بن معتب^(٢) ، وهؤلاء رهط عروة . وبعثوا في بني مالك : عثمان بن أبي العاص^(٣) ، وأوس بن عوف^(٤) ونمير بن

(١) قال في أسد الغابة في معرفة الصحابة : (الحكم بن عمرو بن معتب الثقفي ، كان أحد الوفد الذين قدموا مع عبد ياليل بإسلام ثقيف ، وهو من الأحلاف ، أخرجه أبو عمر مختصراً ، قلت ثقيف قبيلتان ، الأحلاف وبني مالك ، فالأحلاف ، ولد عوف بن ثقيف وهذا منهم ، فإن معتباً هو ابن مالك ابن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف .

(٢) قال المختصرون في تراجم الصحابة : هو شرحبيل بن غيلان بن سلمة بن معتب بن مالك بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف ، أسلم وحسن إسلامه ، نزل الطائف ، وكان من رواة الحديث ، روى عن النبي ﷺ في الاستغفار : بين كل سجدتين من صلاته ، كان أحد الرجال الخمسة الذين بعثهم ثقيف بإسلامهم مع عبد ياليل ، له ولأبيه صحبه ، ذكره ابن شاهين وقال : مات سنة ستين ، أخرجه ابن عبد البر وأبو موسى .

(٣) هو عثمان بن أبي العاص بن بشر بن دهمان ، بن عبد الله بن همام بن أبان بن سمار بن مالك بن حطيظ بن خيثم بن ثقيف ، يكنى أبو عبد الله . استعمله رسول الله ﷺ على الطائف ، قال في أسد الغابة : لم يزل عثمان على الطائف حياة رسول الله ﷺ وخلافة أبي بكر وستين من خلافة عمر ، واستعمله عمر سنة خمس عشرة على عمان والبحرين ، فسار إلى عمان ، ووجه أخاه الحكم إلى البحرين وسار هو إلى توج فافتتحها ومصرها وقتل ملكها شهرک سنة إحدى وعشرين ، كان عثمان كثير الجهاد في سبيل الله فقد كان يغزو صيفاً . ويشتهر بتوج ، وكان له في الطائف موقف مشرف . فبعد موت النبي ﷺ حيث اضطربت جزيرة العرب بالردة ، وقف عثمان بن أبي العاص موقفاً شديداً من أهل الردة ، ومنع أهل الطائف من الردة ، وكان سيداً شريفاً مطاعاً فانصاعوا له ، فلم تحدث أية ردة في الطائف ، كان من مشاهير الصحابة الذين روى عنه أصحاب السنن الحديث عن رسول الله ﷺ ، روى عنه من أهل المدينة ، وأهل البصرة ، ومن روى عنه الإمام الحسن البصري ، كان عثمان قد سكن البصرة .

(٤) قال ابن الأثير في أسد الغابة : اسمه أوس بن حذيفة ، لا أوس بن عوف ، وهو من بني مالك ، وقال ابن سعد في طبقاته الكبرى : كان أوس بن حذيفة المذكور ممن استوطن الطائف ، وكان في وفد ثقيف ، روى الحديث عن النبي ﷺ أنظر ترجمته مطولة في أسد الغابة ج ١ ص ١٤٣ — ١٤٤

خرشة^(١) ستة . ويقال : إن الوفد كانوا بضعة عشر رجلاً ، فيهم سفيان بن عبد الله^(٢) .

قالوا : فخرج بهم عبد ياليل وهو رأسهم وصاحب أمرهم ، ولكنه أحب أن يسهل كل رجل رهطه^(٣) .

اتجه وفد ثقيف صوب الشمال الغربي قاصداً المدينة المنورة ، ليحمل إلى الرسول ﷺ القرار الذي توصل إليه سادات ثقيف والمتضمن خروج ثقيف من الشرك ودخولها في الإسلام ، وكان ذلك من أعلام النبوة ، فقبل ما يقرب من سنة — وعندما كان النبي ﷺ يفك الحصار عن حصن ثقيف بالطائف بعد معركة حنين الفاصلة — سأل بعض الصحابة الرسول ﷺ أن يدعو على ثقيف بالهلاك ، فأبى سيد الرحماء ، ودعا لهم بدلاً من أن يدعو عليهم . فقال : اللهم اهد ثقيفا وأت بهم .

وهاهي ثقيف تأتي إلى المدينة (ممثلة في وفد لها الكبير) طائفة مختارة برئاسة رجل كان من أشرس الناس وأشدهم عداوة للنبي ﷺ وسخرية به وبدينه الحق (عبد ياليل بن عمرو) الذي قال للرسول ﷺ — في أول الإسلام عندما لجأ إلى ثقيف يطلب نصرتها على مشركي مكة — قال له مستهزئاً : (وهو يمرط^(٤) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك) ، وقال له أخوه مسعود بن عمرو : (أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟) ، وقال أخوه الثاني حبيب بن عمرو : (والله لا أكلملك أبداً ، لكن كنت رسولاً من الله كما تقول ، لأنك

(١) قال ابن الأثير : هو غمير بن خرشة بن ربيعة الثقفي ، حليف لهم من بلحارث بن كعب ، وروى عنه أنه قال : أدركنا رسول الله ﷺ بالجحفة فاستبشر الناس بقدومنا .

(٢) هو سفيان بن عبد الله بن أبي ربيعة بن مالك بن حطيظ بن جشم بن ثقيف ، كان من ثقات الصحابة الذين يعتمد عليهم عمر بن الخطاب ، ولأه عمر بن الخطاب إمارة الطائف بعد نقل عثمان بن أبي العاص إلى البحرين ، روى عنه الحديث عن رسول الله ﷺ خلق كثير منهم ابنه عبد الله ، وعروة بن الزبير ، ومحمد بن عبد الله بن ماعز ، ونافع بن جبير ، وسفيان بن عبد الله وعنه روى عروة بن الزبير الحديث التبروي العظيم المشهور الذي قال فيه سفيان : قلت يا رسول الله قل لي قولاً في الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك . قال : قل آمنت بالله عز وجل ثم وجل ثم استقم .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٨٤ ومغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٦٣ .

(٤) يمرطه : ينزعه فيرمي به

أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك^(١) .

استمر عبد ياليل وأعضاء وفده في تحركهم من الطائف نحو المدينة دون أن يعلم بهم أحد من المسلمين حتى وصلوا ضواحي المدينة وفي وادي قناة^(٢) على وجه التحديد ، فكان أول من تعرّف عليهم (وأدرك أنهم جاءوا ليعلموا إسلام ثقيف) أحد أبناء الأحلاف من ثقيف ، وهو المغيرة بن شعبة الذي كان من أصحاب النبي ﷺ السابقين في الإسلام .

فقد عرف المغيرة رجال الوفد وأثبتهم واحداً واحداً لأنهم كلهم أبناء بلده ، وقد عايشهم أكثر عمره بالطائف ، وعندما عرفهم المغيرة وعلم أنهم جاءوا لإعلان إسلام ثقيف ، ترك الوادي (الذي كان فيه يرعى إبلاً للرسول ﷺ) وصار يعدو على رجليه بأقصى سرعة ليبشر الرسول ﷺ بقدوم هذا الوفد ، لأن المسلمين (وعلى رأسهم النبي ﷺ) يدركون أن إسلام ثقيف له ما بعده ، مما يعود على الإسلام والمسلمين بأعظم المكاسب ، إذ يعني ذلك تنظيف آخر جيب من جيوب المقاومة الوثنية الخطيرة التي تشغل بال المسلمين ، حيث لم تبق قوة وثنية مسلحة تحتاج إلى تجريد الجيوش ، سوى ثقيف ذات العدد والعدة ، والتاريخ الحرقى يثبت هذه الحقيقة ، فقد رأينا في أواخر السنة الثامنة الهجرية كيف ضرب اثنا عشر ألفاً من المسلمين بقيادة النبي ﷺ الحصار على حصون ثقيف فعبجرت كل هذه القوات الكثيفة القوية عن فتح بلادهم .

لقد دلت تصرفات كبار الصحابة ، حين علموا بقدوم وفد ثقيف ليعلموا الإسلام ، دلت على أن إسلام ثقيف حدث هام عظيم بدليل أنهم كانوا يتبارون في أيهم الأول يبشر الرسول ﷺ بقدوم وفد ثقيف .

فقد ذكر أصحاب المغازي والسير أن وفد ثقيف لما دنا من المدينة ونزل وادي قناة لقوا بها المغيرة بن شعبة يرعى في نوبته ركاب رسول الله ﷺ وكانت

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦١ .

(٢) وادي قناة .. وادي مشهور يمر شمال المدينة بسفوح جبل أحد من الشرق إلى الغرب ، وفيه دارت

معركة أحد الشهيرة .

(م - ١٤ * غزوة حنين)

نوباً على أصحابه ، فلما رآهم المغيرة ترك الركاب وضير^(١) يشتد ليبشر رسول الله ﷺ بقدمهم ، حتى انتهى إلى باب المسجد ، فلقى أبا بكر الصديق فأخبره خير قومه ، فقال المغيرة : أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله ﷺ بخبرهم حتى أكون أنا أخبره — وكان رسول الله ﷺ قد ذكرهم ببعض الذكر — فأبشره بمقدمهم ، فدخل أبو بكر على النبي ﷺ فأخبره والمغيرة على الباب ، ثم خرج أبو بكر إلى المغيرة فدخل المغيرة على النبي ﷺ وهو مسرور^(٢) .

أما المغيرة بن شعبة ، فقد غمره الفرح والسرور بحجى قومه للاهتداء بهدى الإسلام ، فعاد إليهم حيث خيموا بوادى قناة فرحب بهم وأعانهم في ترويح إبلهم وأخذ في تهذيبهم والترويض من طباعهم النافرة الجافة الشرسية ، حيث كانوا أعراباً أجلاً لا يعرفون من تعاليم الإسلام وآدابه شيئاً ، فعلمهم كيف يحيون الرسول ﷺ .

الشروط السخيفة التي اشترطتها ثقيف لإسلامها :

غير أن جذور الجاهلية المتأصلة في نفوس الوفد الثقفي جعلت رجال هذا الوفد — وهم يفاوضون النبي ﷺ — يشترطون لدخولهم في الإسلام شروطاً تناقض أصول هذا الدين ، وقد رفض الرسول ﷺ هذه الشروط ، إلا أنه بحكمته وحلمه وأناته وصبره ، تغلب على كل الصعاب في المفاوضات التي استغرقت وقتاً غير قصير بينه وبين وفد ثقيف ، حتى دخلوا في الإسلام وتخلوا عن تلك الشروط السخيفة .

ظلت رواسب الجاهلية (رغم توجيه المغيرة بن شعبة) ذات تأثير على عقول رجال وفد ثقيف فبدلاً من أن يحبوا الرسول ﷺ بتحية الإسلام التي علمهم إياها المغيرة بن شعبة ، حيوه بتحية الجاهلية وهي (عم صباحاً) ، كما أن وفد ثقيف في المرحلة الأولى من المفاوضة ، لم يتصل بالنبي ﷺ مباشرة كما كانت تفعل الوفود الوافدة إلى المدينة لإعلان إسلام عشائريهم ، بل لجأ الوفد

(١) ضير : أى وثب

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٨٤ وتاريخ الطبري ج ٣ ص ٩٨ ومغازي الواقدي ج ٣ ص

الثقفي في مفاوضاته مع الرسول ﷺ أول الأمر إلى واسطة بينهم وبين رسول الله ﷺ ، وكان هذا الواسطة ، هو خالد بن سعيد بن العاص^(١) الذي كان ينقل من وادي قناة (حيث يخيم الوفد الثقفي) إلى رسول الله ﷺ آراء ومقترحات وشروط وفد ثقيف ، ويعود إليهم بجواب رسول الله ﷺ عليها . كان وفد ثقيف ضعيفاً على النبي ﷺ رغم أن رجال هذا الوفد لم يعلنوا إسلامهم صراحة إلا بعد مفاوضات طويلة وشاقة .

فكان الطعام — بأمر من رسول الله ﷺ — ينقل من المدينة إلى رجال الوفد في وادي قناة شمالي المدينة ، ولكن هؤلاء الثقفيين (لما نشأوا عليه من جلافة الأعراب ، ولما ترسب في نفوسهم من رواسب وثنية ، لم يمحها غير الإسلام حينما دخلوا فيه) كان الشك ينتابهم حيال الرسول ﷺ وأصحابه ، فكانوا لهذه الوسواس ، لا يأكلون من الطعام الذي يبعث به إليهم النبي ﷺ حتى يأكل منه الصحابي الوسيط ، خالد بن سعيد بن العاص .

أما خلاصة الشروط السخيفة المناقضة لأصول الإسلام والتي اشترطتها ثقيف والمطالب التي تقدمت بها إلى النبي ﷺ فهي :

(١) هو خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف .. يكنى أبو سعيد ، أمه من ثقيف . كان خالد من السابقين الأولين في الإسلام ، أسلم بعد أبي بكر الصديق ، فكان ثالثاً أو رابعاً ، وقال ضميرة بن أبي ربيعة : كان إسلام خالد مع إسلام أبي بكر ، وقالت أم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص ، كان أبي خامساً في الإسلام . قلت : من تقدمه . قالت : علي بن أبي طالب وأبو بكر وزيد ابن حارثة وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وكان سبب إسلامه ، أنه رأى في النوم أنه وقف على شفير النار ، فذكر من سعتها ما الله أعلم به وكان أباه يدفعه فيها ورأى رسول الله ﷺ آخذاً بحقويه لا يقع فيها ، ففرع وقال : أحلف إنها لرؤيا حق ، ولقي أبا بكر فذكر ذلك له . فقال له أبو بكر : أريد بك خيراً ، هذا رسول الله ﷺ فاتبعه فإنك ستبته في الإسلام الذي يحجزك من أن تقع في النار وأبوك واقع فيها ، فلقى رسول الله ﷺ وهو بأجباد . فقال : يا محمداً إلى من تدعو ؟ قال : أدعوا إلى الله وحده لا شريك له وأن عمداً عبده ورسوله وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ولا يدري من عبده ممن لم يعبده . قال خالد : فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، فسر رسول الله ﷺ بإسلامه ، هاجر خالد بن سعيد المهجرتين ، كان خالد بن سعيد من عمال رسول الله ﷺ ومات الرسول ﷺ وخالد أمير له على اليمن وكان خالد أول قائد يقتحم بحيشه الشام مجاهداً في خلافة أبي بكر الصديق ، وقد نكب جيشه وتراجع بعد أن أوقعه الرومان قرب دمشق في شبه كاشة ، استشهد خالد بن سعيد في معركة أجنادين في خلافة عمر بن الخطاب على أصح الأقوال ، وقيل استشهد في معركة مرج الصفر وهو يقود المعركة الأولى ضد الرومان بالقرب من دمشق .

- ١ — إباحة الزنا لهم .
- ٢ — السماح لهم بالتعامل بالربا .
- ٣ — السماح لهم بتعاطي الخمر .
- ٤ — إسقاط الصلاة عنهم .
- ٥ — تأخير هدم صنمهم اللات لمدة ثلاث سنوات .

هذه هي المطالب والشروط السخيفة التي تقدم بها الوفد الثقفي إلى النبي ﷺ لدخولهم في الإسلام ، ولكن النبي ﷺ رفض (جملة وتفصيلاً) كل هذه الشروط والمطالب ، لأنها كلها تناقض أصول الإسلام . ثم ما زال رسول الله ﷺ يقدم الحجج والبراهين لرجال الوفد على أن الإنسان لا يكون مسلماً ما لم يتبع تعاليم الإسلام كلها حتى اقتنعوا وسلموا وأسلموا .

وقد ذكر أصحاب المغازي والسير ، كل بسنده وأسلوبه ، ذكر القصة المطولة للمفاوضات التي جرت بين الوفد الثقفي وبين الرسول ﷺ فقالوا :

دخل المغيرة بن شعبة على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، قدم قومي يريدون الدخول في الإسلام بأن تشرط لهم شروطاً ويكتبون كتاباً على من وراءهم من قومهم وبلادهم . فقال رسول الله ﷺ : لا يسألون شرطاً ولا كتاباً أعطيته أحداً من الناس إلا أعطيتهم فبشرهم ، فخرج المغيرة راجعاً فخبّرهم ما قال لهم رسول الله ﷺ ، وبشرهم وعلمهم كيف يخون رسول الله ﷺ ، فكل ما أمرهم به المغيرة فعلوا ، إلا التحية فإنهم قالوا : أنعم صباحاً ، ودخلوا المسجد . فقال الناس : يا رسول الله ، يدخلون المسجد وهم مشركون ؟ فقال رسول الله ﷺ إن الأرض لا ينجسها شيء .

وأنزل المغيرة ثقيفاً في داره بالقيع ، وهي خطة خطها رسول الله ﷺ ، فأمر النبي ﷺ بنجيمات ثلاث من جريد فضربت في المسجد ، فكان خالد ابن سعيد بن العاص هو الذي يمشی بينهم وبين رسول الله ﷺ ، حتى كتبوا كتابهم ، وكان خالد هو الذي كتب كتابهم بيده ، وكانوا لا يطعمون طعاماً يأتيهم من عند رسول الله ﷺ حتى يأكل منه خالد ، حتى أسلموا وفرغوا من كتابهم .

وكانوا (وهم في المسجد قبل أن يسلموا) يسمعون القراءة بالليل وتهجد أصحاب النبي ﷺ ويتوضأون وينظرون إلى الصفوف في الصلاة المكتوبة ، ويرجعون إلى منزل المغيرة فيطعمون ويتوضأون ، ويكونون فيه ما أرادوا ، وهم يختلفون إلى المسجد . وكان رسول الله ﷺ يجري لهم الضيافة في دار المغيرة ، وكانوا يسمعون خطبة النبي ﷺ ، فقالوا : أمرنا بالتشهد أنه رسول الله ولا يشهد به في خطبته ، فلما بلغ رسول الله ﷺ قولهم قال : أنا أول من شهد أني رسول الله ، ثم قام فخطب وشهد أنه رسول الله في خطبته ، فمكثوا على هذا أياماً ، يغدون على النبي ﷺ كل يوم يخلفون عثمان بن أبي العاص على رحالهم ، وكان أصغرهم ، فكان إذا رجعوا إليه وناموا بالهاجرة خرج فعمد إلى النبي ﷺ فسأله عن الدين واستقرأه القرآن ، وأسلم سراً من أصحابه فاختلف إلى النبي ﷺ مراراً حتى فقه ، وسمع القرآن ، وقرأ من القرآن سوراً على رسول الله ﷺ ، فإذا وجد رسول الله ﷺ نائماً عمد إلى أبي بكر رضى الله عنه فسأله واستقرأه — ويقال : إذا وجد النبي ﷺ نائماً جاء أبي بن كعب فاستقرأه — فبايع النبي ﷺ على الإسلام قبل الوفد وقبل القضية ، وكم ذلك عثمان من أصحابه ، وأعجب النبي ﷺ به وأحبه .

فمكث الوفد أياماً يختلفون إلى النبي ﷺ ، والنبي يدعوهم إلى الإسلام ، فقال عبد ياليل : هل أنت مقاضينا حتى نرجع إلى أهلنا وقومنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم إن أنتم أقررتم بالإسلام قاضيتكم ، وإلا فلا قضية ولا صلح بيني وبينكم ، قال عبد ياليل : أرأيت الزنا ؟ فإننا قوم عزاب بغرب (أى يبعد) ، لا بد لنا منه ، ولا يصبر أحدنا على العزبة .

قال : هو مما حرم الله على المسلمين ، يقول الله تعالى ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ (١)

قال : أرأيت الربا ؟

قال : الربا حرام .

قال : فإن أموالنا كلها ربا .

قال : لكم رؤوس أموالكم ، يقول الله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما

(١) سورة الإسراء ٣٢ .

بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ﴿١﴾ .

قال : أفرأيت الخمر ؟ فإنها عصير أعنابنا ، لا بد لنا منها .

قال : فإن الله قد حرمها ، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ﴾ الآية .

قال أصحاب المغازي والسير : فارتفع القوم وخلا بعضهم ببعض ، فقال عبد ياليل : ويحكم ، نرجع إلى قومنا بتحريم هذه الخصال الثلاث ، والله لا تصبر ثقيف عن الخمر أبداً ، ولا عن الزنا أبداً ، وكان في الوفد رجل ذا عقل وبصيرة هو سفيان بن عبد الله . فقال لعبد ياليل : أيها الرجل ، إن يرد الله بها (أى ثقيفاً) خيراً تصبر عنها ، قد كان هؤلاء الذين معه على مثل هذا فصبروا وتركوا ما كانوا عليه ، مع أنا نخاف هذا الرجل ، قد أوطأ الأرض غلبة ونحن في حصن في ناحية من الأرض ، والإسلام حولنا فاش ، والله لو قام على حصننا شهراً لمتنا جوعاً ، وما أرى إلا الإسلام ، وأنا أخاف يوماً مثل يوم مكة .

ثم قالوا للرسول ﷺ : أرايت الربة (يعنى اللات) ما ترى فيها ؟ .

قال : هدمها .

قالوا : هيات ، لو تعلم الربة أنا أوضعنا في هدمها قتلت أهلنا .

قال عمر بن الخطاب : ويحك يا عبد ياليل إن الربة حجر لا يدري من عبده ممن لا يعبده .

قال عبد ياليل : إنا لم نأتك يا عمر فأسلموا (٢) .

وهكذا فشل الوفد الثقفي في الحصول على أية امتيازات تسقط عن ثقيف بعض التكاليف كالصلاة أو تبيح لهم بعض المحرمات في الإسلام كالربا والزنا والخمر ، وذلك بعد أن رفض الرسول ﷺ كل هذه المطالب بصراحة ، وأبلغ الوفد الثقفي أن الإسلام بكل تكاليفه وأوامره ونواهيه كل لا يمكن تجزئته بأخذ

(١) سورة البقرة ٢٧٨ .

(٢) انظر تفاصيل إسلام ثقيف في سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٨٢ — ١٨٣ — ١٨٤ ومغازي الراقدى ج ٣ ص ٩٦٢ — ٩٦٣ — ٩٦٤ — ٩٦٥ — ٩٦٦ — ٩٦٧ — ٩٦٨ وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ٩٧ — ٩٨ — ٩٩ وطبقات ابن سعد ج ٣ ص ٣١٣ — ٣١٤ والبداية والنهاية ج ٥ ص ٩٦٨ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٩٣ — ١٩٤ .

بعضه وترك بعضه .

بعد هذه المفاوضات والمراجعات الطويلة ، وبعد تداول أعضاء الوفد الثقفي فيما بينهم الرأي استصوبوا رأى سفيان بن عبد الله ، تغلب وازع العقل على نداء العاطفة فدخلت ثقيف في الإسلام دونما قيد أو شرط ، إلا أن الرسول ﷺ قبل أن يُعفى ثقيفاً من تحطيم صنمها اللات وبقية أصنامها بأيديها .

قال الواقدي : وكمل الصلح ، وكتب ذلك خالد بن سعيد فلما كمل الصلح ، كلموا النبي ﷺ يدع الربة ثلاث سنين لا يهدمها ، فأبى ، قالوا : سنتين ، فأبى . قالوا : سنة ، فأبى . قالوا : شهراً واحداً ، فأبى أن يوقت لهم وقتاً . وإنما يريدون بترك الربة لما يخافون من سفهائهم والنساء والصبيان ، وكرهوا أن يروعا قومهم يهدمها ، فسألوا النبي ﷺ أن يعفيهم من هدمها . قال رسول الله ﷺ : نعم أنا أبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يهدمانها ، واستعفوا رسول الله ﷺ أن يكسروا أصنامهم بأيديهم ، وقال : أنا آمر أصحابي أن يكسروها .

وسألوا رسول الله ﷺ أن يعفيهم من الصلاة .

فقال ﷺ : لا خير في دين لا صلاة فيه .

فقالوا : يا محمد أما الصلاة فسنصلي ، وأما الصيام فسنصوم . وتعلموا فرائض الإسلام وشرائعه ، وأمرهم رسول الله ﷺ أن يصوموا ما بقى من الشهر ، وكان بلال يأتيهم بفطرمهم ، ويخيل إليهم أن الشمس لم تغب ، فيقولون : ما هذا من رسول الله ﷺ إلا استبار لنا ، ينظر كيف إسلامنا . فيقولون : يا بلال ما غابت الشمس بعد ، فيقول بلال : ما جئكم حتى أفطر رسول الله ﷺ ، فكان الوفد يحفظون هذا عن رسول الله ﷺ من تعجيل فطره . وكان بلال يأتيهم بسحورهم قال : فأسترهم من الفجر^(١) .

هكذا أسلمت ثقيف ، وبدخولها في الإسلام لم تتبق في جزيرة العرب قوة ذات شأن تناوىء الإسلام . وبعد إسلام ثقيف أخذت الوفود من جميع أنحاء

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٦٨ .

الجزيرة العربية يفدون إلى المدينة لدخول من تبقى من قبائل العرب في الإسلام .

أمير ثقيف منهم :

وبعد أن أشرقت قلوب وفد ثقيف بالإسلام وهم في المدينة ، وأصبحوا ضمن الأسرة الإسلامية الكبرى . طلبوا من الرسول ﷺ أن يعين لهم أميراً يرجعون إليه في الإدارة والحكم ببلادهم ويتولى إرشادهم ويؤمهم في الصلاة .

فقالوا : يا رسول الله أمر علينا رجلاً يؤمننا ، ولما كان التفقه في الدين مع الكفاءة في العمل ، هو المقياس عند الإسلام لتولى الأمر فقد اختار الرسول ﷺ لثقيف أميراً عليها في بلادها كلها عثمان بن أبي العاص ، ولم يمنع الرسول من أن يؤمّر على ثقيف عثمان هذا كونه أصغر رجال الوفد سناً ، فقد اختاره الرسول ﷺ من بينهم أميراً لما رأى من حرصه على الإسلام ، وحرصه على تعلم القرآن ولكونه كان أسبق رجال الوفد إلى الدخول في الإسلام .

فقد عينه الرسول ﷺ أميراً على الطائف كلها ، وبعد أن عينه أميراً زوده بوصايا نبوية سامية ، قال عثمان : وكان آخر عهد عهده إلى رسول الله ﷺ أن اتخذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجراً ، وإذا أمت قوماً ، فأقدرهم^(١) بأضعفهم ، وإذا صليت لنفسك فأنت وذاك^(٢) .

وكان أبو بكر الصديق قد أثنى على عثمان بن أبي العاص فقال : يا رسول الله إني قد رأيت هذا الغلام منهم من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن^(٣) .

وفي رواية أخرى أن عثمان بن أبي العاص قال : كان آخر ما عهد إلي رسول الله ﷺ حين بعثنى على ثقيف أن قال : يا عثمان تجاوز في الصلاة ، وأقدر الناس بأضعافهم ، فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة^(٤) .

(١) أقدرهم (بضم القاف وسكون الدال) أى قدر ظروف الضعيف فيهم بحيث لا تطيل في صلاتك إلى درجة تشق على الضعيف بل اجعلها في حدود طاقته من حيث المدة .

(٢) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٩٦٩ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٨٦ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٨٥ .

(٤) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٨٦ .

وبعد أن تمت كل الإجراءات الخاصة باعتماد ثقيف الإسلام ، وكتب الرسول ﷺ بينه وبينهم كتابهم وعيّن أميرهم ، غادروا المدينة قاصدين بلادهم الطائف ليعلموا قومهم بنتيجة محادثتهم ويدعونهم إلى الدخول في الإسلام .

وقد لاقى رجال الوفد الثقفي من قومهم في الطائف بعض المتاعب وشيئاً من المقاومة فلم يتقبلوا الإسلام بسهولة ، ولكن رجال الوفد اطمأنوا من نفاهم ولاينهم ورؤوضهم حتى تم التغلب على كل المتاعب ، ودخل الثقفيون في الإسلام جميعهم .

هدم الطاغية اللات وما صاحبه من متاعب :

كان إسلام ثقيف في السنة التاسعة الهجرية آخر مسمار دق في نعش الوثنية في منطقة الحجاز وغربي نجد حيث تسكن قبائل هوازن العظيمة والكثيرة العدد . حيث لم يعد للوثنية أى وجود في هذه المناطق .

لقد كان يوماً مشهوداً ذلك اليوم الذى تحطم فيه صنم ثقيف (اللات) وهو صنم قد اتخذته ثقبان ، إلهاً من دون الله ليقرّبها إلى الله زلفى .

وقد جاء ذكر هذا صنم في كتاب الله العزيز ، فقال تعالى ﴿ أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى إن هى إلا أسماء سميتوهن أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ (١) .

تاريخ اللات ومن هو

ومن الجدير بالذكر أن اللات هو اسم رجل صالح ، كان منذ القدم — قد اتخذ له مكاناً طريق الحاج يطعم فيه المحتاجين من الحجاج عندما يمرون به ، وكان يلبس لهم السويق (أى يعجنه) بنفسه ، ويطعمهم تقرباً إلى الله تعالى ، ولهذا أطلق عليه لقب (اللات) نسبة إلى قيامه بلبت العجيين .

كان اللات يفعل المعروف هذا والناس على الخفية دين إبراهيم عليه السلام ، فلما مات هذا الرجل الصالح (اللات) اتخذ قومه على قبره مشهداً فصاروا

(١) سورة النجم آية ٢٣ .

يختلفون اليه للتركيم والتبرك ، وبمرور الزمن وتكاثر الجهل وتفلت الناس من الحنفية دين إبراهيم عليه السلام تحوّل اللات إلى صنم يُعبَد من دون الله (١) بالدعاء والطواف والتقدّيس والذبح والنذر ، لا بالاعتقاد أن اللات يخلق أو يرزق أو يحيى أو يميت ، وإنما بالاعتقاد أنه لقربه من الله (بزعمهم) يتوسط لهم عند الله على أساس قاعدتهم التي أشار إليها القرآن ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى ﴾ (٢) .

ولقد روى الإمام ابن جرير الطبري بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد : ﴿ أفرأيت اللات والعزى ﴾ قال : كان يلتُّ لهم السوق (٣) فمات فعكفوا على قبره ، وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس : (كان يلت السوق للحجاج) وعن سعيد بن منصور : (فيطعم من يمر من الناس فلما مات عبده ، وقالوا : هو اللات) (٤) .

كان اللات أكبر الأوثان عند العرب (٥) . وقال الإمام هشام الكلبي في كتابه (الأصنام) : واللات بالطائف ، هو أحدث من مناة ، وكان صخرة مربعة ، وكان يهودي يلتُّ عندها السوق ، وكانت سدنتها من ثقيف بنو عتاب ابن مالك ، وكانوا قد بنوا عليها بناءً وكانت قريش وجميع العرب تعظمها ، وبها كانت العرب تسمّى (زيد اللات وتيم اللات) ، وكانت في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى اليوم (أى في عهد الكلبي) ، وهو الذى ذكره الله في القرآن فقال : ﴿ أفرأيت اللات والعزى ﴾ .
وله يقول عمرو بن الجعد :

فإني وتركي وصل كأس كالذى تبرأ من لات وكان يدنها

(١) أنظر فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٢٤٨ مطبعة السنة المحمدية ، وانظر كتاب الأصنام للإمام الكلبي ص ١٦ وما بعدها .

(٢) سورة الزمر آية ٣ .

(٣) السوق : دقيق الحنطة أو الشعير . ولته : بله بالماء أو السمن ، والحاج بمعنى الحجاج .

(٤) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٢٤٩ .

(٥) فتح المجيد ص ٢٥٤ .

وله يقول المتلمس في هجائه عمرو بن المنذر :
أطردتنى حَذَرَ الهُجَاءِ واللَّاتِ والأنصابِ لا تثل
فلم تزل كذلك حتى أسلمت ثقيف ، فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن
شعبة فهدمها وحرقتها بالنار . وفي ذلك يقول ابن عارض الجُشَمي حين
هُدِّمَتْ وَحُرِّقَتْ ينهى ثقيفاً عن العود إليها والغضب لها .
لا تنصروا اللاتَ إِنَّ اللهَ ملكُها وكيف نصركموا من ليس ينتصرُ

إِنَّ التي حرقت بالنار فاشتعلت ولم تقايل لدى أحجارها هَدْرُ
إِنَّ الرسول متى ينزل بساحتكم يظعن وليس بها من أهلها بَشْرُ

وقال أوس بن حجر يحلف باللات .
وباللات والعزى ومن دَانَ دينها وبالله إن الله منهم أكبر^(١)

كان صنم اللات أعظم أصنام العرب شأناً في نفوس ثقيف خاصة والعرب
عامة ، وكأننا قد مرّت آلاف السنين والأعراب في الطائف يتوارثون تقديس
وتعظيم هذا الصنم جيلاً بعد جيل ، وكان وفد ثقيف الذى ذهب إلى المدينة
برئاسة عبد ياليل يعرف ما لهذا الصنم الطاغية من منزلة في نفوس ثقيف
الذين قتلوا سيدهم عروة بن مسعود لأنه عندما عاد من المدينة مسلماً لم يخلق
رأسه عند هذا الصنم كما هى عادتهم ، بل رفع شعار التوحيد وهو الأذان .
وحتى بعد أن أسلم رجال الوفد في المدينة وحسن إسلامهم فقد كانوا
يتصورون الصعوبات التى سيلاقونها لإقناع قومهم باعتزال الصنم اللات
والقبول بتحطيمها كشرط أساسى لصحة إسلامهم .

لهذا كان وفد المفاوضة من ثقيف (وهو يفاوض الرسول ﷺ للدخول في
الإسلام) أفصح عن تخوفه من التحطيم الفورى للطاغية (اللات) وكان هذا
التخوف ناتجاً عمّا يتوقعونه من النقمة التى سيتعرضون لها من جماهير ثقيف

(١) كتاب الأصنام ص ١٧ .

إن هم رأوا زعماءهم من رجال الوفد ، يعودون من المدينة وهم يحملون مشروع تحطيم اللات التي ظلت إلهاً عبر آلاف السنين .

لذا طلب عبد ياليل وبقية أعضاء وفده ، طلبوا من الرسول ﷺ أن يسمح ببقاء (اللات) ويتجاوز عن بقائها لمدة ثلاث سنوات ، على أساس أن يسعى زعماء ثقيف خلالها للتطمين من نفار نفوس الثقيفين وترويضها حتى يدخلوا في الإسلام ويرضوا (بدون متاعب) بتحطيم (اللات) صنمهم الأكبر .

غير أن الرسول ﷺ الذي ما جاء إلا لحو كل أثر من آثار الوثنية رفض طلب الوفد الثقيفي وأصر (إقامة للتوحيد) على أن يهدم صنم اللات في الحال وبمجرد التمكن من هدمه ، لأن بقاء هذا الصنم يبقى ما له من تقديس في نفوس جماهير ثقيف ، وهذا لا يساعد على نشر الإسلام بينهم ، بل على العكس يشكل عائقاً كبيراً في هذا السبيل .

ولأن السماح (من جهة أخرى) ببقاء هذا الصنم مع وجود سلطان الإسلام على ثقيف ، يعنى موافقة الرسول ﷺ على أن تمارس طقوس الشرك إلى جانب قيام التوحيد ، وهو تناقض ترفضه طبيعة الإسلام وأنى القبول به الرسول ﷺ وهو في أشد أيام محنته عندما كان بمكة قبل الهجرة في قلة قليلة جداً من أصحابه ، وعندما لم تكن له أية قوة عسكرية تقف إلى جانبه ، فكيف يوافق (إذن) على هذا التناقض وقد دانت كل الجزيرة العربية وأصبحت كلها عسكرياً للتوحيد .

لهذا رفض الرسول ﷺ السماح ببقاء اللات ، وأصر على أن أول عمل يجب أن يتم عند عودة وفد ثقيف إلى الطائف هو تحطيم صنم (اللات) فلم يسع الوفد الثقيفي (وقد دان بالإسلام إلا أن يوافق على ذلك) .

إلا أن رجال الوفد الثقيفي تقدموا إلى الرسول ﷺ بالتماس يطلبون فيه إعفاءهم من أن يحطموا صنم اللات وبقية الأصنام بأيديهم ، ولما لم يكن في تحقيق هذا الطلب أى أثر ضار على دعوة التوحيد أو على إسلام رجال الوفد ، فقد وافق الرسول ﷺ الوفد الثقيفي على التماسهم قائلاً : (أما كسر أوثانكم

بأيديكم فستعفيكم منه^(١)، وقال أنا أمر أصحابي أن يكسروها .

وقد عاد الوفد الثقفي إلى الطائف ، بعد أن أعلنوا دخول ثقيف في الإسلام ، أما مهمة تحطيم اللات وبقية أصنام ثقيف فقد أكلها الرسول ﷺ إلى أنى سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة الثقفي ، وقد توجه أبو سفيان والمغيرة إلى الطائف لتنفيذ أوامر الرسول ﷺ بشأن هدم الطاغية اللات وبقية الأصنام .

وعندما وصلا الطائف طلب المغيرة من أنى سفيان أن يتقدم ويشرع في هدم (اللات) ولكن أبا سفيان — وقد علم ما أصاب عروة بن مسعود على يد قومه حين قتلوه لما لم يقدس اللات — طلب هو من المغيرة أن يبدأ هو الهدم قائلاً : (ادخل على قومك أنت^(٢)) فاتجه المغيرة بنفسه إلى صنم قومه اللات يصحبه بضعة عشر رجلاً ، ليتولى نفس اللات وما حولها من أبنية تابعة لها ، فوجد المغيرة حشداً كبيراً من عامة ثقيف حول صنم (اللات) ، ولكنهم عندما شرع المغيرة في هدم اللات ، لم يبدوا أية مقاومة مسلحة ، إلا أن بنى معتب من ثقيف (قوم المغيرة) حاولوا إقناعه بعدم توريط نفسه في هدم اللات ، فنصحوه بأن لا يُقدم على الهدم خوفاً عليه (بزعمهم) من أن يُصيبه مكروه من ذلك الصنم ، لما بقى في نفوسهم من رواسب الاعتقاد الجاهلي في هذا الصنم .

إلا أن المغيرة (وهو المكين في الإسلام) سخر من تحذير قومه السخيف ، ثم حمل المعول — أمام الجماهير المحتشدة — وتسلق بناية صنمهم (اللات) حتى بلغ رأسه والعامة لا تشك — لما في نفوسهم من اعتقاد وثني في اللات — في أن اللات ستدافع عن نفسها ، فتطيح بالمغيرة وتقضي على حياته ، إلا أن شيئاً من ذلك لم يحدث ، فقد أخذ المشاهدون ينظرون إلى المغيرة بن شعبة في ذهول ، وهو يضرب ذلك الصنم الذي يُعبد من دون الله في الطائف آلاف السنين ، فيهدمه حجراً حجراً ، حتى أتى عليه من القواعد دون أن يناله أيُّ مكروه .

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٨٥ ومغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٦٨ .

(٢) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٧١ .

ويهدم صنم اللات انتهت خرافة من أعظم الخرافات في جزيرة العرب ،
وهي خرافة اللات أعظم الآلهة عند الوثنيين العرب ، ثم قام المغيرة بن شعبة
وأبو سفيان بن حرب بتحطيم ما بقى من أوثان لثقيف في المنطقة ، وبتكسير
وتحطيم اللات وبقية أوثانهم أزيل آخر أثر للوثنية في منطقة الحجاز .

كيف أضحك المغيرة الناس من ثقيف

ويذكر المؤرخون وأصحاب السير أن المغيرة بن شعبة (كى يضحك الناس
من ثقيف ويبرهن على اعتقادهم الخاطيء وغباثهم الكبير وأنهم كانوا يعيشون
وأجدادهم وهماً) مع هذا الصنم اللات آلاف السنين تظاهر — وهو يهدم
الطاغية اللات — بأنها قد أصابته إنتقاماً لنفسها ، فخرّ متظاهراً بأنه مغشّى
عليه ، ليرى كيف يكون ردّ الفعل عند الجماهير المحتشدة حول الصنم ، ولقد
كان رد الفعل كبيراً بين هذه الجماهير ، فلم يكد المغيرة يسقط ويتظاهر بأنه
مغشّى عليه حتى تصايحت الجماهير المخدوعة فخورة بأهلتها اللات ، معلنة أن
الربة — كما يسمونها — لن تسكت على من يريد أن يمسخها بسوء .

وبينما كانت الجماهير المغفلة المخدوعة في نشوة وهما بأن اللات قد انتصرت
لنفسها ، إذا بالمغيرة بن شعبة يقف ساخراً من تلك العقول الضالة ، وموجها
الحديث (في توبيخ وتقريع) لأولئك القوم من أهله قائلاً : (يا معشر
ثقيف ، كانت العرب تقول : ما من حي من أحياء العرب أعقل من ثقيف ،
وما من حي من أحياء العرب أحمق منكم ، وبحكم ، وما اللات والعزى ،
وما الرّبة ؟ حجر مثل هذا الحجر ، لا يدري من عبده ومن لم يعبده ،
ويحكم أسمع اللات أو تبصر أو تنفع أو تضر ؟ ثم هدمها وهدم الناس
معه ^(١) .

وفي مصادر الحديث عن هدم الصنم اللات جاء أن بنى معتب قوم المغيرة
ابن شعبة ، عندما تبّلّغوا أن المغيرة ابنهم سيتولى بنفسه هدم (اللات) لبسوا
السلاح ووقفوا إلى جانبه مخافة أن تعتدى عليه ثقيف بالقتل كما اعتدت على
عمّه عروة بن مسعود ، فقام بنو معتب يحرسون المغيرة حتى انتهى من هدم

(١) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٩٧٢ .

اللات ، فلم تقدر أن تناله ثقيف بأى أذى ، ولهذا السبب طلب أبو سفيان من المغيرة بن شعبة أن يكون هو البادئ بهدم صنم قومه ، لأن أبا سفيان يعلم أن عشيرة المغيرة سيحمونه بالسلاح^(١) .

حديث الواقدي المطول عن ثقيف وصنمها اللات :

ويحدثنا الإمام الواقدي (بإسهاب) عن تدنّي مستوى العقول التي كانت تعكف على تقديس اللات والعزى ، وعن المضاعفات والمتاعب التي لقيها الوفد الثقفي في سبيل إقناع ثقيف بالتخلي عن عبادة اللات وبقية الأصنام ، وقد سلك الوفد مختلف السبل ولجأ إلى شتى الحيل حتى تمكن من إقناع ثقيف بأن أسلم وسيلة لهم هي الدخول في الإسلام ففعلوا .

قال الواقدي — يصف قدوم الوفد على قومهم ثقيف وما قابلوهم به : (ثم خرج الوفد عامدين إلى الطائف) ، فلما دنوا من ثقيف قال عبد ياليل : أنا أعلم الناس بثقيف فاكموها القضية — أى الاتفاقية التي تمت بين الوفد وبين الرسول ﷺ — وخوفوهم بالحرب والقتال وأخبروهم أن محمداً سألنا أموراً عظمتها فأبينها عليه ، ويسألنا تحريم الزنا والخمر ، وأن نبطل أموالنا في الربا ، وأن نهدم الرّبة .

وخرجت ثقيف حين دنا الوفد ، فلما رآهم الوفد ساروا العتق^(٢) وقطروا الإبل ، وتغشّوا بشياهم كهيئة القوم قد حزنوا وكرهوا ، فقال بعضهم : ما جاء وفدكم بخير ، ودخل الوفد ، فكان أول ما بدأوا به على اللات ، فقال القوم حين نزول الوفد إليها ، وكانوا كذلك يفعلون ، فدخل القوم وهم مسلمون فنظر فيما خرجوا يدرأون به عن أنفسهم ، وقالت ثقيف : كأنهم لم يكن لهم بها عهد ولا برؤيتها ، ثم رجع كل واحد إلى أهله ، وأتى رجالاً منهم جماعة من ثقيف فسألوهم : ماذا رجعتكم به ؟ وقد كان الوفد قد استأذنوا النبي ﷺ أن ينالوا منه فرتخص لهم ، فقالوا : جئناكم من عند رجل فظ غليظ ، يأخذ من أمره ما شاء ، قد ظهر بالسيف ، وأداخ

(١) أنظر مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٧١ .

(٢) قال في لسان العرب : العتق (يفتح أوله وثانيه) من السير المنبسط .

العرب^(١) ودان له الناس ، وزعت منه بنو الأصفر في حصونهم ، والناس فيه إما راغب في دينه وإما خائف من السيف ، فعرض علينا أموراً شديدة أعظمناها فتركناها عليه ، حرّم علينا الزنا ، والخمر والربا ، وأن نهدم الرّبة . فقالت ثقيف : لا نفعل هذا أبداً . فقال الوفد : لعمري قد كرهنا ذلك وأعظمناه ، ورأينا أنه لم ينصفنا ، فأصلحوا سلاحهم ، ورمّوا حصنكم ، وانصبوا العرّادات عليه والمنجنيق ، وأدخلوا طعام سنة أو سنتين في حصنكم ، لا يحاصركم أكثر من سنتين ، واحفروا خندقاً من وراء حصنكم ، وعاجلوا ذلك فإن أمره قد ظل لا نأمنه ، فمكثوا بذلك يوماً أو يومين ، يريدون القتال ، ثم أدخل الله تبارك وتعالى في قلوبهم الرعب فقالوا : ما لنا به طاقة ، وقد أداخ العرب كلها ، فارجعوا إليه فأعطوه ما سأل وصالحوه ، واكتبوا بينكم كتاباً قبل أن يسير إلينا ويبعث الجيوش . فلما رأى الوفد أن قد سلموا بالقضية ، ورجعوا من النبي ﷺ ، ورجعوا في الإسلام ، واختاروا الأمن على الخوف ، قال الوفد : فإننا قد قاضيناها ، وأعطانا ما أحببناه ، وشرط لنا ما أردنا ، ووجدناه أتقى الناس ، وأبرّ الناس ، وأوصل الناس ، وأوفى الناس ، وأصدق الناس ، وأرحم الناس ، وقد تركنا من هدم الرّبة وأبيننا أن نهدمها ، وقال : (أبعث من يهدمها) ، وهو يبعث من يهدمها . قال : يقول شيخ من ثقيف قد بقى في قلبه شيء من الشرك بعد بقية : فذاك والله مصداق ما بيننا وبينه ، إن قدر على هدمها فهو محق ونحن مبطلون ، وإن امتنعت ففي النفس من هذا بعد شيء ، فقال عثمان بن العاص : متّك نفسك الباطل وغرّتك الغرور ، ومات الرّبة ؟ وما تدري الرّبة من عبدها ومن لم يعبدها ؟ كما كانت العزّى ، ماتدري من عبدها ومن لم يعبدها ، جاءها خالد بن الوليد وحده فهدمها ، وكذلك إساف^(٢) ونائلة وهبل^(٣) ، ومناة

(١) أداخهم أى أدخلهم .

(٢) قال الكلبي في كتابه (الأصنام) : وكان لهم إساف ونائلة ، لما مسحوا حجرتين وضعا عند الكعبة ليتعظ الناس بهما ، فلما طال مكثهما وعبدت الأصنام ، عبد معها . وكان أحدهما بلسق الكعبة ، والآخر في موضع زمزم ، فقلت قريش الذي كان بلسق الكعبة إلى الآخر ، فكانوا ينحرون وينحون عندهما .

(٣) هبل (بضم الهاء وفتح الباء) هو (كما جاء في كتاب الأصنام) أعظم أصنام قريش ، قال =

خرج إليها رجل واحد فهدمها ، وسواع^(١) ، خرج إليه رجل واحد فهدمه ، فهل امتنع شيء منهم ؟ قال الثقفى : إن الربة لا تشبه شيئاً مما ذكرت ، قال عثمان : سترى .

ثم يستمر الإمام الواقدى فيقول : وأقام أبو سفيان والمغيرة بن شعبة يومين أو ثلاثة ، ثم خرجوا وقد تحكّم أبو مليح بن عروة ، وقارب بن الأسود ، وهما يريدان يسيران مع أى سفيان والمغيرة إلى هدم الربة ، فقال أبو مليح يا رسول

= الكلبى : وكان فيما بلغنى من عقيق أحمر على صورة الإنسان ، مكسور اليد اليمنى ، أدرسته قريش كذلك فجعلوا له يداً من ذهب ، كان أول من نصبه خزيمه بن مدركة ، وكان يقال له : هبل خزيمه .. وكان في جوف الكعبة ، قدامه سبعة أقداح ، مكتوب في أولها : صريح والآخر : ملصق ، فإذا شكوا في مولود ، أهدوا له هدية ، ثم ضربوا بالأقداح ، فإن خرج : صريح أحقوقه وإن خرج ملصق ، دفعوه .. وقدر على الميت .. وقدر على النكاح ، وثلاثة لم تفسر لى على ما كانت ، فإذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفراً أو عملاً ، أتوه فاستقسموا بالأقداح عنده . فما خرج ، عملوا به وانتبها إليه ، وعنده ضرب عبد المطلب بالأقداح على ابنه عبد الله (والد النبي ﷺ) ، وهو الذى قال أبو سفيان بن حرب حين ظفر يوم أحد : أعل هبل .. أى علا دينك .. فقال رسول الله ﷺ : الله أعلى وأجل .

(١) ودا (يفتح الواو) أحد أصنام خمسة مشهورة عند العرب ومنذ فجر التاريخ ، وهن (ود ، وسواع ، ويغوث . ونسر ويعوق) وقد كانت هذه الأصنام الخمسة معبودات قوم نوح كما جاء في القرآن الكريم ﷻ قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً .. ومكروا مكراً كبيراً .. وقالوا لا تذرنا آتكم ولا تذرنا ودا ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً .. وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً .. قال أبو المنذر هشام بن محمد الكلبى في كتابه (الأصنام) : وكان أول من اتخذ ذلك لك الأصنام (من ولد إسماعيل وغيرهم من الناس ، وسموها بالسمائم على ما بقى ففهم من ذكرها حين فارقوا دين إسماعيل) هذيل بن مدركة .

اتخذوا سواعاً ، فكان لهم برهام من أرض ينبع ، وينبع عرض من أعراض المدينة ، وكانت سدنته بنو لحيان . واتخذت كلب (ودا) بدومة الجندل ، وكان الذى جاء بالصنم (ود) عمرو بن لحي الجرهمي عندما كان حاكماً على مكة قبل قريش ، دفع عمرو الصنم (ودا) إلى عوف بن عذرة بن زيد اللات ابن ربيعة بن ثور بن كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحلال بن قضاعة .. فحمل عوف الصنم (ودا) إلى وادى القرب ، فأقره بدومة الجندل ، وسمى ابنه عبد ود ، فهو أول من سمي به ، وهو أول من سمي عبد ود ثم سمعت العرب به بعد .. ظل الصنم (ود) معبوداً بدومة الجندل حتى حطمه خالد بن الوليد عام تسع من الهجرة حين بعثه رسول الله ﷺ من تبوك .. وقد دافعت كلب عن إلهها (ود) فقاتلهم خالد حتى قتلهم ، فهدمه وكسره .. وقال الإمام الكلبى قلت لمالك بن حارثة : صف لى (ود) حتى كأنى أنظر إليه . فقال : كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، قد ذبر (أى نقش) عليه حلتان ، متر بجملة ، مرتد بأخرى ، عليه سيف قد تقلده ، وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ورفضة أى (جعبة) فيها نبل .

الله، إن أرى قتل وعليه دين ، مائتا مثقال ذهب ، فإن رأيت أن تقضيه من حلّى الرّبة فعلت . فقال رسول الله ﷺ : نعم . فقال قارب بن الأسود : وعن الأسود بن مسعود أرى ، فإنه قد ترك ديناً مثل دين عروة ، فقال رسول الله ﷺ : إن الأسود مات وهو كافر . فقال قارب . تصل به قرابة ، إنما الدين على وأنا مطلوب به . فقال رسول الله ﷺ : إذا أفعل . فقضى عن عروة والأسود دينهما من مال الطاغية .

وخرج أبو سفيان والمغيرة وأصحابهما لهدم الرّبة فلما دنوا من الطائف قال (المغيرة) لأبى سفيان : تقدم فادخل لأمر النّبي ﷺ . فقال أبو سفيان : بل تقدم أنت على قومك ، فتقدم المغيرة في بضعة عشر رجلاً يهدمون الرّبة ، فلما نزلوا بالطائف نزلوا عشاء فباتوا ، ثم غدوا على الرّبة يهدمونها ، فقال المغيرة لأصحابه الذين قدموا معه : لأضحكنكم اليوم من ثقيف . فأخذ المعول واستوى على رأس الرّبة ومعه المعول ، وقام قومه بنو معتب دونه ، معهم السلاح مخافة أن يصاب كما فعل بعمه عروة بن مسعود . وجاء أبو سفيان وهو على ذلك فقال : كلا ، زعمت تقدمنى أنت إلى الطاغية ، ترائى لو قمت أهدمها كانت بنو معتب تقوم دونى ؟ قال المغيرة : إن القوم قد واضعوهم هذا قبل أن تقدم ، فأحبوا الأمن على الخوف . قال الواقدي : وقد خرج نساء ثقيف حسراً^(١) ييكن على الطاغية ، والعبيد ، والصبيان ، والرجال منكشفون ، والأبكار خرجن . فلما ضرب المغيرة ضربة بالمعول سقط مغشياً عليه يرتكض ، فصاح أهل الطائف صيحة واحدة : كلا ، زعمتم أن الرّبة لا تمتنع ، بلى والله لئمتنعن ، وأقام المغيرة ملياً على حاله تلك ، ثم استوى جالساً فقال : يا معشر ثقيف كانت العرب تقول : ما من حى من أحياء العرب أعقل من ثقيف ، وما من حى من أحياء العرب أحق منكم ، وبحكم ، وما اللات والعزى ، وما الرّبة ؟ حجر مثل هذا الحجر ، لا يدري من يعبد ومن لم يعبد ، وبحكم ، أسمع اللات أو تبصر أو تنفع أو تضر ، ثم هدمها وهدم الناس معه ، فجعل السادن يقول : — وكانت سدنة اللات من ثقيف بنو العجلان بن عتاب بن مالك ، وصاحبها

(١) حسراً : أى مكشوفات الوجوه ، قاله أبو ذر في شرحه .

منهم عتاب بن مالك بن كعب ثم بنوه بعده — يقول : سترون إذا انتهى إلى أساسها ، يغضب الأساس غضباً يخسف بهم .

فلما سمع بذلك المغيرة ولّى حفر الأساس حتى بلغ نصف قامة، وانتهى إلى الغيبغ خزانها ، وانتزعوا حليها وكسوها وما فيها من طيب ومن ذهب أو فضة . قال : تقول عجوز منهم : أسلمها الرضاع^(١) ، وتركوا المصاع^(٢) ، وأعطى رسول الله ﷺ مما وجد فيها أبا مليح ، وقاربا ، وناسا ، وجعل في سبيل الله وفي السلاح منها ، ثم إن رسول الله ﷺ كتب لثقيف : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من النبي رسول الله إلى المؤمنين ، إن عضاه وجَّ^(٣) وصيده لا يعضد ، ومن وجد يفعل ذلك يجلد وتنزع ثيابه ، فإن تعدى ذلك فإنه يؤخذ فيبلغ محمداً ، فإن هذا أمر النبي محمد ﷺ » . وكتب خالد بن سعيد بأمر النبي الرسول محمد بن عبد الله ، فلا يتعداه أحد ، فيظلم نفسه فيما أمر به محمد رسول الله ﷺ . ونهى النبي ﷺ عن قطع عضاه وجَّ وعن صيده . وكان الرجل يوجد يفعل ذلك فتنزع ثيابه . واستعمل رسول الله ﷺ على حمى وجَّ سعد بن أبي وقاص^(٤) .

وهكذا وباتهاء هدم اللات وبدخول ثقيف في الإسلام انتهت آخر مرحلة من مراحل الصراع بين الإسلام والوثنية في منطقة الحجاز ، حيث أصبحت كل هذه المنطقة داخلة في حظيرة الإسلام ، ولم يعد للوثنية أى وجود في أية ناحية من نواحي الحجاز ، وكان إسلام ثقيف في أواخر السنة التاسعة للهجرة . أى بعد مرور حوالى سنة على انهزام ثقيف وكل هوازن في معركة حنين الحاسمة . والعام التاسع من الهجرة ، هو المسمى بعام الوفود ، وفيه أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا^(٥) .

(١) الرضاع (بكسر الراء) جمع راضع ، وهو اللثيم .

(٢) المصاع (بكسر الميم) : المضاربة بالسيف .

(٣) وج . قال ياقوت : اسم الطائف .

(٤) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٩٦٩ — ٩٧٠ — ٩٧١ — ٩٧٢ — ٩٧٣ .

(٥) سورة النصر .

الفصل السادس

(نظرة وتحليل)

- وقفة عند عدد قتلى الفريقين في المعركة .
- دروس من حنين .
- أسباب هزيمة المسلمين في المرحلة الأولى .
- أسباب انتصار المسلمين بعد انهزامهم .
- ثبات الرسول ﷺ ساعة الهزيمة هو نقطة التحول في تصحيح وضع المسلمين .
- أسباب هزيمة هوازن بعد انتصارها .
- أسباب فشل حصار الطائف .

قتلى الفريقين في معركة حنين :

برجعنا إلى مصادر التاريخ الإسلامى كالطبرى والواقدى وابن إسحاق ، لم نجد هؤلاء يذكرون سوى أربعة استشهدوا يوم حنين . وهم .

١ — أيمن بن عبيد وهو ابن أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ . وعدّه ابن إسحاق من قريش .

٢ — سراقه بن الحارث من الأنصار .

٣ — رقيم بن ثابت بن ثعلبة بن زيد بن لوزان ويهمله ابن إسحاق ، ويذكر بدلاً منه يزيد بن زمعة بن الأسود بن عبد المطلب ، بينما يذكر الواقدى أن يزيداً استشهد فى حصار الطائف لا فى حنين .

٤ — أبو عامر الأشعرى عم أبى موسى الأشعرى .

أما قتلى المشركين ، فلم يذكر المؤرخون أية تفاصيل عنهم ، فلم يذكروا (مثلاً) أسماء أحد منهم أربعة رجال من بنى مالك هم :

١ — اللجلاج .

٢ — ورجل يقال له وهب .

٣ — عثمان بن عبد الله ، وكان سيد ثقيف .

٤ — عوف بن الربيع وهو الملقب بذى الخمار .

ورغم عدم إعطاء المؤرخين جدولاً بأسماء القتلى من مشركى هوازن ، فإنه يفهم من ثنايا حديثهم عن المعركة أن عدد القتلى بين هوازن كان كبيراً .

فمثلاً ذكر الواقدى أن ثقيفاً وحدها فقدت فى المعركة ما يقارب المائة قتيل كما ذكر (كما تقدم فى هذا البحث) أن قبيلة بنى نصر (قوم القائد العام لهوازن) استحرّ بينها القتل حتى كادت تفنى مما حدا ببعض المسلمين من بنى نصر هؤلاء إلى أن قال (اشفاقاً على قومه رغم شركهم) ، يا رسول الله ، هلكت بنو رباب ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم اجبر مصيبتهم — وقبيلة بنى نصر من أهم أجنحة هوازن ولا شك أنها تعد بالمئات ، ومعنى تصريح أحد أفرادها بأن القتل كاد يفنيها ، معناه أن قتلها بلغوا المئات ، وهاتان فقط قبيلتان من هوازن تشم من حديث المؤرخين عن ضحاياهما أنها بلغت المئات

فكم هي إذن الضحايا بين العشائر الأخرى من هوازن ؟ لا شك انها تعد بالملئات أيضاً ، وهذا غير مستغرب ، لأن طبيعة المعركة تفرض أن تكون الضحايا كثيرة جداً ، لأنها معركة لم يدر مثلها (بعد مؤتة) في الضراوة والشراسة والعنف حيث صبر الفريقان فيها صبراً عظيماً كما تقدم وصفه في هذا البحث .

تعليق على عدد القتلى المسلمين :

واذا كان يستشف من حديث أصحاب السير والمغازي أن هوازن قد فقدت (تقريباً) أكثر من ألف قتيل ، فإن أصحاب السير والمغازي هؤلاء قد وضعوا جدولاً لقتلى المسلمين لم يذكروا فيه (كما تقدم) أكثر من أربعة شهداء ، ونحن — واستناداً إلى نظرية فيلسوف التاريخ الإمام ابن خلدون الذي ذكرها في مقدمته — نرى أن هذا العدد (بالنسبة لمستوى المعركة الضارية قليل) فنقول :

مما لا جدال فيه ولا اختلاف بين أصحاب السير والمغازي أن معركة حنين هي (بعد معركة مؤتة) أعنف معركة يخوضها الجيش النبوي ، وقد شهد بذلك الصادق المصدوق النبي ﷺ حين قال — بعد أن عاد المنهزمون المسلمون إلى الميدان —: الآن حمى الوطيس ، وهذا قول يصور شدة القتال وضراوته ، وهو قول ، لم يقل الرسول ﷺ مثله في وصف أية معركة من المعارك التي خاضها طيلة حياته .. قول يجسد ويصور صبر الفريقين في القتال العنيف الضاري ، لأن الوطيس في القتال لا يحمى إلا إذا تصافح المحاربون بالسيوف وتداسروا بالرماح وتراشقوا بالنبل على أعلى مستويات القتال في ثبات وصبر وعناد .

وهوازن قبيلة محاربة على مستوى ممتاز وقواتها المشتركة في المعركة قوات كثيفة حددها المؤرخون بعشرين ألف مقاتل ، كما أن هذه القوات الكثيفة كانت تحت قيادة ملك فتي باسل هو في القمة من حيث الشجاعة والخبرة بالحرب وأساليبها ، وكان جيشه الكثيف شديد الانضباط ، إلى درجة رأينا معها كيف أطاع عامة الجيش وسمعوا لقائدهم الشاب ، رغم الغلظة التعبوية التي ارتكبها ، والمتمثلة في إجبار جند هوازن على أن يصطحبوا معهم إلى ميدان القتال النساء

والأطفال والأموال ، وهى الغلطة التى نبه المحارب المجرب دريد بن الصمّة الجشمى القائد مالكا إليها وطالبه بشدة أن يتراجع عنها . فرفض استناداً إلى ما ترسخ فى اعتقاده أن ما أقدم عليه بهذا الشأن سيكون من أكبر الحوافز للجند على الثبات وعدم التفكير فى الهرب . وفعلاً ثبت جند هوازن حتى فقدوا (وهم صابرون) ما لا يقل عن ألف قتيل فى تقديرنا استناداً إلى إشارات أصحاب المغازى والسير .

ثم إننا (كما شهد المؤرخون أنفسهم) رأينا كيف نزلت الهزيمة المروعة بجيش الإسلام فى المرحلة الأولى من المعركة حتى وصلت طلائعه المنهزمة قريباً من مكة ، والمنهزم الهارب يكون القتل فيه كثيراً دونما جدال ، لا سيما إذا كان عدوّ المنتصر يطارده لينزل به أكبر خسارة ممكنة فى الأرواح ، وهو ما فعلته هوازن المنتصرة (بشهادة أصحاب المغازى والسير) فى أول المعركة ، وكانت هوازن عشرين ألفاً والمسلمون اثنى عشر ألفاً .

يضاف إلى ذلك (وهو الأهم) نجاح كائن هوازن فى هجومها الصاعق على المسلمين ، فقد انقضت الكمائن بأسلوب صاعق مباغت عند الفجر على الجيش النبوى وهاجمته بمختلف الأسلحة بما فى ذلك الخيل ، كما قصف رجال الكمائن الهوازنية المسلمين من مختلف الجهات بوابل من النبال وصفها بعض المؤرخين لكثافتها كأنها أرجال الجراد . وهذه النبال لا بد وأن تصيب مقاتل كثير من الذين تعرّضوا لها لاسيما وأنهم كانوا مكشوفين لرماة النبل الذين كانوا يتربصونهم وراء التلال دون أن يعلموا عنهم شيئاً .

وقد رأينا — أثناء حصار الطائف — كيف قُتل أربعة عشر من المسلمين بنبال الثقفيين الذين كانوا فى حصونهم ، رغم أن المسلمين كانوا على استعداد وحذر ، وكانوا بعيدين عن مرمى النبال ومستترين بمختلف الآلات والوسائل . فكيف إذن (ومع كل الذى أوضحناه) يكون كل قتلى المسلمين فى معركة حنين من أولها إلى آخرها أربعة قتلى فقط ؟ .

إن الذى نراه (وهذا مجرد استنتاج وتقييم) أن شهداء المسلمين فى معركة حنين أكثر بكثير من الذى ذكره الواقدى وابن إسحاق والطبرى ، ولا ندرى (طبعاً) بالتحديد كم هم عدد الشهداء الذين نعتقد أنهم سقطوا فى ميدان

الشرف بحنين ، ولكنهم (فى نظرنا) يبلغون المئات ، وهو عدد لا بد وأن يسلم به كل خبير عسكري درس وصف المؤرخين لمراحل معركة حنين الطاحنة . ونحن بهذا لا نتهم الأئمة الأعلام من أصحاب السير والمغازى بإخفاء الحقائق ، كلا وألف كلا . بل نؤكد أنهم مثال النزاهة والأمانة والصدق ، فهم (كما ذكرنا فى كتابنا غزوة مؤتة) أمناء ثقات يقدِّرون مسؤولية ما يكتبون لمن بعدهم من الأجيال ، وانطلاقاً من قاعدة الأمانة فى النقل التى التزموها لم يذكروا من شهداء معركة حنين إلا ما وصل إلى علمهم عن طريق الثقات ، وهم أربعة شهداء فقط .

ولكن هؤلاء المؤرخون الأعلام أثبتوا بالتفصيل ضراوة المعركة وشدتها وطول وقتها وذكروا ما يشير إلى أن قتلى المشركين بلغوا المئات دون أن يضعوا جدولاً سوى لأسماء أربعة منهم على رأسهم قائد قوات ثقيف عبد الله بن عثمان . ثم إننا (مع ترجيحنا القوى بأن قتلى المسلمين فى حنين قد وصلوا المئات) وترجيحنا هذا مبنى على ما درسناه من مراحل القتال الشرى والضارى ابتداء من انهزام إثنى عشر ألف مقاتل (أول الأمر) وهم المسلمون وملاحقة عشرين ألف مقاتل لهم يخطبونهم بالسيوف ويطعنونهم بالرماح ويرمونهم بالنبال ، وهم المشركون ، مدة من الزمن ، ثم رجوع المهزيمين المسلمين والتحامهم مع المنتصرين المشركين فى قتال شرى ضار لم يصف الرسول مثله فى الضراوة بسبب صبر الفريقين وذلك بقوله ﷺ : « الآن حمى الوطيس » . إننا مع ترجيحنا هذا نعتز بنزاهة وأمانة أئمتنا المؤرخين الأعلام الذين لم يكتبوا لنا فى مؤلفاتهم إلا أسماء ما وصل إلى علمهم من شهداء المسلمين وهم أربعة .. كما لم يذكروا أيضاً إلا أربعة فقط من القتلى وكلهم من ثقيف . ثم إن عدم حصول أئمة المغازى والسير على أعداد تفصيلية أو إجمالية لعدد شهداء المسلمين فى معركة حنين وفى غيرها مثل معركة مؤتة (وهى فى نظرنا أعداد كثيرة) يرجع إلى عدة أمور .

١ — أنه لم يكن هناك (لا فى قيادات المسلمين ولا فى قيادات المشركين) قسم إدارى مهمته إحصاء القتلى وتقديم قوائم بأسمائهم كما هو النظام السائد فى الجيوش العصرية .

٢ — ليس هناك (كما قلنا في كتابنا غزوة مؤتة) ديوان إحصاء للجند يسجل فيه المنخرطون في سلك الجيش بحيث يمكن الرجوع إلى هذا السجل لمعرفة عدد وأسماء الشهداء فيسهل على المختصين بأخبار المغازي والسير وضع قوائم بأسماء هؤلاء الشهداء في مؤلفاتهم .

٣ — يؤلف أبناء البادية من مختلف القبائل الأغلبية في الجيش النبوي يوم حنين ، وهؤلاء بعد معركة حنين وحصار الطائف تفرقوا واجعين إلى قمم الجبال ويطون الوديان في بواديهم المنتشرة في طول الجزيرة وعرضها ، ولا شك أن كل عشيرة علمت بشهادتها ، ولكن من الصعب على المختصين بتدوين أخبار المغازي والحروب في العهد النبوي ، الحصول من هؤلاء البدو على عدد وأسماء الشهداء من أبناء هذه العشائر ، لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الاهتمام بتدوين أخبار الحروب الإسلامية في العهد النبوي لم يكن من المؤرخين إلا في أواسط أواخر القرن الثاني الهجري .

من هنا جاء تقديرنا واستنتاجنا بأن هناك للإسلام جنوداً كثيرين استشهدوا في معركة حنين لم يصل إلى علم المؤرخين الأوائل عددهم وأسمائهم ، وأكثرهم (على الأرجح) من أبناء البادية الذين يمثلون أكتية الجيش المحارب في حنين .

هذا كما قلنا (في تعقينا على شهداء غزوة مؤتة) مجرد استنتاج وتقييم جعلنا نبديها استساغتنا — بل والتزامنا — للقاعدة الفلسفية التاريخية التي وضعها فيلسوف التاريخ والاجتماع الأول الإمام عبد الرحمن بن خلدون الكندي الحضرمي في مقدمته الذائعة الصيت ، والقائلة : إن على المؤرخ الباحث أن لا يجمد على النصوص المتعلقة بالتاريخ ، بل عليه (مع فحص النصوص) أن يقيم الأحداث ويزن الأمور بميزان العقل فيرفض تصديق ما لا يقبله العقل والوجدان (كقصة العباسة أخت الرشيد) كما عليه أن يستخرج الحقائق على ضوء الواقع التاريخي والتي قد لا تكون النصوص التاريخية المسطورة قد ذكرت ولكن سياق هذه النصوص تُستشف منه هذه الحقائق كالترجيح بأن عدد شهداء المسلمين في معركة حنين وموتة أكثر مما أورده أصحاب المغازي في كتبهم رضي الله عنهم .

بين أحد وبدر وحنين :

قد يقول قائل :— لمعارضة استنتاجنا وتقدير هذا :— ولكن كيف تمكن أصحاب المغازى والسير من وضع جدول دقيق لقتلى الفريقين (المسلمين والمشركون) فى كل من معركتى بدر وأحد بل وحتى عدد الأسرى من المشركون فى بدر ، وذكر اسم كل واحد من أولئك القتلى من الفريقين والأسرى من المشركون ؟ .

والجواب على هذا التساؤل هو كما يلى :

١ — إن المتحاربين فى هاتين المعركتين كل فريق منهم يمثل عنصراً واحداً أشبه ما يكون بالعائلة الواحدة بحيث يعرف كل أفراد هذه العائلة بعضهم البعض فرداً فرداً .

قريش (مثلاً) قبيلة واحدة خرجت من مدينة واحدة وكل عشيرة بل كل العشائر القرشية تعرف بالتحديد عدد وأسماء المشركون من قريش فى المعركتين .

ومثل ذلك يقال فى المقاتلين المسلمين من أهل المدينة فهم عنصر واحد كذلك أشبه بعائلة واحدة يعرف أفراد هذه العائلة بعضهم بعضاً فرداً فرداً فمن السهل جداً التعرف على اسم الرجل الذى يفقدون فى أى المعركتين أحد أو بدر ، وهذا بالنسبة للفريقين المشركون والمسلمين ، على حد سواء . وإذا كان الأنصار لا يعرفون أسماء كل القوات القرشية المشتركة فى كل من معركتى بدر وأحد ، فإن فيهم من المهاجرين (وكلهم من قريش) عدد غير قليل يعرف كل واحد منهم اسم ونسب كل جندى مشترك اشترك فى أى من المعركتين لأن هؤلاء المشركون نشأوا وهؤلاء المهاجرين فى بلدة واحدة هى مكة ، فهم أبناء بلدة واحدة ومن قبيلة واحدة هى قريش أو الأحابيش الذين يعتبرون من قريش أيضاً .

٢ — بالإضافة إلى ما تقدم فإن عدد المحاربين المسلمين فى كلتا المعركتين محدود ، فهم فى معركة بدر حوالى ثلاثمائة ، وفى معركة أحد حوالى سبعمائة ، فهم مع هذا العدد المحدود ، عندما خرجوا إلى كلتا المعركتين محفوظة أسماؤهم

في سجل مضبوط ، وإن كان سجلاً غير مكتوب حيث كان هذا السجل صدور نساء ورجال أهل المدينة الذين يحفظون بكل دقة أسماء وأنساب هؤلاء الذين خرجوا من المدينة إلى كل من المعركتين ، ومثل هذا القول ينطبق على المشركين من قريش ، من هنا سهل على أصحاب المغازي والسير معرفة عدد بل وأنساب القتلى من الفريقين في كلتا المعركتين وكذلك عدد وأسماء وأنساب الأسرى من المشركين . أما في كل من معركة مؤتة وحنين ، فالأمر يختلف اختلافاً كبيراً ، فالجيش فيهما مؤلف من قبائل عديدة وخاصة في فتح مكة ومعركة حنين كما هو موضح في جدول المحاربين لأسماء القبائل المشتركة في فتح مكة (انظر كتابنا فتح مكة) وهذه القبائل هي التي اشتركت في معركة حنين وأكثرها من سكان البادية المنتشرين في مختلف أرجاء الجزيرة . والذين من الصعب جداً على المختصين بكتابة مغازي الرسول ﷺ أن يعرفوا عن شهادتهم من التفاصيل مثل الذي عرفوه ودونوه عن شهداء معركتي بدر وأحد .

دروس من حنين

إن أول درس استفادته ويجب أن يستفيده المسلمون من معركة حنين ، هو عواقب الإعجاب بالنفس والاعتداد بالكثرة إلى حد الغرور ، هذا الإعجاب الذي كرهه الله للمسلمين وذكرهم به في القرآن بما جره عليهم من وبال ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ الآيات .

فالإعجاب يؤدي إلى الغرور ، والغرور بدوره يؤدي إلى الاستهانة بالعدو ، والاستهانة بالعدو تؤدي في النهاية إلى مساعدة هذا العدو في أعماله الحربية إلى حد كبير ، وقد تحقق له النصر الكامل وإن كان غير مُهيئ له . وهكذا يمكن إجمال النتائج السيئة التي نتجت عن إعجاب المسلمين بكثرتهم فيما يلي :

أ — الاستهانة بقوات هوازن .

ب — جزم عناصر الجيش بأنهم لن يغلبوا في المعركة .

ج — الإهمال واللامبالاة التي سادت مقدمة الجيش وعناصر الاستطلاع المسؤولة عن الاستكشاف الأمر الذي جعل هذه العناصر تقصّر في مهمتها إلى الحد الذي جعلها تحلّ أخطر عمل تعبوى قامت به قيادة هوازن ، وكاد يؤدي

بجيش الإسلام إلى كارثة مدمرة ، وهو تنظيم الكمائن ، ووضعها في أضيق المضائق والممرات التي سيمر بها الجيش النبوي عند بزوغ الفجر ، مما أدى إلى الهزيمة المنكرة التي نزلت بالعسكر الإسلامي في الصدمة الأولى من المعركة ، نتيجة انقضاء الكمائن على أرتال المسلمين وبصورة صاعقة مفاجئة ، وفي مكان ضيق ووعر :

أسباب هزيمة المسلمين في البداية :

أ — الغرور والإعجاب :

كان إعجاب المسلمين بكثرتهم والذي تحول لدى بعض عناصر الجيش إلى غرور — السبب الرئيسي في الإهمال والاسترخاء الذي حل لدى كثير من عناصر الجيش محل التنبيه واليقظة والحذر مما أدى إلى تمكين العدو من وضع خطة الكمائن وتنفيذها بصورة ناجحة أدت إلى هزيمة المسلمين هزيمة منكرة عند الصدمة الأولى ، هذه الهزيمة التي كادت أن تكون كاملة شاملة ساحقة لولا ثبات الرسول والقائد الأعلى للجيش في الميدان .

ب — مستوى التعبئة الممتاز الذي كانت عليه قوات هوازن قبل المعركة ، فقد رأينا كيف أن ذلك الشاب الألعى قائد هوازن وملكها ، مالك بن عوف رغم غلظته التعبوية القاتلة (استصحب الجند للأهل والمال معهم) قد لجأ عند تعبئة قواته في حنين إلى عامل نفسى كان له أثره المرعب في نفوس جند المسلمين ، وهو أنه أركب النساء في الصفوف الخلفية من جيشه على الجمال ، فظهرن وكأنهن جزء من الجيش ، حتى بدا جيش هوازن وكأنه مائة ألف لا عشرين ألفاً كما شهد بذلك أحد الصحابة الذين حضروا حنين كما تقدم في هذا البحث .

ج — نجاح قائد هوازن في سبق المسلمين إلى وادى حنين واختياره المرابطة بجيشه في المكان المناسب من هذا الوادى ، حتى بدا واضحاً وكأنه أجبر المسلمين على المرور في مضائق وشعاب ، لا يفضلون المرور فيها لوعورتها وضيقها وشدة انحدارها ، وهذه حقيقة أدلى بها أحد الصحابة وهو يتحدث عن التحرك إلى حنين ، فذكر أن جيش الإسلام — وهو يحاول الدخول إلى وادى حنين — لم يكن يتحرك في سهل منبسط ، كما هو الأفضل لجيش أكثره

من الفرسان والهجانة ، وإنما كان ينحدر في منحدرات وعرة شديدة الانحدار ، الأمر الذى جعله يفقد الكثير من انتظام صفوفه ، ويسهل على الكمائن التمكن منه وإنزال الهزيمة به وعلى تلك الصورة المخيفة .

د — نجاح قائد هوازن في اختيار مواضع الكمائن التى نصبها لتنفذ على عسكر الإسلام فى الوقت الذى حدده لها ، حيث اختار مضائق الشباب والمنحدرات التى سيمر بها جيش الإسلام ، ووضع الكمائن فى التلال والأماكن المحيطة بها ، كما وضع وحدات من فرسانه عند مخرج هذه الشباب لتضرب (وبأسلوب صاعق محكم) مقدمة جيش الإسلام عندما تحاول الخروج من هذه الشباب . وكانت مقدمة المسلمين أكثرها من بدو بنى سليم عليهم خالد بن الوليد .

هـ — نجاح خطة السرية والكتمان التى اتبعها القائد مالك بن عوف ، وهو يضع وحدات الكمائن الخاصة فى المواقع التى اختارها على طريق الجيش النبوى ، حيث قام بتفقد هذه المواقع واختيارها بمهارة ودقة ، وقام بترتيب الكمائن فيها فى ظلام الليل ، مما جعل عناصر استطلاع جيش الإسلام المكلفة بالرصد والاستكشاف على جهل تام بهذه الكمائن ومواقعها ، الأمر الذى عرض المسلمين لتلك الهزيمة المروعة عند الصدمة الأولى .

و — نجاح استخبارات ودوريات المشركين فى الحصول على أدق المعلومات عن عدد جيش الإسلام ومواعيد تحركاته بشكل لسنّا متجنّين إذا قلنا : إنه أدق من أعمال دوريات واستخبارات المسلمين .

ولولا نجاح دوريات واستخبارات هوازن الممتازة ، لما استطاعوا أن يحددوا لقائهم العام المواضع التى وصلها جيش الإسلام والأماكن التى سيكون فيها عند الفجر ، الأمر الذى يسّر لمالك بن عوف (وفق معادلات وحسابات دقيقة) أن يضع الكمائن فى المواقع المناسبة لتنفذ على جيش الإسلام بصورة فعالة فى الوقت المناسب .

وكان مالك يعلّق أكبر الآمال على عمليات الكمائن الصاعقة المباغتة ، والتى نجحت فى مهمتها مائة فى المائة ، وكاد مالك يقطف الثمرة النهائية الياينة لنجاح خطة الكمائن ، لولا ثبات الرسول القائد ﷺ والقلة من أصحابه ،

الذين ضيّعوا على ملك هوازن وقائده ثمرة عمليات الكمائن الناجحة .
ز — كذلك من أسباب هزيمة المسلمين أول الأمر أنه يوجد في جيش الإسلام عناصر من قريش وكنانة مدخولة العقيدة ، أسلمت ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم.. كانت هذه العناصر تتمنى أن تنزل الهزيمة الكاملة بالجيش النبوى ، وتود أن تتمكن هوازن من أن تعيد للوثنية سلطانها على مكة المكرمة .

لذلك ومن المنطلق السيء فإن هذه العناصر المشبوهة (وكانت جزءاً من الجيش النبوى) كانت أول المهزمين عندما بدأت كائن هوازن هجومها المباغت عند الفجر على المسلمين ، فكانت هذه العناصر المشبوهة — بالإضافة إلى إصرارها في الهزيمة — عامل بليلة وإرجاف ، حيث قامت عن قصد وسوء نية بإشاعة الذعر والفرع في نفوس المسلمين ، للتأثير على معنوياتهم التي كانت قد تعرّضت لهزة عنيفة نتيجة تعرّضها لهجوم الكمائن الصاعق المباغت في عماية الصبح .

ح — وجود عناصر أخرى في الجيش من أهل مكة وكنانة غير سيئة النية — ولكنها على جهل شبه تام بالإسلام ، لحدّثة عهدا بهذا الدين حيث انضمت إلى الجيش النبوى ولم يمض على إسلامها سوى حوالى خمسة عشر يوماً . فظلت هذه العناصر لذلك على كثير من المعتقدات الوثنية ، فقد رأينا كيف أن هذه العناصر طلبت من الرسول ﷺ — عند التحرك إلى حنين — أن يسمح لها بمباشرة ما يباشره المشركون من أعمال وثنية ، حيث طلبوا من الرسول ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط ، فقالوا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم (أى المشركين) ذات أنواط^(١) .

فهذه العناصر قد لا تكون سيئة النية ، ولكنها جاهلة بحقيقة الإسلام المبني على عقيدة التوحيد ، مما جعل وجودها عامل بليلة وعامل ارتباك وضعف في الجيش ، لأن أهم حوافز القوة القتالية لدى المسلمين إنما كان قوة عقيدة الإسلام .

(١) انظر تفاصيل قصة ذات أنواط فيما مضى من هذا الكتاب .

أهم أسباب انتصار المسلمين بعد انهزامهم :

أ — ثبات الرسول ﷺ :

يأتى (دوغما شك) وفى الدرجة الأولى ، من أسباب انتصار المسلمين الساحق بعد هزيمتهم المنكرة فى حنين : يأتى فى الدرجة الأولى ، ثبات الرسول ﷺ عند الهزيمة ، حيث انحاز فى الميدان إلى مكان مناسب وثبت فيه ، وصار يناشد المنهزمين ليعودوا إلى ميدان الشرف وينضموا إليه .

الأمر الذى جعل هزيمة المسلمين غير شاملة ، بعد أن كادت تكون كاملة ومدمرة وساحقة ، فقد انتاب المنهزمين (وخاصة الأنصار) الخجل من أنفسهم ، عندما علموا أن نبيهم وقائدهم الأعلى ثابت فى الميدان يقاتل المشركين مقبلاً غير مدبر ، فعادوا إلى الميدان وأعادوا تشكيل وحداتهم كلها من جديد وشرعوا بقيادة نبيهم ﷺ فى القيام بهجوم مضاد كاسح جديد ، فضيَّعتْ عودتهم إلى الميدان ثمرة الانتصار التى كاد أن يقطفها قائد هوازن وملكها الداهية .

وهذه حقيقة واقعة يقرها — فى كل عصر وزمان — المختصون بدراسة الشؤون العسكرية . ثبات القائد العام وهيئة أركان حربه ، عندما يتعرض الجيش لهزة عنيفة أو هزيمة ، يكون له أحسن النتائج فى تصحيح الأوضاع على الأقل ، وتحويل الهزيمة إلى نصر مؤزر ، وهذا ما حدث بالفعل للجيش النبوى بسبب ثبات قيادته ، حين عاد هذا الجيش المنهزم والتف من جديد حول قائده الأعلى النبى ﷺ الذى بثاته يوم حنين ضرب أروع الأمثلة فى الشجاعة والاستبسال .

ولا غرو ، فتاريخ الرسول العسكرى قبل حنين وبعدها ، هو من أروع الصفحات فى تاريخ العسكرين الشجعان ، فما تعرض المسلمون لروع أو فرع إلا وكان الرسول ﷺ فى مقدمتهم أثبت من الرواسى ، يحميهم ويثبت من أفتدتهم ، فكانوا يلوذون به عندما تدلهم الخطوب ، ولقد وصف هذه الحقيقة الناصعة البراء بن عازب حين قال : ولقد كنا ، إذا حمى البأس ، نتقى برسول الله ﷺ وإنه الشجاع الذى يحاذى به (١) .

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٢٨ .

وهزيمة المسلمين في حنين ليست أول هزيمة منكرة تنزل بالمسلمين ، فيكون ثبات الرسول ﷺ العامل الرئيسي والأول في إنقاذ الموقف وتجنب عواقب الهزيمة الوخيمة بإعادة المسلمين إلى الميدان ، ومقاتلتهم العدو ، بعد أن قرأ أُمَامَهُ .

ففي معركة أُحُد نزلت بالمسلمين (كما حدث في حنين) هزيمة مروعة ، ووصلت طلائع المنهزمين منهم أطراف المدينة ، ولكن ما أن علموا بثبات نبيهم وقائدهم الأعلى النبي ﷺ في مكانه من الميدان حتى كَرُّوا راجعين للتجمع حوله ، ومن أجل تحقيق هذا الغرض اشتبكوا مع طواوير المشركين المحيطة به في قتال شرس ضار ، فقدوا أثناءه سبعين من خيرة رجالهم ، ولكن ذلك — بفضل الله ثم بفضل ثبات نبيهم ساعة الهزيمة — مما أعاد لهم السيطرة على مكان المعركة في أُحُد ، فامتنعوا بسيفهم وضيقوا على قريش النصر الذي يسرته لهم غلطة فصيلة الرماة المسلمين ، فجعل رسول الله ﷺ نصر قريش نصراً تعبواً محدوداً ، بعد أن كاد أن يكون سَوَقِيًّا^(١) له آثاره المدمرة على مصير المسلمين .

فلولا ثبات الرسول ﷺ ساعة انكسار المسلمين يوم أُحُد لكانت هزيمتهم كاملة شاملة ، وعندما تصبح هزيمتهم هكذا فإنه من السهل على قائد جيش مكة ألى سفيان أن يحتل المدينة ، وهذا يكون نصر المشركين في أُحُد نصراً سَوَقِيًّا شاملاً لا نصراً تعبواً محدوداً .

ونفس الشيء فعله الرسول ﷺ في حنين .. فقد انتصرت هوازن في الصفحة الأولى من المعركة انتصاراً كاد يكون انتصاراً سَوَقِيًّا كاملاً شاملاً مدمراً ، لولا ثبات الرسول ﷺ مكانه في الميدان منذ اللحظة الأولى التي تعرض فيها جيشه لتلك الهزيمة المزلزلة .

فكانت ثمرة ثبات سيد الشجعان الرسول القائد ﷺ ، حصر انتصار هوازن بجعله (فقط) تعبواً محدوداً غير ذي أثر مصري ، حيث كان ثباته

(١) الفرق بين الانتصار التعبوي والسوقي ، هو أن الانتصار التعبوي محدود في موضع محدود ولوقت محدود ، لا أثر له مصري ، أما الانتصار السوقي فله أثره الحاسم في نتائج المعركة كأن يحقق المنتصر أهدافه كلها .

(م - ١٦ * غزوة حنين)

ﷺ السبب الرئيسى فى عودة أصحابه إلى الميدان ، هذه العودة المحمودة التى قلبت موازين القوى فى المعركة لصالح المسلمين .

غير أن مما تجدر الإشارة إليه أن الوضع المتحرّج الذى عاجله الرسول القائد ﷺ بباته وشجاعته يوم حنين يختلف عن الوضع الخطر الذى عاجله بباته وشجاعته يوم أحد من حيث النتائج النهائية لكل من المعركتين .

فى معركة أحد كانت مكاسب الرسول ﷺ ساعة انهزام أصحابه :

١ — حرمان المشركين من توسيع انتصارهم حيث كان ذلك الثبات سبباً فى حصر ذلك الانتصار فى دائرة الانتصار التعبوى الضيق الذى يتمثل (فقط) فى تمكن المشركين من قتل سبعين من الصحابة رضى الله عنهم مع إصابة الرسول ﷺ نفسه بجراحات بليغة .

٢ — إجبار قريش على الاكتفاء بما حققت من نصر تعبوى محدود ورضاها من الغنيمة بالإياب حيث انسحبت من الميدان وتركته تحت سيطرة المسلمين ، خلفه فيه أربعة وعشرين قتيلاً من جيشها ، الذى انهزم ثم انتصر نتيجة غلطة حماة مؤخرة المسلمين وهم الرماة الذين وضعهم القائد الأعلى النبى فى الجبل الذى يشرف على ميدان القتال ، ولكن قريشاً عندما عاد المسلمون إلى الميدان بعد هزيمتهم المنكرة — لم تتعرض لأية هزيمة نتيجة انتصار سوق حقه المسلمون بعد رجوعهم إلى الميدان ، فقد انسحبت قريش الى بلادها من الميدان بقواتها سليمة ما عدا ٢٤ قتيلاً فقدتهم مقابل ٧٠ فقدهم المسلمون .

أ — أما مكاسب المسلمين من ثبات الرسول ﷺ يوم حنين فقد كانت أعظم ، ذلك أن ثبات الرسول ﷺ لم يقتصر على أن كان سبباً فى حصر انتصار هوازن عند الصدمة الأولى فى دائرة الانتصار التعبوى ، بل جعل هذا الانتصار التعبوى المحدود يتحول إلى انتصار سوق كامل للمسلمين الذين نزلوا بهوازن هزيمة كاملة شاملة لم تقم للمشركين بعدها قائمة .

فعندما عاد المسلمون إلى الميدان فى حنين لم يكتفوا بتجميع صفوفهم وإعادة تنظيمهم ومنع هوازن من تحقيق مزيد من الانتصارات كما حدث فى

أحد ، بل قاموا بهجوم معاكس قوى صاعق ، كانت نتيجة انهزام جند هوازن
المشركين انهزاماً مروّعاً شاملاً ونهائياً ، تمثل في فرار جند هوازن وتركهم نساءهم
وأموالهم وأطفالهم في الميدان غنيمة للمسلمين .

ب — تسبب ثبات الرسول ﷺ في تماسك مائة من صفوة أصحابه يوم
حنين ، وكان لثبات هذه المائة أحسن الأثر في تخفيف هزيمة المسلمين ، حيث
شكل هؤلاء المائة بقيادة الرسول ﷺ — ساعة اشتداد النكبة — قوة
حمية ، حمت إلى حد كبير ساقة (مؤخرة) المسلمين المنهزمين ، حيث قاد
الرسول ﷺ بهذه المائة هجوماً عنيفاً مضاداً على عناصر هوازن التي كانت
تشكل مقدمتهم لمطاردة المسلمين ، فاستبسل الرسول ﷺ والصفوة المائة من
أصحابه في هذا الهجوم المضاد حتى أنزلوا ببعض وحدات هوازن خسائر
فادحة ، بدليل أن المنهزمين المسلمين لم يعودوا إلى الميدان من جديد إلا
والأسرى من مشركي هوازن موثقين في الحبال بين يدي الرسول القائد ﷺ .

ج — كان ثبات الرسول ﷺ والمائة الصابرة من أصحابه ثم هجومهم
المضاد على الوحدات المطاردة من هوازن — ساعة النكبة — عاملاً رئيسياً في
انخفاض زخم هجوم هوازن الذي بدأته الكمائن ، حيث من المرجح أن هوازن
ظنت (لِمَا تَعَرَّضَتْ مقدمتها له من هجوم قوى مضاد من الرتل الصغير
الذي قاده الرسول ﷺ) أن جند الإسلام كله لم ينهزم ، الأمر الذي خفف
حدة هجوم هوازن الصاعق (بعض الشيء) فيسر ذلك إلى حد كبير —
مهمة عودة الجيش الإسلامي إلى الميدان ، والذي كان في واقعه قد انهزم
بأكمله عند الصدمة الأولى مع الفجر .

د — كذلك كان دور العباس بن عبد المطلب (عم الرسول ﷺ) وكان
من المائة الثابتة) دوراً مهماً فعالاً في إعادة المنهزمين ، حيث قام (وبأسلوب
يدل على الشجاعة) قام حسب أمر الرسول ﷺ ، وبصوته الجمهوري الذي
يسمع عبر عدة أميال — بإبلاغ المسلمين المنهزمين الحقيقة الرائعة التي ما كان
الكثير منهم يتوقعها ، وهي أن القائد ﷺ ثابت مكانه في الميدان يجالد
المشركين بسيفه ، ثم ناشدهم (وخاصة الأنصار) أن يعودوا إلى الميدان
فكان لسماع مناشدة الرسول القائد ﷺ المنهزمين — عبر صوت عمه

العباس — أحسن الأثر في تقوية روحهم المنهارة ، وفي إثارة الشعور بالخجل من أنفسهم ، حين أدركوا أنهم فروا وتركوا نبيهم والأحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم وحيداً في الميدان ، فعطفوا راجعين ، ثم تحولوا إلى إعصار كاسح ، عصف بهوازن وآلافها العشرين ، حتى بعثوها بحق وغيظ كما تبعثر العاصفة الورق اليابس .

فلولا سماع المنهزمين المسلمين صوت العباس يبلغهم ثبات نبيهم ﷺ ويناشدهم باسمه العودة إلى ميدان القتال ، لكانت هزيمتهم هزيمة ساحقة كاملة ، ولتطور انتصار هوازن من انتصار تعبوي محدود إلى انتصار سوقي شامل قد تبيد فيه هوازن أكثر القوات الإسلامية المنهزمة .

وهكذا فأساس انتصار المسلمين الساحق بعد هزيمتهم المروعة وسببه الرئيسي هو ثبات سيد الشجعان وأشرف الخلق محمد ﷺ وبتلك الشجاعة التي لا مثيل لها .

هـ — العقيدة .. مما لا جدال ولا خلاف بين خبراء الحروب ، أن العقيدة للجندى في أية حرب يخوضها ، هي أكبر مصدر لقوته المعنوية التي هي أولى وأهم أسلحة الجندى المحارب .

والمسلمون الحقيقيون . ومنذ سطع نور الإسلام — وهم يجعلون الحفاظ على عقيدتهم في المقام الأول ، ولعله من تحصيل الحاصل وتكرار القول ، التصريح بأن عقيدة الإسلام كانت في مقدمة العوامل التي حققت لقوات محمد ﷺ النصر الكامل في حنين .

ولقد رأينا كيف انتصر المسلمون في حروبهم التاريخية بعقيدتهم على أعداء يتفوقون عليهم في كل شيء مادي .. انتصروا لا في العهد النبوي داخل الجزيرة فحسب ، بل وخارجها .. انتصروا انتصارات لا يكاد العقل يصدقها . وذلك عندما كانوا يحملون عقيدة التوحيد الراسخة التي يعتقدون أن الموت في سبيل الدفاع عنها وحمايتها أسمى ما يتوق إليه المسلم الصادق .. هذه حقيقة أكدها واعترف بها الباحثون حتى من غير المسلمين .

ولا أدل على هذه الحقيقة من أن المسلمين — بعد أن ضعفت في نفوسهم

هذه العقيدة أو تلاشت بعد خير القرون — توالى عليهم النكبات والإهانات والمصائب ونزلت بهم الهزائم المخجلة ، مع كثرة عددهم وتوفر عتادهم ، وقلة عدد وعتاد عدوهم ، فانقلب الوضع بالنسبة للمتسبين إلى الإسلام نتيجة الخواء العقائدى الذى تعرضت له نفوسهم فى الأعصر الأخيرة ، فتخلفوا فى كل شئ ، وخاصة بعد أن استوردوا عقائد ومبادئ غريبة أحلوها محل عقيدة الإسلام .. والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

أسباب هزيمة هوازن الساحقة بعد انتصارها :

مما لا جدال فيه أن قيادة هوازن قد رأسها شاب شجاع ألقى أثبت منذ بداية المعركة حتى نهايتها أنه على مستوى ممتاز من الدراية العسكرية والخبرة بفنون القتال والسياسة الحربية والدقة فى رسم الخطط واختيار المواقع .

أما الشجاعة ، فقد رأينا منذ البداية كيف دعا قومه — وهو يلقي فيهم كلمة حماسية — إلى أن يكسروا جفون سيوفهم عند اللقاء ، فكسر عشرون ألف مقاتل جفون سيوفهم ولقوا المسلمين بعشرين ألف سيف مصلتاً مكسور الجفن ، وكسر جفون السيوف ، اتباعه علامة تدل على الشجاعة والتصميم على الاستماتة فى القتال ، ومن الناحية العملية فقد رأينا كيف ثبت مالك بن عوف فى الميدان على رأس قبيلته الخاصة بنى نصر وجالد المسلمين — رغم انهيار بقية عشائر هوازن — حتى كادت قبيلته (لثباتها بقيادته) أن تفنى عن آخرها .

أما الخبرة والدراية والسياسة العسكرية ، فقد دلت تصرفات هذا القائد العجيب وهو يهوى جيشه لمقاتلة المسلمين — وكأنه من خريجي المعاهد العسكرية الحديثة ، فقد رأينا كيف حرص هذا القائد الشاب (بعد أن علم بخروج المسلمين من مكة) على أن يسبقهم إلى مكان التجويف الواسع من وادى حنين ويجعله معسكراً لجيشه ، لأنه (كما وصفه المعمر الحبير دريد بن الصمة) واسع وصلب غير رخو صالح لمجال الخيل التى هى سلاح الصاعقة فى ذلك العصر ولدى هوازن منها يوم حنين الآلاف .

كما رأينا من شاب صغير لم يتخط الرابعة والعشرين من عمره ، كيف

كانت قدرته على الدقة في رسم الخطط وسرعة تنفيذها ، والتي منها — ولعلها أبرعها — خطة الكمائن التي كان مالك دقيقاً في وضعها وتنفيذها إلى أبعد الحدود ، كما رأينا كيف لجأ القائد مالك (وهو يعبىء جيشه في الوادي) إلى تقويه الحرى حين جعل جيشه يظهر في أعين المسلمين أكبر من حجمه الحقيقي بعدة أضعاف .

إذن فالمسلمون واجهوا يوم حنين أعداء مقاتلين شجعاناً وقادة ممتازين من الدرجة الأولى .. أما شجاعة القائد العام هوازن شخصياً ، فلا أدل عليها من أنه (بشهادة المؤرخين المسلمين) كان ساعة انهزام عامة هوازن ، قد ثبت في الميدان على رأس عشيرته الخاصة (بنى نصر) حتى كادت سيوف المسلمين أن تبيدها عن آخرها ، ولم ينهزم القائد مالك إلا حين رأى أن لا فائدة من الاستمرار في القتال ، ومع ذلك فلم يفرّ من الميدان فرار الجبان الرعديد ، بل كان انهزامه أشبه بالانسحاب المنظم ، فقد رأينا فيما مضى من هذا الكتاب كيف تراجع هذا القائد في هيئة أركان حربه ، ووقف في كتيبة من فرسانه على تل يوفر الحماية لبعض الفارين من الميدان من قومه ، وخاصة الضعفة والنساء ، وظل ثابتاً على التل في هيئة أركان حربه حتى أيقن أنه إن لم يخفف ستحيط به كتيبة الفرسان المطاردة التي يقودها الزبير بن العوام ، فلجأ إلى الاختفاء بين الأشجار في وادي اليمانية (نخلة) وواصل ترحاله حتى لحق بحصنه في وادي ليّة ، ثم لحق بثقيف فتحصن معها في الطائف .

إذن ما دام مستوى هوازن القتالي والقيادي ممتاز إلى هذه الدرجة فما هي الأسباب التي أدّت إلى هزيمتها المدمرة ؟

يمكن تلخيص أسباب هزيمة هوازن بعد انتصارها في الأمور الآتية .

أ — غياب العقيدة :

فإذا كان المسلمون أصحاب العقيدة الجديدة (عقيدة التوحيد) يستعدّون الموت في ظلها ، ويرون هذا الموت أعزّ ما يتوق إليه المسلم — وهذا أعظم رافد يمد النفس بالروح المعنوية اللازمة للصبر على القتال حتى الموت — فإن جند هوازن (رغم شجاعتهم) ليس لهم عقيدة يستعدّون الموت في سبيلها ، بل ويبحثون عنه ليكونوا شهداء في سبيل الله كما هو شأن المسلمين

في كل معركة خاضوها تحت قيادة الرسول ﷺ .

وإذا كانت لهوازن عقيدة ، فإن هذه العقيدة (وهى عقيدة وثنية) هى فى حكم المردوم ، لأنها عقيدة ضحلة مهزوزة غير واضحة ولا راسخة ، وليس من معطياتها الاعتقاد بأن المقتول فى سبيلها سيفوز بالجنة ، فليس فى جيش هوازن جندي واحد يعتقد أنه إن قتل دفاعاً عن اللات والعزى أو أى صنم آخر ، سيكون مأواه الجنة .

إذن فهوازن يمكن القول : إنهم خاضوا المعركة بدون عقيدة ، ولهذا فإن قائدهم مالك بن عوف — لعلمه بهذه الحقيقة كوثنى — لجأ إلى جعل الدفاع عن النساء والأطفال والأموال يحل محل الدفاع عن العقيدة الصحيحة الراسخة كالتى لدى المسلمين والتى يفقدها الهوازنيون ، فأمر جميع الجنود باصطحاب أهلهم وأموالهم إلى الميدان كى يستميتوا فى الدفاع عنهم ، حينما لم يكن لديهم غيرهم ما يجبرهم على الاستماتة فى الدفاع عنه ، ولكن هذه الخطوة لم تجد شيئاً ، فقد انهزمت هوازن هزيمة كاملة شاملة تاركة الأهل والأموال وراءها .. والسبب غياب العقيدة الصحيحة الراسخة التى لا يقوم مقامها شيء فى مد الجندي بالروح المعنوية اللازمة للصمود حتى الموت .

ب — القبيلة الضيقة والمطامع :

أثناء تحليل الدوافع لخوض القبائل الوثنية (مثل هوازن) للمعارك مع أى كان ، يتضح للباحث أن العنصرية الضيقة المتمثلة فى الدفاع عن القبيلة فقط ، وكذا الرغبة فى السلب والنهب هما الباعثان الرئيسيان للجندي الوثني العربى على القتال ، وهذان الباعثان (فى نظر الخبير العسكري) غير كافيين لمد الجندي بالثبات والصمود حتى الموت .

فالعنصرية رغم أنها قد تكون عامل تجميع وحشد ، فإنها لدى المحارب ليست عامل ثبات وصمود حتى الموت ، فهو سيقاقل إلى جانب من هو من قبيلته دونما شك ، وقد يصمد بشجاعة ويضحى ، ولكن ليس إلى الحد الذى يجعله يُقبل على الموت راضياً كى يحيا الآخرون (ولا عبء بالنادر الشاذ) فهو سيقاقل بشراسة وشجاعة مادام أن هناك أملاً فى الانتصار ، ولكن عندما

تضرّسه الحرب وتشتد عليه وطأة القتال إلى الحد الذي لا خيار له معه إلا اتباع أحد إما الموت أو الفرار ، فإنه — دونما شك — سيفضّل الفرار .
أما باعث السلب والنهب فإنه أضعف من باعث العنصرية ، لأن المحارب من أجل السلب والنهب ، فإنما يخوض الحرب من أجل التمتع (حياً) بما يسلب وينهب ، ولذلك فإنه عندما يترجع لديه أن الموت سيكون مصيره إذا ما استمر في القتال ، سيركن إلى الفرار دونما شك ، مهما كان شجاعاً وبارعاً في القتال وهذا هو الذي حدث لهوازن .

ج — الغرور والاستبداد :

هاتان الصفتان ، هما صفتا قائد هوازن مالك بن عوف ، فبالرغم من أن هذا السيد الشاب ذكى شجاع ألمعى ، فإنه كان مغروراً مستبدّاً ، والغرور والاستبداد في قادة الجيوش من أخطر ما يهدد هذه الجيوش ويسبب لها النكبات كما سجل التاريخ ذلك عبر القرون .

أما استبداد مالك فقد كان جلياً (كما رأينا) في رفضه نصيحة المحارب الخبير المعمر دريد بن الصمة ، حينما انتقده لإجباره الجند على اصطحاب أهاليهم وأموالهم معهم إلى الميدان ، ونصحه بأن يعيد النساء والأطفال والأموال إلى رؤوس الجبال لتكون في مأمن إذا ما كانت الهزيمة على هوازن ، فرفض هذه النصيحة بعجرفة ، وعندما استصوب وجوه وقادة عشائر هوازن نصيحة دريد بن الصمة ومالوا إلى الأخذ بها ، هددهم قائدهم بأنه سينتحر إذا لم يسيروا حسب خطته وتبعاً لمزاجه ، فأذعنوا له ، (رغم الخطأ القاتل في تصرفه) ، لأنه كان محبوباً لديهم ، ولأنهم يخشون الانقسام والمعرفة على الأبواب .

أما غروره فقد ذكر المؤرخون أنه كان متكبراً لا يسير إلا مُسبِل الإزار ، وقد تجلّى غروره في إعلانه الاستهانة بقوات المسلمين ، هذه الاستهانة التي تجلّت في قوله (ضمن كلمة ألقاها في جنده قبيل المعركة) : (إن محمداً لم يقاتل قط قبل هذه المرة ، وإنما كان يلقي قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب

فينصر عليهم^(١) . مع أن دريد بن الصمة نصح مالكا بأن يترك الغرور لأنه سيقا تل رجلا لا كالرجال ، حين قال له : (يا مالك إنك تقا تل رجلا كريما وقد أصبحت رئيس قومك وإن هذا اليوم كا تل لما بعده من الأيام)^(٢) .

وغرور القا تل واستهانتة بجنود الجيش الإسلامي ، كا تل بمثابة إبحاء إلى جنده بأن يكونوا مثله ، فسرب روح الاستهانة بين فصائلهم بجند الإسلام لا سيما بعد أن انهزم المسلمون عند الصدمة الأولى ، فكان هذا الغرور والاستهانة (دونما شك) من أهم أسباب انتكاسة هوازن بعد انتصارها ، هذه الانتكاسة التي تحولت إلى هزيمة ساحقة شاملة .

د — الانشقاق بين هوازن :

بالرغم من أن هوازن كا تل في حنين قوة جبارة (عشرين ألف محارب) إلا أنها كا تل قد تعرّضت (منذ اللحظة الأولى من التحشد) الانشقاق كا تل له الأثر السئ على معنوياتها فقد رفضت قبيلتان من هوازن الاشتراك في حرب المسلمين ، وهاتان القبيلتان (وهما كعب^(٣) وكلاب^(٤)) من أشجع وأقوى قبائل هوازن ، بل هما بشهادة المعمر الخبير دريد بن الصمة ، أقوى قوة بين عشائر هوازن — وذلك بقوله — (لما أخبر أنهما لن تشهدا حنيئا مع هوازن — : (غاب الجدُّ والحد ، ولو كا تل يوم رفعة وعلاء لم تغب عنه كعب ولا كلاب) .

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٨٩٣ .

(٢) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٨٨٧ .

(٣) هم كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . كانوا بطنا عظيما من هوازن ، كا تل ديارهم منتشرة فيما بين تهامة والمدينة وأرض الشام . وكانوا مشهورين بالشجاعة والشرف بين العرب .

(٤) كلاب هؤلاء بطن من أعظم بطون هوازن ، وهم من بنى كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ، كا تل من منازلهم حمى ضرية بنجد وهو حمى كليب ، وحمى الريزة في جهات المدينة المنورة ، وفدك والعوالى ، وقد انتشروا في الشام . وكانوا شعبا محاربا أعظم شأنهم فملكوا حلب ونواحيها وكثيرا من مدن الشام ، وإلى عظمة وشرف كعب وكلات هؤلاء يقول الشاعر آخر بهجوه :

ففض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ورغم امتناع كعب وكلاب وأكثر بنى هلال من الانضمام إلى حشد مالك ابن عوف لم يحدث أى تردد بين أوساط عشائر هوازن الأخرى ، إلا أن امتناع كعب وكلاب وبنى هلال كان له أثره الضار على معنويات العشائر الأخرى من هوازن ، لأن جيش مالك بن عوف الذى يتكون من هذه العشائر قد خسر (بمختلف العشائر الثلاث عنه) عنصراً من أهم عناصره القتالية ، فأنقص ذلك من مستوى روح هذا الجيش المعنوية ، حتى أن الخبر الحزى المعمر الذى بلغ مائة وستين سنة قضى معظمها فى الحروب ، توقع نزول الشر بجيش هوازن لما بلغه غياب كعب وكلاب وبنى هلال عن مقاتلة المسلمين ، حين قال : (لو كان خيراً ما سبقتموهم إليه ، ولو كان ذكراً أو شرفاً ما تخلّفوا عنه فأطيعونى يا معشر هوازن وارجعوا وافعلوا ما فعل هؤلاء)^(١) .

وفعلاً (وكما توقع دريد بن الصمة) فإن هوازن لم تلق فى حربها ضد المسلمين إلا الشر كل الشر وهو الهزيمة الشاملة الساحقة .

هـ - الرعب المفاجئ :

لقد أظهرت هوازن (وخاصة فى المرحلة الأولى من المعركة) مقدرة قتالية كبيرة ، وعندما تراجع المسلمون المنهزمون وشنوا هجومهم المعاكس الضارى ، قاتلت أيضاً هوازن قتالاً شديداً ، وثبت قائدها مالك بن عوف فى الميدان يجالّد المسلمين بثبات وضراوة حتى كادت قبيلته الخاصة أن تنفى لثباتها إلى جانبه .

ولكنّ جند هوازن — ساعة استئناف المسلمين القتال واشتداد هذا القتال — تعرّضوا لسلاح خفى كان له أكبر الأثر فى التعجيل بهزيمة هوازن .. وهذا السلاح هو الرعب المفاجئ الذى قذفه الله فى قلوب جند هوازن ، بالإضافة إلى جنود مجهولين كان جند هوازن يشاهدونهم على هيئة مفزعة إلى جانب العسكر الإسلامى ، وقد ذكر مؤرخو الإسلام (استناداً إلى نصوص موثوق بها) أن هؤلاء الجنود الذين يشاهدهم جند هوازن على هيئة خيالة ، هم من الملائكة لبث الرعب فى نفوس المشركين ، وقد أكد حقيقة هذا الرعب المفاجئ رجال من ثقيف ممن شهدوا حيناً مع المشركين ثم هداهم الله

(١) مغازى الواقدي ج ٣ ص ٨٨٧ .

للإسلام كما تقدم تفصيله في هذا الكتاب .

أسباب فشل المسلمين في حصار الطائف :

كما تقدم في هذا الكتاب ، كان الرسول ﷺ قد قام — يقود جميع جيشه — بمطاردة هوازن من حنين ، حتى وصل إلى الطائف ، حيث يوجد بها أهم أجنحة هوازن (ثقيف) وفرض الحصار على حصونها ، وكان يأمل من وراء هذا الحصار أن تستسلم ثقيف للمسلمين ، ولكن ثقيفاً قاومت بعنف واستعصت حصونها ، فلم ينجح الحصار ، فاضطر النبي ﷺ إلى فكه وترك ثقيف وشأنها ، فما هي أسباب الإسراع بفك الحصار دونما أية نتيجة إيجابية للمسلمين ؟.. يمكن إيجاز الأسباب في الأمور الآتية :

أ — كانت حصون الطائف منيعة بحيث يصعب على مشاة المسلمين وفرسانهم اقتحامها ، وكان لدى الجيش الإسلامي سلاح ثقيل يستخدم عادة في الهجوم على القلاع والحصون ، وهذا السلاح هو المنجنقات والعرادات والدبابات ، وقد استخدم الرسول ﷺ هذا السلاح الثقيل بغية تسهيل مهمة اقتحام تلك الحصون ، ولكن الدفاع من ثقيف كان شديداً والأسوار كانت منيعة بحيث لم يكن القذف بالقذائف النارية وغير النارية ذا أثر فعال على هذه الحصون .

ب — المقاومة الشديدة .. مما لا جدال فيه أن ثقيفاً جيل محارب ممتاز ، وكانوا من أهم أجنحة هوازن ولا أدل على شجاعتهم من أنهم فقدوا يوم حنين وحدهم مائة قتيل بمن فيهم قائدهم عبد الله بن عثمان . وكانوا — استعداداً للمقاومة في الحصون — قد أدخلوا في حصونهم من المواد الغذائية ما يكفيهم لسنة كاملة ، أما الماء فقد كان موجوداً بكثرة داخل حصونهم .

وقد كانت مقاومتهم للحصار شديدة ، وكانوا ماهرين في القصف بالسهم ومقاومة الدبابات التي يستخدمها المهاجمون لنقب الأسوار كدروع يحمون بها ، ولقد كان جل اعتمادهم على القوس والنبل ، فقد صوبوا سهامهم بمهارة نحو المسلمين وقصفوهم بها بغزارة مما أحدث بينهم عدة إصابات قاتلة ، الأمر الذي اضطرهم إلى التراجع بعيداً عن مرمى السهم .

كذلك عندما حاولت بعض الوحدات الإسلامية استخدام الدبابات (وكانت من الخشب السميك) لفتح ثغرات في أسوار الحصن يدخل منها جند الإسلام ، قابلت ثقيف هذا السلاح الثقيل بسلاح مضاد فعال ، وهو قذائف من الحديد المحمي المنصهر ، كانت تقذف به هذه الدبابات فتحرقها ، الأمر الذى كشف الجنود المحتمين بها ، فصاروا عرضة لسهم ثقيف ، فاضطروا للتراجع وفشل هجومهم المدّرع لنقب الأسوار . وهكذا لم تنجح محاولات الجيش الإسلامى لاقتحام حصون ثقيف عنوة .

ج — صعوبة تطويل أمد الحصار .. لم يبق أمام الجيش الإسلامى إلا أمر واحد لإجبار ثقيف على الاستسلام وهو أن يظل المسلمون محاصرين ثقيفاً حتى ينفد ما لديهم من مواد غذائية ، وذلك يستغرق سنة كاملة ، والمحارب المسلم فى ذلك العهد ، لم يتعود (بعد) على البقاء مثل هذه المدة بعيداً عن أهله وعياله .. فلم ير الرسول ﷺ البقاء لفرض الحصار وتجميد الجيش أمام حصون ثقيف طوال هذه المدة .

د — عدم خطورة ثقيف .. كذلك يعتبر من الأسباب ، أن ثقيفاً (بعد اضمحلال قوة هوازن) لم تعد ذات خطر على الإسلام بحيث يتحتم على المسلمين تحشيم أنفسهم متاعب الانشغال بحصارها لمدة سنة كاملة ، فثقيف بعد دخول جميع عشائر هوازن فى الإسلام بقيت معزولة تماماً ، ومحاطة بالأعداء الذين كانوا أصدقاء وإخوة الأمس ، فهؤلاء وحدهم كفيلون بإزعاج ثقيف وتضييق الخناق عليها ، كلما سنحت لهم الفرصة ، وهو ما حدث (فعلاً) وخاصة بعد أن دخل ملك هوازن وقائدها العام يوم حنين مالك بن عوف فى الإسلام ، وصار بنفسه (وهو الشجاع المطاع فى قومه) يشن الغارات العنيفة على ثقيف .

هـ — ثبت (وهو الأهم) أن الرسول القائد ﷺ جاءه الأمر من السماء بأن يفك الحصار عن ثقيف ، لأنه سبق فى علم الله تعالى أن ثقيفاً نفسها ستأتى طائفة مختارة إلى المدينة لتعلن إسلامها ، ولهذا فإن النبى ﷺ لما طلب منه بعض أصحابه (وهو يفك الحصار عن ثقيف) أن يدعو عليها ، رفض ودعا لها قائلاً : « اللهم اهد ثقيفاً واثبت بها » أو كما قال ﷺ وهكذا عَجَّل

الرسول ﷺ بفك الحصار عن ثقيف التي جاءته مسلمة في أواخر السنة التاسعة من الهجرة .

انهيار الوثنية في جزيرة العرب :

كان الوثنيون العرب في الجزيرة كلها يعلقون الآمال — لمقاومة التيار الإسلامي وحماية الوثنية من خطر التوحيد في الدرجة الأولى — على قريش سدنة الكعبة وحرّاس المشاعر ، وعندما وقعت عاصمتها مكة في أيدي المسلمين لم يعد هناك من قوة حربية فعالة تتجه إليها أنظار المتبقين على الوثنية في الجزيرة لمواجهة التوحيد والتغلب على قواته المسلحة سوى قبائل هوازن الكثيرة العدد وذات القدرة القتالية الممتازة ، ولكن ها هي هوازن تسقط آخر الأمر وينتهى وجودها العسكرى كقوة معادية للإسلام ، بل ويتحوّل كل عشائرها أنصاراً لهذا الدين ..

فماذا عسى أن تفعل الجيوب الشركية الضعيفة المبعثرة هنا وهناك في جزيرة العرب الشاسعة ، فقد انهار آخر معقل للوثنية في الجزيرة بانهيار جيوش هوازن يوم حنين ، وبهذا صح يقيناً القول : إن الوثنية قد انهارت في الجزيرة العربية إلى الأبد بعد معركة حنين ، بدليل أنه بعد هذه المعركة أخذت وفود العرب تتوارد إلى المدينة لإعلان الدخول في الإسلام .

والجيوب التي أبدت بعض العناد ، كالتي في أقصى الشمال (كقبيلة طيء) أو في أقصى الجنوب كبنى الحارث ناحية نجران ، جرد عليها الرسول ﷺ حملات عسكرية صغيرة قضت على مقاومتها ، ولم تأت السنة العاشرة من الهجرة إلا وأصبحت الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها داخلية في الإسلام ليس بها وثني واحد ، اللهم إلا جاليات يهودية ونصرانية صغيرة بقيت على دينها في ظل سلطان الإسلام لأنها من أهل الكتاب الذين يُكْتَفَى منهم بأخذ الجزية كإقرار بالخضوع لسلطان الإسلام .

وهكذا كانت معركة حنين آخر معركة حربية عنيفة يخوضها المسلمون بقيادة نبيهم ، مع الإشارة إلى غزوة تبوك — وإن لم يخض الرسول فيها قتالاً مع الرومان — إلا أنها كانت لنجاحها ذات أثر معنوى عظيم في تثبيت دعائم

الإسلام وهيبة المسلمين في نظر البيزنطيين حكام الشام والعرب المنتصرة الموالين لهم هناك . وهكذا وبعد الانتصار العسكري الحاسم في حنين ومجىء الناس ليدخلوا (باختيارهم في الإسلام أنزل الله تعالى — كإشارة إلى انتهاء الصراع المسلح في جزيرة العرب التي كانت فيه انتصارات المسلمين الحربية تمهيداً لهذه الفتوحات المعنوية المتمثلة في تسابق القبائل إلى المدينة المنورة للدخول في الإسلام — أنزل الله تعالى قوله : (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً) .



خارطة تبين مناطق التباين العربية
X عند ظهور الإسلام وقبله
O هذا الزمان الذي التباين المسيحية
في هذا الزمان الذي التباين المسيحية

أهم مراجع هذا الكتاب

اسم المؤلف	اسم الكتاب
ابن كثير	تفسير ابن كثير
محمد بن علي الشوكاني	فتح القدير (تفسير)
سيد قطب	في ظلال القرآن (تفسير)
الزمخشري	الكشاف
البخاري	صحيح البخاري
مسلم	صحيح مسلم
ابن القيم	زاد المعاد
الدكتور جواد علي	تاريخ العرب قبل الإسلام
محمد بن إسحاق	سيرة ابن هشام
أبو الفرج الاصبهاني	الأغاني
أبو حيان التوحيدي	الصدقة والصديق
أحمد بن علي القلقشندي	صبح الأعشى
ابن قدامة	المغني في الفقه
علاء الدين المرداوي	الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف
منصور بن يونس البهوتي	كشاف القناع
محمد قطب	شبهات حول الإسلام
محمد بن محمد بن سليمان	جمع الفوائد
ابن الجوزي	زاد المسلم (تفسير)
خليل مصطفى	سقوط الجولان

اسم الكتاب

غاية المنتهى

اسم المؤلف

الشيخ مصطفى السيوط

الرحياني

محمد بن جابر الطبري

الدكتور سموحي فوق العادة

الدكتور مونتجمري وات

عباس محمود العقاد

عباس محمود العقاد

السيد سابق

اللواء الركن

محمود شيت خطاب

السيد رشيد رضا

مولانا محمد علي

ابن برهان الدين

محمد الغزالي

عبد الملك بن حسين العصامي

إسماعيل بن كثير

محمد بن الأثير

علي بن حزم

عبد القدوس الأنصاري

علي بن أحمد السمهودي

محمد فريد وجدى

ابن منظور الإفريقى المصرى

محمد بن علي الشوكاني

الطبري (تاريخ)

القانون الدولي العام

محمد نبى ورجل دولة

حقائق الإسلام وأباطيل خصومه

ما يقال عن الإسلام

فقه السنة

الرسول القائد

تفسير الإمام محمد عبده

حياة محمد ورسالته

السيرة الحلبية

فقه السيرة

سمط النجوم العوالى

البداية والنهاية

الكامل فى التاريخ

جوامع السيرة

آثار المدينة

وفاء الوفاء

دائرة معارف القرن الرابع عشر —

العشرين

لسان العرب

نيل الأوطار

اسم المؤلف	اسم الكتاب
عفيف عبد الفتاح طباره	اليهود في القرآن
ابن سعد	الطبقات الكبرى
ياقوت الحموى	معجم البلدان
صفى الدين عبد المؤمن	مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة
ابن عبد الحق	والبقاع
عمر رضا كحالة	معجم النساء
خير الدين الزركلى	الأعلام
أبو تمام الطائى	ديوان الحماسة
جورجى زيدان	العرب قبل الإسلام
توماس كارليل	الأبطال
جوستاف لوبون	حضارة العرب
الشهيد عبد القادر عودة	التشريع الجنائى فى الإسلام
ابن حجر العسقلانى	الإصابة
ابن عبد البر	الاستيعاب
محمد أبو الفضل — على النجاوى	أيام العرب فى الإسلام
السهيلى	الروض الأنف
القلقشندى	نهاية الأرب
عبد العزيز الثعالبي	معجزة محمد رسول الله
عبد الوهاب النجار	قصص الأنبياء
عبد الرحمن بن خلدون	تاريخ ابن خلدون
المسعودى	مروج الذهب
عمر رضا كحالة	معجم قبائل العرب
البكرى	معجم البكرى
الدكتور حسن إبراهيم حسن	تاريخ الإسلام السياسى

اسم المؤلف	اسم الكتاب
محمد أسعد طلس	تاريخ الأمة العربية
محمد بن موسى الخوارزمي	عجائب الأقاليم السبعة
محمد حسين هيكل	حياة محمد
يحيى بن أبي بكر العامري	بهجة المحافل
المقريزي	إمتاع الأسماع
عبد القادر بن أحمد بن مصطفى الدمشقي	تهذيب تاريخ ابن عساكر
محمد عزة دروزة	عصر النبي
أبو زيد أحمد بن سهل البلخي	البدء والتاريخ
محمد بن عمر بن واقد	مغازي الواقدي
ابن حوقل	صورة الأرض
محمد بن أحمد البيروني	الآثار الباقية من القرون الخالية
المقدسي المعروف بالبشاري	أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم
أحمد بن يحيى البلاذري	أنساب الأشراف
علي بن أحمد بن حزم	جمهرة أنساب العرب
أحمد زكي صفوت	جمهرة رسائل العرب
الفضل بن الحسن الطبرسي	مجمع البيان في تفسير القرآن
المبارك بن محمد بن الأثير الجزري	جامع الأصول من أحاديث الرسول
زيد بن علي بن الحسين	مسند الإمام زيد
عبد الله بن يوسف الحنفلي الزيلعي	نصب الراية
المبارك بن محمد بن الأثير الجزري	النهاية في غريب الحديث
أحمد بن تيمية	منهاج السنة النبوية
حافظ وهبة	جزيرة العرب
الهمداني	صفة جزيرة العرب

اسم المؤلف	اسم الكتاب
المصعب بن عبد الله الزبيري	نسب قريش
أبو الحسن البلاذري	فتوح البلدان
إبراهيم الحداد	الحرية عند العرب
أحمد بن أبي يعقوب	تاريخ اليعقوبى
جان جاك بيرك	جزيرة العرب
الدكتور محمد حميد الله	الوثائق السياسية في العهد النبوى والخلافة الراشدة
جواهر لال نهرو	لمحات من تاريخ العالم
محمد بن حبيب بن أمية الهاشمى	المخبر
ول . ديورانت	قصة الحضارة
أحمد أمين	فجر الإسلام
محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة	عيون الأخبار
هـ . ج . ولز	معالم تاريخ الإنسانية
كارل بروكلمان	تاريخ الشعوب الإسلامية
محمد بن أحمد بن على الفاسى	شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام
محمد الخضرى	تاريخ الأمم الإسلامية
شمس الدين محمد بن أبى	المختصر فى تاريخ البشر
طالب الأنصارى	نخبة الدهر من عجائب البر والبحر
عباس محمود العقاد	عبقريّة محمد
المؤلف	غزوة بدر الكبرى
المؤلف	غزوة أحد
المؤلف	غزوة الأحزاب
المؤلف	غزوة بنى قريظة
محمود بن أحمد الزنجاني	تهذيب الصحاح

اسم الكتاب

اسم المؤلف

مجمع الزوائد

علي بن أبي بكر الهيثمي

الجامع الصغير

الإمام السيوطي

صحيح الأخبار عما في بلاد العرب

من الآثار

محمد بن بلهيف

صحيح الترمذي

الإمام الترمذي

سنن أبي داود

الإمام أبو داود

الفاروق القائد

محمود شيت خطاب

تاج العروس

محمد مرتضى الزبيدي

الأخبار الطوال

أبو حنيفة الدينوري

الفتوحات العربية الكبرى

الجنرال جلوب باشا

التنبيه والإشراف

علي المسعودي

المجتمعات الإسلامية في القرن الأول

شكري فيصل

محتس

الموضوع	صفحة
المقدمة	٥
كلمة المؤلف	٩
الفصل الأول : يجمل الأحداث بين فتح مكة وغزوة حنين	١١
سرية المشلل عام ثمان للهجرة	١٢
حملة هدم العزى ٢٥ رمضان سنة ثمان للهجرة	١٤
حملة يللملم أواخر رمضان سنة ثمان للهجرة	٢٠
حملة عرنة أواخر رمضان سنة ثمان للهجرة	٢١
الفصل الثاني : من هم هوازن ؟	٣٠
نظرة العرب إلى قريش	٣٨
إستعداد هوازن للزحف على مكة	٤٣
الفصل الثالث : الحالة بين هوازن وقريش بعد ظهور الإسلام	٥٠
إستعارة الرسول السلاح من المشركين	٦٦
تاريخ تحرك الجيش النبوى من مكة إلى حنين	٦٩
جدول بأسماء القادة فى حنين	٨٣
الفصل الرابع : نشوب المعركة وهزيمة المسلمين	٩٢
ثبات الرسول القائد ساعة الهزيمة	١٠٠
الإمتحان العظيم	١٠٢
شأن المائة الصابرة مع الرسول	١٠٩
مقتلة ثقيف وقتل قائدها	١٢٢
الفصل الخامس : مصرع الفارس المعمر أدريد بن الصمة	١٢٦
الرسول ينهى عن قتل النساء والأطفال	١٣٠

١٣٨	النبي يتحرك إلى الطائف
١٤٠	الرسول يأمر بإتلاف يساتين ثقيف ثم يعادل عن ذلك
١٥٧	دعاء الرسول ﷺ لثقيف
١٥٩	مثالية الرسول ﷺ
١٦١	قصة سراقه بن جعثم المثيرة
١٦٨	أمانة وشرف الحنذلي المسلم
١٧٠	أسماء المؤلفة قلوبهم الذين أعطول من الغنائم
١٨١	أنخت الرسول التي كانت بين السبأيا
١٨٩	النبي يعلن العفو عن مالك بن عوف
١٩٦	أمير مكة الشاب القوي الصالح
١٩٨	ثقيف تقتل سيدها بعد إسلامه
٢٠٧	هدم الطاغية اللات وما صاحبه من متاعب
٢٣٠	الفصل السادس : قتل الفريقين في معركة حنين
٢٣٧	أسباب هزيمة المسلمين في البداية
٢٤٠	أهم أسباب انتصار المسلمين بعد انهزامهم
٢٥١	أسباب فشل المسلمين في حصار الطائف
٢٥٣	إنهيار الوثنية في جزيرة العرب
٢٥٥	أهم مراجع هذا الكتاب
٢٦٣	كتب للمؤلف
٢٦١	الفهرس

كتب للمؤلف

سلسلة معارك الإسلام الفاصلة

- | | |
|----------------|----------------------------------|
| الطبعة التاسعة | ١ — غزوة بدر الكبرى |
| الطبعة السابعة | ٢ — غزوة أحد |
| الطبعة السابعة | ٣ — غزوة الأحزاب |
| الطبعة الخامسة | ٤ — غزوة بنى قريظة |
| الطبعة الخامسة | ٥ — صلح الحديبية |
| الطبعة الخامسة | ٦ — غزوة خيبر |
| الطبعة الثانية | ٧ — غزوة مؤتة |
| الطبعة الثانية | ٨ — فتح مكة |
| الطبعة الأولى | ٩ — غزوة حنين |
| الطبعة الثالثة | ١٠ — القومية في نظر الإسلام |
| الطبعة الثانية | ١١ — صراع مع الباطل |
| الطبعة الثانية | ١٢ — لبيب الصراحة |
| الطبعة الثالثة | ١٣ — لا .. يافتة الحجاز |
| | ١٤ — إسكات الرعاع |
| | ١٥ — أكذوبة الاشتراكية |
| الطبعة الثانية | ١٦ — الإسلام ونظرية داروين |
| | ١٧ — كيف نخارب الإلحاد |
| الطبعة الأولى | ١٨ — العرب في الشام قبل الإسلام |
| | ١٩ — هل هذا من العروبة (قصيدة) |